# مدن الملح

«٥»

# بادية الظلمات

عبد الرحمن منيف

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عبد الرحمن منيف

رواية

# مدن الملح

«٥»

# بادية الظلمات

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس..

بدر

جميع الحقوق محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ١/٨٠٧٩٠٠ برقياً « موكيالي »
بيروت ـ ص.ب : ٥٤٦٠/١١بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧ .

الطبعة الأولى ١٩٨٩

# ذاكرة الامس البعيد

**الذاكرة. . .**

لعنة الانسان المشتهاة ولعبته الخطرة، اذ بمقدار ما تتيح له سفراً دائماً نحو الحرية، فانها تصبح سجنه. وفي هذا السفر الدائم يعيد تشكيل العالم والرغبات والأوهام.

وإذا كانت في حياة كل انسان لحظات ومواقف تأبى أن تغادر الذاكرة، فليس لأنها الأهم، أو لأنها أعطت لحياته مساراً ومعنى، اذ ربما لم تقع بنفس الدقة أو بالتفاصيل التي يتخيلها أو يفترضها، وانما لفرط ما استعادها في ذاكرته، بشكل معين، ربما الذي يتمناه، يوماً بعد آخر، فقد أصبحت وحدها الحقيقة، أو وهم الحقيقة.

فنر وهو يتذكر عين فضة، وأيامه في موران، ثم عندما أصبح نائباً لأبيه في العوالي، فانه يتذكر لحظات ومواقف وتغيب أخرى، لكن تظل صورة هاملتون هي الأقوى.

فبعد أن رتب وهاملتون عدداً من الأمور في العوالي، وحلا الكثير من القضايا المتراكمة، وكانت عادتها أن يسهرا ويطيلا السهر، يتذكر فنر أن هاملتون قال له في احدى الليالي كلاماً لم يألفه.

قال له:

- انك، يا سمو الأمير، بحاجة الى كمية كبيرة من البحر، نعم كمية كبيرة، لكي توازن هذا الكم الهائل الذي لديك من الصحراء!

والأمير الذي أعجب بالتعبير، لم يجد له دلالة عملية، أو معنى محدداً.



ابتسم، هز رأسه، ولم يعلق.

هاملتون، مثل عادته، حتى عندما كان طالباً في الجامعة، «إذا أردت أن تستقطب انتباه الآخرين يجب أن تتكلم اما بطريقة مختلفة أو شيئاً مختلفاً». لا يتذكر هل قرأ هذه العبارة، هل سمعها، أم هو الذي صاغها؟ المهم انها ظلت ملازمة له منذ وقت طويل، وان اخذت اشكالاً متطورة وذكية تبعاً لتقدمه في العمر، واتساع ثقافته وتجاربه.

الآن، وهو يقول هذه العبارة للأمير، وكانا جالسين على شرفة قصر الهازعي بالطريفة، وجانب من البحر يرى من هناك، يريد أن يكون هذا الدرس أول الدروس وأكثرها أهمية.

- . . . والبحر، يا صاحب السمو، ليس المياه والزرقة والأمواج، انه فلسفة كاملة، تبدأ بالخوف ثم التأمل وأخيراً بالتواصل. والتواصل يشكل قاعدة المثلث، لأن الصحراء تشترك مع البحر في الصفتين الاخريين، اذ بمقدار ما تثير الصحراء الخوف في حالات معينة، فإنها، بعد أن يزول الخوف، تحمل الانسان على التفكير والتأمل، وتوحي له بالكثير، لكنها، مع ذلك، تضع بينه وبين الآخرين سداً. وهي بمقدار ما يمكن أن تكون حماية ضد الغزاة والطامعين، فإنها أيضاً سجن للقاطنين فيها، فهي تعزلهم عن الآخرين، وتجعلهم يولدون ويعيشون ثم يموتون وحيدين وبعيدين. . . الا في حالات قليلة ونادرة، حين يتوافر الرجال الشجعان، والظروف المواتية. عندها يمكن أن تكسر قضبان هذا السجن، وينطلق السجناء إلى الخارج، حاملين صفاءهم وتأملاتهم وارادتهم المديدة الصلبة، وقد ازدادت قوتهم حين امتحنوا بقطع هذه الصحراء. . .

فنر يرى هاملتون لأول مرة بهذه الصورة، لقد أغلق عينيه نصف اغلاقة، وكأنه يستعيد درساً، لفرط ما كرره، أصبح يردده بهذه الطريقة العميقة المؤثرة. ورغم أنه فهم المعنى العام للكلام الذي أداه هاملتون كما يؤدي المؤمن الصلاة، أو كما يرفع المتوسل دعاءه إلى قوة مجهولة، لكي تساعده، فقد احتار. لم يكن هاملتون هكذا من قبل، وما يقول الآن يتجاوز تلك الثرثرات التي يروق للبعض

أن يرددها لإشعار الآخرين بسعة المعرفة.

قال فنر:

- لا أريد أن أسأل الآن، يمكن أن تتكلم، مستر هاملتون، كل ما تريد، لكن لدي الكثير من الأسئلة فيما بعد.

- يمكن أن أقول أشياء عديدة، يعرفها غيري، لكن احس، خلافاً للكثيرين، انه اذا تم الوصول الى معادلة جديدة، هي الصحراء والدين والبحر، فعندئذٍ يمكن أن يترتب على هذه المعادلة شيء جديد!

ابتسم. نظر إلى السماء، التفت قليلاً، نظر إلى البحر، تنحنح ثم تابع:

- لا أريد أن أفسد الفطرة التي يتمتع بها سكان هذه الصحراء، وربما كان جلالة السلطان نموذجاً لها، وحتى لو أردت قد لا أستطيع. وأعرف أن لديك من روح الصحراء فيضاً يزيد عما تحتاجه، أو عما هو مطلوب في مثل العالم الذي نعيش فيه اليوم، كل ما افترض أنه ضروري، لكي تولد المعادلة الجديدة، ان يكون في قمة الهرم بحارة شجعان كسروا قضبان سجن الصحراء وانطلقوا، عبر البحر، وليس عبر صحاري أخرى، لكي يمثلوا نموذجاً، يحتاجه هذا العصر.

هز رأسه كمن يفيق من النوم، أو كمن يختبر نفسه بعد صدمة قوية، وبعد قليل:

- لا أخفي عليك، يا صاحب السمو، انني مشوش، اذ بمقدار ما تبدو لي الصورة واضحة، وكأنها جوهرة في الظلمة، الا انها زلقة مثل سمكة، أو خادعة مثل نقطة نور تسقط من مكان عالٍ. احس الاشياء بغزارتها الأولى وتدفقها، لكن لا أقوى على مسكها، وهذا ما يعطي حديثي نسقاً مضطرباً وغامضاً.

ضحك فنر، وكان ضحكه أقرب إلى القهقهة، لأن حالة الانفعال التي سيطرت، فجأة، على هاملتون، جعلته مضطرباً حنقاً. تابع دون أن يأبه لهذه المقاطعة:



- أعترف أن الدوافع الحقيقية لوجودي هنا لم تعد واضحة حتى بالنسبة لي. ربما كنت أعرف، من قبل، لماذا جئت أكثر مما أعرف الآن. صحيح أنني قدمت بعض الخدمات، وأديت بعض المهمات التي كُلّفت بها، كما أتيحت لي الفرصة لأن اطلع وأعرف أكثر من قبل، ويمكن أن أكتب كتاباً أو أكثر عن الآثار، لكن، مع ذلك، أشعر أنني افتقدت التركيز اللازم، أو بالأحرى أصبحت أكثر حيرة وأكثر قلقاً. أو بكلمة دقيقة أصبحت أقل يقيناً.

وتذكر كلمات عمته، ماركو. منذ سنوات طويلة قالت كلمات لا يزال رنينها يعاوده بين فترة وأخرى. كان هو وكان أبوه، وكانوا يتناقشون فيما إذا من الأفضل بالنسبة له البقاء في لندن أو السفر الى الهند، وكان هو متردداً وحائراً. قالت عمته:

- مشكلة هاملتون، وابتسمت، انه نصفان: نصفه شاعر ونصفه مفكر...

- وابتسمت أكثر من قبل وهي تضيف:

- ولا أعرف أي نصفيه الشاعر وأي نصفيه المفكر، ولا أعرف أي النصفين سوف يتغلب في النهاية.

ابتسم أبوه وقال بسخرية لاذعة:

- ولا أحد يعرف ما اذا كان مقسوماً عمودياً أم أفقياً!

استعاد هاملتون مع عمته ذلك الحديث بعد سنوات طويلة، ابتسمت، وأضافت العمة في المرة الثانية:

- وربما الأصح أن استبدل كلمة شاعر بكلمة مغامر.

تذكر هاملتون هذه القصة وهو يتدفق، اضطرب، قال لفنر:

- من حسن حظي اني لم التحق بسلك التدريس، لأن هذا السلك يوحي للمدرس أنه ينقل اليقين للآخرين، والآخرون ينتظرون من المدرس هذا اليقين، دون أن يكلفوا أنفسهم امتحان القناعات بشكل جدي، ودون رغبة بتبادل الادوار.

وبعد قليل وهو ينهض لكي ينهي الحديث ويريّض جسده:

- يمكن أن نتحدث حول هذا الموضوع في وقت آخر!

لقد جرى هذا الحديث في بداية اقامتها في العوالي، وكان هاملتون في أوج حماسه واضطراباً معاً. اذ ربما افترض، خلال فترة سابقة، انه يستطيع أن يؤدي دوراً بين طرفين بحاجة إلى بعضهما، وبحاجة اليه، وهذا الدور اذا تعدى ساعي البريد، أو المشورة التي قد يؤخذ بها أو تهمل، فإنه لا يرقي إلى درجة يمكن أن يجسد فلسفة طالما راودته بغموض، أو حلم بها في ليالي الصحراء الناعمة المديدة.

الآن، يقف في مواجهة التحدي الذي طالما انتظره. صحيح أنه كان في فترات سابقة يعرف ما يجب أن يعمله، وكان متأكداً وراغباً، لكن مثل أشياء كثيرة في هذه الحياة، لا يقدّر الانسان مدى امكانياته في ممارستها الا حين يمارسها بالفعل.

المشاكل الكبيرة والصغيرة لها الأهمية نفسها، في هذه الفترة الدقيقة: فتح شارع، أو تأمين المواد التموينية لاحدى المناطق، أو مواجهة نتائج سيل من السيول، تأخذ من وقت الأمير فنر، وبالتالي من وقته، المقدار نفسه الذي تأخذه مسألة غضب ابن مشعان، وسفره العاصف الى مناطق الشمال ليلتحق بقواته، ونفس مقدار الوقت أيضاً الذي تأخذت مسألة ترتيب العلاقة بشكل كامل ونهائي مع بريطانيا العظمى أو احدى الدول المجاورة.

قال هاملتون لنفسه، بعد أن داهمت السيول مناطق عديدة في العوالي وخربت واتلفت الكثير: «لا بد أن تترك الفلسفة الى الفلاسفة، يا هاملتون، أو أن تتركها الى الوقت المناسب». والتفت إلى مواجهة السيول وآثارها، وبالاضافة إليها هناك آلاف الطلبات الصغيرة التي تبدأ بالمتسولين وتنظيف الشوارع، وليس هناك حدود لما يمكن أن تصله.

هذا الوضع لم يختره أحد، وانما فرض نفسه، لأنه الشيء الوحيد الذي يكوّن الحياة والعلاقات، وبالتالي يحدد النتائج التي يمكن الوصول إليها الآن أو في المستقبل.



وإذا كان هاملتون يجد وقتاً فارغاً، بعد أن تنتهي الأعباء اليومية، وتنتهي هنا بمعنى أنه لم يعد من الممكن معالجة أكثر مما تمت معالجته ذلك اليوم، فإنه يكون متعباً ومنطفئاً، ولا يستطيع أن يستعيد نفسه الا برشفات من الويسكي.

لقد اكتسب هذه العادة، مع عادات أخرى، من الهند، اثناء خدمته هناك. ورغم أن الكثيرين من الذين زاروا موران، أو عرفوا عاداتها، حذّروه من الشرب، إلا أنه لم يتوقف. كل ما فعله أنه غيّر الطريقة، فبدلاً من أن يشرب الويسكي مع الصودا، وبدل الكأس الكريستال التي كان يحرص عليها كثيراً، أصبح يشرب الويسكي جافاً ومن فم الزجاجة، بعض الأحيان. قال للسلطان، منذ الأيام الأولى لاقامته:

- . . . واحب، يا صاحب الجلالة، أن أبلغك، حتى لا يأتي من ينقل اليك في المستقبل، اني أتناول مقداراً من الكحول، وأنا أفعل ذلك بناء لطلب الطبيب.

ولما التبست الكلمة على السلطان، وتساءل عن هذه «الكحول»، أوضح له أن الكحول هي الخمر. التفت السلطان في أكثر من اتجاه، ليتأكد أن أحداً لم يسمع، وأجاب:

- وإذا كانت هذي وصية الطبيب ما احد يقدر يخالفها، يا الصاحب!

وبعد قليل وبهمس:

- بس يلزم تعرف، الله يسلمك، جماعتنا عقولهم مثل العصافير، اذا شافوا أو عرفوا ما نخلص من حلوقهم. والاحسن أنهم ما يشوفون ولا يعرفون!

والسلطان الذي تحسب وخاف ما لبث أن تأكد واطمأن، فهاملتون أشد حرصاً أن لا يعرف أحد، خاصة وأنه يشرب مقداراً محدوداً، ولكي «يفتّح خلايا الذهن وينشط الدورة الدموية» كما قال مرة، حين سأله السلطان. أكثر من ذلك حرص أن يحمل معه مقادير وافرة من الأدوية المعروفة، للأوجاع الطارئة أو للجروح. وما يكاد يواجه حالة أو وضعاً يستدعي التدخل أو تقديم المساعدة حتى يفعل. فالصيدلية التي يحملها معه في أسفاره، وكانت تكبر وتتسع فترة بعد

أخرى، كان ضمنها «دواء الحصر» كما سماه السلطان ذات مرة، حين رأى عدداً من صناديق الويسكي تحمل إلى سيارة هاملتون!

ان يشرب اذن كأساً قبل الغداء، واثنين قبل العشاء، يجعله أكثر نشاطاً وحيوية، ويستغرب كيف أن «دواء الحصر» كما أصبح هو يسميه أيضاً، يولد فيه هذا القدر من الانطلاق والذكاء ورغبة الحديث، اضافة الى نسيان التعب أو الهموم.

حتى في المرات التي سافر إلى لندن، أو إلى أماكن أخرى، وانتفت الرقابة، وجد أنه يفضل تناول الويسكي دون اضافة الصودا أو الثلج. ولكي يبرر، حين سئل، قال:

- لقد صُنع كذلك ويجب أن يشرب بهذه الطريقة، لأن الاضافات، أياً كانت، تموهه، تغير طعمه الحقيقي، ومن يتعود على الطعم الحقيقي لا يستسيغ أية اضافات أخرى!

لقد عرض على فنر، في احدى السفرات، أن يشرب، فلما تردد، لم يلحّ عليه، وانتهى الأمر بأن يشرب هو دون حرج، ويعرف الآخرون ولا يستنكرون!

في بعض الأمسيات، ورغم التعب والهموم، كان يعود إلى بعض الأحاديث التي ترتفع فوق اليومي والعادي. ذات ليلة، ورغم التعب، عاد مرة أخرى إلى البحر:

- ... وكما ذكرت في مرة سابقة، البحر يولّد عقلية ونوعاً من السلوك والتصرفات مختلفاً عن مناطق الداخل وعن الصحراء. حتى المناطق الداخلية فإن سكان السهول يختلفون عن سكان الجبال، لأن الطبيعة تفرض قوانينها وتضطر الناس لأن يتكيفوا معها.. ومن هنا كنت ألفت النظر باستمرار أن الصحراء لها أيضاً قوانينها، وربما تكون هذه القوانين أكثر صرامة وقسوة من أماكن أخرى، وهذا ناتج عن قسوة الصحراء ذاتها. أما البحر، وكذلك المدن البحرية، فإن رغبة الاكتشاف والاتصال مع الآخرين، أو استقبال الآخرين، تولّد بالضرورة عقلاً مختلفاً، تجعل الناس أكثر استعداداً لإقامة



العلاقات، للسفر، لاكتساب معارف جديدة.

قال يونس شاهين، الذي لم يحضر المناقشة السابقة، وكان حاضراً هذه المرة:

- أتذكر يا مستر هاملتون، اني قرأت في بعض الكتب، ان بريطانيا ذاتها، والتي هي جزيرة يحيطها البحر من كل الجوانب، كانت، خلال فترة طويلة معزولة عن العالم، وتشبه الكثير من الصحاري، لانقطاعها وعدم تواصلها مع الدول الأخرى.

قال فنر:

- جماعتنا، بموران، اذا الواحد منهم ما سافر مرة سافر مرتين. وما ان يفكوا احمال السفر حتى يحزموا من جديد، وتلقاهم بكل مكان.

ابتسم هاملتون، هز رأسه عدة مرات، وكان لديه الكثير ليقوله:

- هذا بالضبط ما قصدت اليه يا طويل العمر: الانسان اذا سافر، اذا اطلع واحتك بالآخرين، يمكن أن يكتسب معارف جديدة. والبحر بطبيعته وسيلة الاتصال الفعلية، وبريطانيا، حين كانت معزولة في تلك الجزيرة لم تستطع أن تفعل شيئاً، أما عندما ركب أبناؤها الشجعان سفنهم وانطلقوا، فقد تغيرت الأمور جميعها، أصبحوا يحكمون العالم كله، العالم القديم والعالم الجديد. ومن هنا اعتبر أن موران يجب أن تلتفت الى البحر، أن تنتظر منه وأن تنظر إليه باستمرار...

كاد هاملتون يجري مقارنة بين فنر وخزعل، ليدلل على صحة وجهة نظره، لكنه تردده، فقال كلاماً عاماً:

- وحتى أبناء موران، يا طويل العمر، فإن الفرق كبير بين الذين سافروا واحتكوا واطلعوا وبين الذين لم يغادروا أماكنهم.

قال يونس:

- السفر، يا مستر هاملتون، يمكن أن يزيد المعارف، لكن الأهم من السفر هو الاستعداد الشخصي...

وابتسم وهو يتطلع الى الأمير فنر:

- وأرجو ألا يفهم من كلامي التملق، لكن من المعروف والثابت أن أبناء الصحراء يتمتعون بذكاء فطري، ولديهم الاستعداد الذي لا تجد ما يشابهه في الكثير من المدن، حتى البحرية، ولا شك أن للصحراء دوراً في هذا المستوى من الذكاء!

ومرة أخرى بدا هاملتون غير قادر على أن يوصل فكرته، كما يريد. قال في محاولة لأن يلتف عليها:

- هذا جوهر الموضوع الذي أردت أن ألفت النظر إليه: اذا استطعنا أن نستخدم الذكاء الذي ولدته الصحراء في الاتصال مع العالم، في بلورة صيغة، فيمكن لهذه الصحراء أن تلعب، مرة ثانية، دوراً خطيراً للغاية.

ويونس شاهين الذي جاء إلى موران، وأصبح من رجال خريبط الأساسيين، يعتبر أن الصحراء، ولا شيء غير الصحراء، هي التي ستعيد العرب إلى أمجادهم وأصالتهم، وبالتالي تجعلهم قادرين على أن يلعبوا دوراً تاريخياً. كما يعتبر أن الصراع المسيحي الاسلامي لم ينته، وأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة، ولذلك فإنه بمقدار ما يكره الافرنسيين ويخافهم، لا يطمئن للانكليز. صحيح أنه يتعاون معهم، لكن يعتبر ذلك ضرورة أكثر مما هو قناعة.

في الأيام التالية، ومن وحي هذه المناقشة، ولأنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن الجريدة، وبالتالي عن الفكر الذي يجب أن يسود السلطنة كلها، كتب يونس شاهين مجموعة من المقالات، وكلها اشادة بالصحراء وبالقادة الذين أنجبتهم، وتوقف طويلاً عند شعر الصحراء، وأورد أمثلة طويلة منه.

فنر الذي ابتسم أكثر من مرة، وهو يقرأ مقالات يونس شاهين، وقد وقعها «بفتى الصحراء»، لم يفته أن يونس هو الذي كتبها، وكتبها من وحي تلك المناقشة. أما هاملتون فقد اعتبر أن مناقشة من هذا النوع مفيدة «لأن المهم أن نحرك هذه البحيرة الراكدة» كما قال لنفسه.

ولأن المشاكل من الكثرة والأهمية بحيث لا تحتمل التأجيل، فقد جعلت أغلب الأشياء تقال مرة، ولا يعاد اليها الا بالصدفة، أو إذا جدّ بما يذكّر بها.



«قيل: كانَ في الزمن الأول ملك يشرب وأهل ناحيته من ماء السماء، فقال له منجموه: انا نجد في علمنا انه من شرب من ماء هذه السنة المقبلة تغير عقله وخولط، فإن رأى الملك أن يأمر بادخار الماء لنفسه وخاصته فليفعل، ولايشربوا من ماء هذه السنة المقبلة. فأمر بالمصانع فاتخذت ادُّخر فيها من الماء ما يكفيه ويكفي خاصته. فلما جاء المطر وشرب الناس منه تغيرت عقولهم، واختلطوا. وشرب الملك من الماء الأول هو وخاصته فلم يصبهم ما أصاب العوام.

«فلما رأتهم العامة في خلاف حالهم، قال بعضهم لبعض: ان ملكنا قد خولط وتغيرت عقله وعقول أصحابه. وما الرأي الا خلعه والاستبدال به ملكاً منا: عاقلاً لم يتغير عقله. فبلغ ذلك الملك، فقال لوزيره وكتّابه ومنجميه: قد ترون ما أجمع هؤلاء عليه، فما الرأي؟ قالوا: الرأي أن نشرب من مائهم حتى نصير في مثل حالهم، فلا ينكروا منك ولا منا ما أنكروه. ففعل وخولط، فصار مثلهم وأصحابه، فلما رأت ذلك العامة قالت: قد برأ الملك وصلح أمره».

لقد استعاد السلطان خريبط هذه القصة أمام فنر عدة مرات، كان يعتبرها مليئة بالذكاء والفطنة، وكان يريده الا ينساها، اذ غالباً ما يضيف، وهو يغمض عينيه قليلاً، فلا تنبيان الا كخيطين سوداوين كثيفين ويخرج صوته حكيماً:

- لأنه اذا جنّ قومك عقلك ما يفيدك.

وقد أضاف مرة أو مرتين، أيضاً:

- واللي يرافق القوم أربعين يوم يصير منهم!

حاول فنر، بجهد، أن يكتشف الحكمة في هذه القصة، فلم يجدها. انها

تختلف عن القصص الكثيرة التي سمعها في عين فضة، وتختلف عن الأمثال التي كانت تتردد هناك. وإذا بدت قصص أخرى، كانت تروق لأبيه، وكثيراً ما طلب من عبد الله البخيت أن يرددها على مسامعه، مرة بعد أخرى، مفهومة، أو ربما مقبولة، فإن عدداً آخر من الأسماء والكتب، وكان يحرص عليها السلطان، لم تكن كذلك، وظلت هكذا حتى وقت متأخر.

قال فنر لعنان بسيوني ذات مرة:

- وبروحتك لمصر أريدك، الله يسلمك، تجيب لي ما كتبه القالي والشاوي، ومعهم النجار والاسكافي!

وعنان الذي فوجىء بالطلب، دارت عيناه مثل قط، ولا يفعل ذلك الا «إذا شغّل الماكنة الاحتياط» كما يقول بمرح، فيما لو واجهته أسئلة غير متوقعة أو حرجة، اذ يعطي لنفسه مهلة اضافية ليتذكر أو يفكر بما وراء السؤال، قبل أن يتورط بالاجابة، رد بمرح وأريحية:

- نجيبهم يا صاحب السمو، ونجيب الشوباصي، حتى يقسم بينهم بالعدل والقسطاس!

قال فنر بسخرية:

- ما نخلص من القالي الا ويسأله: والاسكافي شنهو اللي قاله عن سالفة عمر وسلمان الفارسي؟ وابن البخيت: حاضر، يبدأ وكأنه يقرأ بكتاب:

«لما خطب سلمان الفارسي الى عمر بن الخطاب ابنته فلم يستبخر رده، فانعم له وشق ذلك عليه وعلى ابنه عبد الله، فشكا ذلك عبد الله الى عمرو بن العاص، فقال له: افتحب أن أصرف سلمان عنكم؟ فقال له: هو سلمان وحاله في الاسلام حاله. قال: احتال له حتى يكون هو التارك لهذا الأمر والكاره له، قال: وددنا انك فعلت ذلك. فمرّ عمرو بن العاص بسلمان في طريق، فضرب بيده على منكبه وقال: هنيئاً لك يا أبا عبد الله، قال له: وما ذاك؟ قال: هذا عمر يريد أن يتواضع بك فيزوجك، فقال: وانما يريد أن يزوجني ليتواضع بي؟ قال نعم، قال: لا جرم، والله لا أخطب اليه أبداً!».

قال عنان بسيوني بأبوة:

- هذان من شيوخ العرب وأكثرهم حكمة، يا صاحب السمو، فاذا تأملت فيما قالاه وما كتباه لا بد أن تعجب.



ضحك فنر وسأل:

- وقصة القرد؟
- ما هي قصة القرد؟
- «قيل كان رجل يسخر بالناس ويدعى أنه يرقى الضرس اذا خرب على صاحبه، فكان كلما أتاه من يشتكي من ضرسه قال له اذا رقاه: اياك أن تذكر القرد اذا صرت الى فراشك، فانك اذا ذكرته بطلت الرقية. وكان أحدهم اذا صار الى فراشه أول ما يخطر على باله القرد، فيبيت على حاله من وجعه، فيغدو الى من رقاه، فيقول له: كيف بتّ؟ فيقول بت وجِعاً. فيقول: لعلك ذكرت القرد؟ فيقول نعم. فيقول: من ثمّ لم تبرأ».

قال عنان:

وسمعته يحدث السلطان بهذه القصة: «وحكي أن المنصور جلس في احدى قباب مدينته، فرأى رجلاً ملهوفاً مهموماً يجول في الطرقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله، فأخبره الرجل انه خرج في تجارة فأفاد منها مالاً، وأنه رجع بالمال الى منزله فدفعه الى أهله، فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها، ولم ير أثر ثقب أو تسلق. فقال له المنصور: مذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال: أفبكر تزوجتها؟ قال: لا. قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هي أم مسنة؟ قال: بل هي حدثة. فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذ له حاد الرائحة غريب النوع، فدفعها اليه وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يذهب همومك (يقويك).

فلما خرج من عند المنصور، قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مر به أحد فشم منه رائحة هذا الطيب، وأشممهم منه، فليأتيني به. وخرج الرجل بالطيب فدفعه الى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين، فلما شمته بعثت به إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال اليه، فقالت له: تطيب من هذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي. فتطيب منه الرجل ومر متجازاً ببعض أبواب المدينة، فشم الموكل

بالباب رائحة الطيب منه، فأخذه وأتى به الى المنصور. فقال له المنصور: من أين استنفذت هذا الطيب، فإن رائحته غريبة معجبة! فلجلج الرجل واختلط كلامه. فدعا المنصور بصاحب شرطته فقال له: خذ هذا الرجل اليك، فان أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وان امتنع فاضربه الف سوط من غير مؤامرة. فلما خرجا من عنده دعا صاحب شرطته وقال له: هول عليه وجرده، ولا تقدم بضربٍ حتى تؤامرني.

فخرج به صاحب الشرطة، فلما جرده وسحبه، اذعن برد الدنانير كهيئتها، فاعلم المنصور ذلك، فدعا بصاحب الدنانير وقال له: أرأيتك ان رددت عليك الدنانير بأعيانها تحكمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: فهذه دنانيرك، وطلق المرأة، وخبره خبرها».

هز فنر رأسه وقال:

- هذه قصة تدل على الذكاء وبعد النظر.

قال عنان بسيوني بثقة ومرح:

- وقرأت قصة أخرى في لطف التدبير للاسكافي، واريدك أن تسمعها يا طويل العمر، لعلها تفيدك.

قال فنر، هات، رد عليه عنان:

- «حدث أبو عبد الرحمن عن شعبة عن قتادة عن جابر بن زيد عن الربيع بن زياد الحارثي، قال: ما أظن أحداً خدع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، غيري، وأعوذ بالله أن أقول أنها خدعة، ولكنها توفيق من الله عز وجل: كنت عامل ابي موسى على البحرين، فكتب عمر إلى أبي موسى: أنّ وافني بعمالك اذا صدرت عن الموسم. قال: فقدمنا مع أبي موسى، فلما كنا بصرار سبقت أصحابي الى المدينة، فلقيت يرفا، حاجب عمر رضي الله عنه، فقلتُ له: يا يرفا، سائل ومسترشد، فارشدني أرشدك الله، فقال: سل عما بدا لك. فقلت: على أي حال يجب أن يرى أمير المؤمنين عامله؟ قال: يجب أن



يراه أشعث أغبر دميم الثياب عافي الشعر. قلت: أي الطعام احب اليه؟ قال ما جَشُبِ وغلظ.

قال: فانطلقت الي منزلي فتجوعت يوماً وليلة، ولبست اطماري، ووافيت أصحابي بباب أمير المؤمنين عمر ويسحبون حللهم. قال: فدعي أبو موسى فدخل، ثم دعي بنا فدخلنا، فاصطففنا بين يديه. وصعّد فينا البصر وخفضه، فوقفت عينه عليّ. فقال: هكذا. وأشار إليّ أن أقبل، فدنوت. فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد بن أنس بن الريان الحارثي. فقال بيده هكذا، أي تنحّ، فتنحيت. فصعد فينا البصر وخفضه، فوقعت عينه

عليّ، فقال بيده أن أقبل، فدنوت، فقال لي: ما تلي من عملنا؟ قلت: البحرين فقال: يا أبو موسى، كيف هذا؟ قال كالخبر. ثم قال بيده (أن تنح فتنحيت، ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال بيده) أن أقبل، فدنوت، فقال: كم ترتزق؟ قلت: خمسة دراهم في كل يوم. قال: مع عطائك؟ قلت: نعم. قال: كثير، مذكم وليتها؟ ثم قال بيده فتنحيت. ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال بيده أن أدن فدنوت، فقال: كم أنت لك؟ قلت: أنا في ثلاثة وأربعين، يعني سنة، قال ذلك حين استحكمت سنك. ثم قال بيده، فتنحيت. ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال: اجلسوا، فجلسنا. ودعا بطعامه، فأُتي بجفنة فيها تريد قلّة[1] ولحوم ابل، قال: فاما أصحابي فعدهم بالطعام اللين حديث، وأما أنا فكنت جائعاً. قال: فأقبلت اكل وهو يلاحظني، ثم أسقطت بكلمة تمنيت أن تنشق بي الأرض فأدخل فيها، فقلت لأمير المؤمنين: لو كان طعامك الذي تأكل الين من هذا. فرفع رأسه، قال هيه، قلت ماذا؟ فأدركتها، فقلت: لو كنت تعمد الى قوتك من الخبز فيخبز لك في الساعة التي تريد أكله فيها أتيت له ليناً، ولو نظرت الى قوتك من اللحم فطبخ لك في الساعة التي تريد أكله فيها، أتيت به غضباً. قال: أوَ هناك فرق؟ قلت: نعم، قال: أنا والله لو شئنا أن نملأ هذه

(١) التريد. الخبز المبلل بالمرق.

الرحاب التي ترى من صلائق[1] وصناب[2] وكراكر[3] وأسنمة[4] وسبائك، يعني خبز الرقاق، فعلنا، ولكن سمعنا الله يقول: إذ هبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون» ثم التفت الى أبي موسى فقال: يا أبا موسى، اذا انصرفت إن شاء الله صالحاً فاعزل هؤلاء جميعاً واترك هذا على عمله».

كانت تلك طريقة السلطان خريبط في تعليم ابنائه، وقد أعز «للمعلمين» ان يفعلوا مثلما يفعل، فاحتال المعلمون، كل بطريقته، في ايصال «العلوم»، واختلف الأبناء في استيعاب هذه العلوم.

وإذا كان فنر يتذكر أن أفكاراً أو كلمات أثّرت عليه، فتلك التي سمعها في طفولته. يتذكرها بوضوح، يستعيدها بلذة، وتتألق في لياليه، أكثر من القصص التي تتردد في مجلس أبيه. لا يزال يتذكر أمثال جدته وأحاديثها، أما أحاديث مجول المهنا في عين فضة، فلا يمكن أن تنسى أبداً، وكذلك اشعار مزبان الحمد، وصوت سعد الجريان.

كان سعد الجريان اذا غنى لا يبقي أحداً في عين فضة الا ويحمله على الركض لكي يسمع صوته؛ ويبالغ الذين يحبونه فيقولون ان صوته لا يطرب البشر وحدهم، بل ويجعل الحيوانات الهائجة تهدأ وتستجيب، وكثيراً ما سمعت الطيور، حتى في الليل المتأخر، تشاركه التغريد. وأكد هؤلاء أن شلعة من الغزلان كانت تمر بالقرب من عين فضة، في احدى الليالي، وحين سمعت سعد يغني توقفت، ثم اقتربت، وقبل أن تنتهي الليلة أصبحت لا تخاف ولا تجفل من البشر. ويبالغ بعض هؤلاء فيقول انها أصبحت أليفة بعد تلك الليلة، وأخذت تجيء بعد غروب كل يوم، ولا تتردد في أن تتناول الطعام من أيدي المسنين، الى أن تحولت الى مخلوقات وديعة لا تريد مغادرة عين

---

(١) الصلائق: مفردها الصليقة، وهي اللحم المشوي الناضج.

(٢) الصناب: ادام يتخذ من الخردل والزيت.

(٣) الكراكر: مفردها الكركرة، وهي الصدر من كل ذي خف، وزور البعير الذي اذا برك أصاب الأرض، وهي من أطايب ما يؤكل في الابل.

(٤) الأسنمة، جمع سنام.



فضة، وهذا ما دعا فهيد الجريان، ابن عم سعد، وأبرز الذين يرددون الغناء معه، أن يتحول الى راع ويسرح بالغزلان، وقيل أنه أصبح يركض مثلها، وبعض الأحيان يسابقها ويسبقها، مما جعل شباب القرية يسمونه: فهيد الغزال الجريان!

هكذا يتذكر فنر أيامه في عين فضة. أما حين كبر وانتقل، وبعد أن حملته تلك السفرات الى الأماكن البعيدة، وسمع ورأى الكثير، ثم بعد ذلك، لما أصبح حاكماً في الحوالي، وقامت بينه وبين هاملتون تلك العلاقة، فان شيئاً، أشبه بالزلزال، غيّر حياته كلها، وسيطر عليه تماماً: كان ذلك نتيجة «الوصايا» التي جاء بها هاملتون في احدى سفراته.

فلأو مرة، منذ سنوات طويلة، يرجع هاملتون مشتعلاً ومليئاً بالتفاؤل والأفكار والأحلام: رجع يحمل تأكيدات بريطانيا العظمى انها مع السلطان «إذا كان السلطان مع نفسه»، وبالتالي استعدادها لتسوية كافة مشاكل الحدود، اذا استطاع السلطان أن يضبط القوى التابعة له؛ واثباتاً لحسن النية وتعبيراً عن المودة: منحة مالية، فوق المعونة المقررة.

ورجع هاملتون أيضاً بشهادة تقدير من الجمعية الجغرافية، مع وسام رفيع، على كشوفه الصحراوية السابقة، مع تمن من الجمعية لو يستطيع اجتياز الصحراء من الشمال الى الجنوب، وتسجيل ملاحظاته ومشاهداته، ودعوة لالقاء سلسلة من المحاضرات خلال الصيف القادم، أو في أي وقت آخر يحدده ويكون أكثر ملاءمة له، وهذه المحاضرات سوف لن تقتصر على بريطانيا، إذ من الضروري أيضاً أن تنتقل الى كندا واستراليا. أما إذا تم الوصول الى كشوف جديدة فسوف يكون ذلك مدعاة للاعتزاز والفخر، لأنه سيكون أول بريطاني يقطع الصحراء من الشمال الى الجنوب.

بالنسبة لفنر كان هاملتون يحمل هديتين: رسالة من مس ماركو، وجواهر انتقاها من الكتاب الذي لا بد لكل حاكم أن يلم بها الماماً دقيقاً، جواهر «الأمير» وقد سماها «الوصايا».

هذه الانجازات جعلت هاملتون انساناً جديداً، ومثلما سافر عن طريق البحر

والطائرة، عاد أيضاً عن طريق الطائرة والبحر. لم يتوقف في القاهرة سوى أيام قليلة، وبناء لرغبة عنان بسيوني، الذي كان مشتاقاً لزيارة الأهل والأصدقاء، ورغم الأفكار الكثيرة التي راودته اثناء السفر، خاصة فيما يتعلق ببناء الدولة الجديدة، ويمكن أن يبدأ تجربته في العوالي، إلا أنه كان متردداً بين أن يسلم جواهر «الأمير» لفنر دفعة واحدة، وبين أن يلقنه لها مادة فمادة، موقفاً فآخر. لكنه في جو الانفعال، وهو يتحدث مع الأمير، في الليل المتأخر، وكانا على شرفة قصر الهازعي، وبعد أن شرب كأساً من الويسكي بدد التعب والتردد، قال وهو يستخرج الأوراق من حقيبة صغيرة، لم تكن بعيدة عنه:

- قد تبدو، يا صاحب السمو، الأوراق التي سأقدمها لك الآن قليلة العدد، وقد يبدو قسم منها غير مفهوم، ربما نتيجة الترجمة، مع أني استعنت باثنين ساعداني في هذه المهمة، أو ربما لا تتطابق مع أوضاع هذه المنطقة أو هذه المرحلة...

كاد يتوقف، فقد أحس أن هذه البداية، وبالطريقة المتواضعة التي يعرض بها سلعته، قد تقلل من أهمية الهدية. تنحنح فجلا صوته:

- هذا الكتاب الذي ترجمت الأقسام الأساسية منه، يا صاحب السمو، كان فقط في خزائن الملوك، وكان الملك الأب، حين يبلغ ابنه مبلغ الرجال، ويتوسم فيه القدرة على متابعة الطريق وحماية التاج، يقدمه اليه بالكثير من الاحترام والأبهة، لأن فيه نصائح وتجارب صنعها عقل فذ، وبالتالي أصبحت قوانيناً لأجيال متعاقبة من الملوك والحكام...

ابتسم، وكانت ابتسامة أقرب إلى الضحك الساخر، واسترسل:

- بعض الناس يحبون أن يلخصوا البحر بقطرة ماء، والصحراء بحبة رمل، ولذلك يقعون في خطأ فادح، وغالباً لا يشعرون بهذا الخطأ الا في وقت متأخر، وهكذا لخص بعض المؤرخين المثاليين كتاب الأمير بكلمة لا تعبر عنه، قالوا: «الغاية تبرر الواسطة»، ان هذه لا تعني شيئاً ازاء البحر والصحراء.



استراح قليلاً، عبّ قطرات من الويسكي، ولا تزال الأوراق بيده اليسرى، وكأنه يؤخر تقديمها، فلما أحس أن كلماته تسربت الى فنر غيّر نبرة الصوت:

- الوصايا التي عبر عنها «الأمير» ليست لليوم والغد، إنها للحياة كلها، وقد تنقضي الحياة أيضاً دون أن تطبق جميعها، ومع ذلك، ومثلما يتعلم الطبيب أعراض الأمراض وكيفية علاجها، فيجب على الحاكم أن يتعلم ما جاء في هذا الكتاب، لكي يستطيع أن يواجه المصاعب والمشاكل والأزمات... ولكي يتغلب عليها أيضاً:

قال فنر بدعابة، وقد شاقه حب الاستطلاع:

- عطني، طال عمرك، وما يكون لك فكر، ولك عليّ أن أحفظه!

اقترب منه هاملتون، حتى كاد يلامسه، وقال بهمس:

- إن قراءته أو حفظه لا تعني شيئاً كثيراً، أو بالأحرى، لا تعني الشيء الأهم.

تراجع فنر قليلاً وهو ينظر اليه لكي يكتشف ما إذا كان جاداً أو مازحاً، تابع هاملتون بانفعال:

- المهم، يا سمو الأمير: أن يُفهم بعمق، أن يستوعب، وأيضاً أن يضاف اليه مقدار هام من البداوة، لكي يلائم هذا المكان وهذه المرحلة، لأنه بدون البداوة كمن يزرع ثماراً استوائية في القطب!

بدا الأمر لفنر مثيراً وطريفاً في آن واحد، تساءل:

- وهذا صاحبكم، اللي سوى هذي العلوم كلها، حي أو ميت؟

تطلع اليه هاملتون وابتسم، اذ لمح في كلامه ما يشبه السخرية، تابع فنر:

- يعني إذا كان موجوداً، نقول له تعال يا ابن الحلال، تعال عندنا بزيارة، مثل ما يجي الطبيب اذا البني آدم احتاجه.

- لقد مات هذا الرجل، يا صاحب السمو، منذ مئات السنين، لكن تعليماته لا تموت، تتجدد مع كل نظام، وتلبس دائماً الأزياء المحلية والشعبية في البلد الذي تطبق فيه.

تخوف فنر قليلًا، تساءل بنبرة حذرة:

- خاف يكون واحد من الأنبياء، وخاف تريدني أصير نصراني؟

قهقه هاملتون، وبعد أن هدأ:

- لا أريد أن أشرح أكثر من ذلك، اليك هذه الأوراق، اقرأها بامعان، وسوف تتحدث عن ذلك طويلاً في المستقبل.

أخذ فنر الأوراق، قلبها، لم يقرأ الا كلمة هنا وكلمة هناك، قاطعه هاملتون:

- نتذكر، يا صاحب السمو، أحاديثنا قبل شهور حول الصيغة أو المعادلة التي يجب الوصول إليها من أجل بدء مرحلة جديدة؟ لقد ذكرت لك أنه إذا أمكن دمج الصحراء والبحر والدين في معادلة فعندئذٍ يمكن الحديث أن دولة جديدة ولدت في هذا الشرق، ويمكن أن يكون لها مستقبل هام.

وفنر الذي كان أكثر رغبة لمعرفة تفاصيل السفرة والنتائج التي تم الوصول اليها، تذكر بعض المناقشات المضطربة التي جرت بينه وبين هاملتون، قال في محاولة لأن يعطي الأمور مساراً متواضعاً:

- حنا، طال عمرك، اذا حلينا مشاكلنا ودبرنا أمورنا، ترانا بألف خير، وما نريد أكثر من كذا.

قال هاملتون بثقة:

- كل ما أريده منك، يا صاحب السمو، أن تقرأ، بعناية، الأفكار الأساسية التي اخترتها لك. لا أريد أن تطبّق بالكامل، بحرفيتها، المهم أن تستوعب، وأن تتحول الى صيغة تلائم هذه البلاد وهذه المرحلة.

تطلع فنر مرة أخرى، في ظلمة المساء إلى الأوراق، لم يميز الحروف، ولم يقرأ شيئاً، قال وهو يكورها على شكل اسطوانة:

- وعد، يا مستر هاملتون، أن أحفظها، أكثر من أن أقرأها، وبعدها نشوف. . .



وابتسم قليلًا ثم سأل:

- والسفرة. . . انشاء الله كانت زينة؟ والنتائج، انشاء الله، كانت مثل ما تريد؟
- وأكثر من ذلك، يا طويل العمر.

وفي اليوم التالي، سافر هاملتون بالسيارة الى موران، لكي يحمل الى السلطان النتائج التي توصل اليها. وعنان بسيوني الذي كان رفيقاً في السفر، وقد عاد معه، كان اميل الي الصمت، اذ لم يشارك الا بعبارات عامة، وأكدّ أن النتائج كانت مرضية، ولم يضف أكثر من ذلك.

كانت، أولاً، رسالة مس ماركو، ودية وقصيرة:

«سمو الأمير

كنت أتوقع، بل وأتمنى، أن أراك هنا مرة أخرى، فالشوق الذي أحسه نحوكم يجعلني، في أحيان كثيرة، أفكر أن الأصدقاء يجب أن يلتقوا، وأن يتبادلوا الأفكار والتجارب. صحيح أنه ليس لدي تجارب يمكن أن تفيدكم، أو تساعدكم على اداء مهماتكم المباشرة، لكن، مع ذلك، فإن تبادل القصص، وحتى التجارب الشخصية، يمكن أن تساعد في رؤية أفضل، خاصة وأن هاملتون ذكر لي الكثير عن المهمات اليومية التي تواجهونها.

عزيزي سمو الأمير

لو كنت أصغر سناً، وبالتالي لو كنت أكثر قوة ونشاطاً، لما ترددت في أن أعرض عليكم خدماتي، فأنا متأكدة أن بلادكم بحاجة الى الكثير من الجهد والعمل، وفي كل المجالات، ومع ذلك، فإني لم أتردد، رغم الشيخوخة، في أن أضع نفسي تحت تصرفكم، فيما لو كانت خدماتي الطبية مفيدة لبلادكم. طبيعي لن أستطيع أن أفعل أو أن أبدأ كما كان الأمر في سيلان، لكن مع ذلك فقد أكون مفيدة في مستوى معين ولمرحلة محدودة، أترك لكم التقدير وتقبل تحياتي وتقديري، سمو الأمير».

أما الصفحات المختارة التي قدّمها هاملتون فكانت كما يلي:

«مختارات من كتاب الأمير:

«على كل من يضع يده على الممتلكات ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما: ابادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم احداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقت قصير، وأن يؤلفا دولة واحدة».

«في سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة فإن خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد اقامة مقره في الممتلكات الجديدة، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً».

«إن علينا اما أن نعطف على الناس، أو أن نقضي عليهم، اذ أن في وسعهم الثأر للاساءات الصغيرة، أما الاساءات الخطيرة والبالغة فإنهم أعجز من أن يثأروا لها. ولذا إذا أردنا الاساءة لإنسان فيجب أن تكون الاساءة إلى درجة بالغة لا نضطر بعدها الى التخوف من انتقامه».

«القاعدة العامة تنص على أن الأجنبي القوي، عندما يدخل امارة، فإن الضعفاء من أهلها يصبحون فوراً من أنصاره».

«وعلى حاكم المقاطعة ان يقيم نفسه زعيماً لجيرانه الضعفاء، وحامياً لهم، وان يحاول اضعاف الأقوياء منهم».

«للأمير في الدول التي يحكمها الأمراء وموظفوهم سلطة أكبر وأوسع، اذ ليس في الدولة من يعتبر في منصب الرفعة سواه، واذ كانت الطاعة مفروضة لغيره، فلأنهم من وزرائه وموظفيه، وليست لهم أية اعتبارات خاصة، كما لا يحمل الناس لهم أية عاطفة معينة».

«بالنسبة الى الممالك الجديدة، حيث يوجد أمير جديد تتوقف سهولة السيطرة أو صعوبتها على ما يتمتع به المسيطر من مقدرة فائقة أو ضئيلة».

«. . . أثبتت الأيام أن الأنبياء المسلحين قد احتلوا وانتصروا، بينما فشل الأنبياء غير المسلحين».



«تختلف طبيعة الشعوب، وقد يكون من السهل اقناعها بأمر من الأمور، ولكن من العسير ابقاءها على هذا الاقتناع، ولهذا أصبح من الضروري فرض الأمور عليها، حتى اذا توقفت عن الاقتناع ارغمت عليه بالقوة».

«ان على المحتل، عند احتلاله لدولة من الدول، أن يتخذ التدابير اللازمة لارتكاب فطائعه فوراً ومرة واحدة، وأن لا يعود اليها من يوم إلى آخر، وهكذا يتمكن عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة من خلق الطمأنينة عند شعبه، واكتسابه الى جانبه بواسطة المشاريع النافعة له».

«أما المنافع فيجب أن تمنح قطرة فقطرة، حتى يشعر الشعب بمذاقها ويلتذ بها».

«ان الأمير الذي يعجز عن ادراك ما يقع في دولته من مشاكل عند وقوعها انسان تعوزه الحكمة الصادقة».

«على الأمير أن لا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وأن لا يفكر أو يدرس شيئاً سواها، اذ أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج اليه كل من يتولى القيادة».

«وكثيراً ما يرى الانسان أن الأمير الذي يفكر بالترف والرخاء، أكثر من تفكيره بالسلاح، كثيراً ما يفقد امارته، ولا ريب في أن ازدراء فن الحرب هو السبب الرئيسي في ضياع الدول وفقدها».

«وعلى الأمير أن يقرأ التاريخ، وأن يدرس اعمال الرجال البارزين، فيرى في أسلوبهم في الحروب، ويتفحص في أسباب انتصاراتهم وهزائمهم، ليقلدهم في هذه الانتصارات، ويتجنب الوقوع في الاخطاء التي أدت الى هزائمهم، وأن يفعل كما فعل غيره من الرجال في الماضي، من تقليد لشخص انهال عليه المديح والتمجيد، وترك أعماله ومآثره مكشوفة للجميع».

«وعلى الأمير اذا كان يعجز عن ممارسة فضيلة الكرم دون المجازفة باشتهاره، ان لا يعترض اذا كان حكيماً عاقلاً على تسميته بالبخيل. وسيرى الناس، مع مضي الزمن، أنه أكثر سخاء مما كانوا يظنون، وذلك عندما يرون أنه عن طريق

تقتيره أصبح يكتفي بدخله، ويؤمن وسائل الدفاع اللازمة ضد كل من يفكر باشهار الحرب عليه، ويقوم بمشاريع كثيرة دون أن يرهق شعبه، ويكون بذلك كريماً حقاً مع جميع أولئك الذين لا يأخذ منهم أموالهم، وهم كثر للغاية، وشحيحاً مع أولئك الذين لا يهبهم المال، وهم قلة ضئيلة، وقد رأينا في عصرنا الأعمال العظيمة يحققها أولئك الذين يوصمون بالبخل، أما الآخرون فمصيرهم الى الدمار».

«إن الأمير اما أن ينفق ثروته الشخصية أو ثروة رعاياه، أو ثروات الآخرين. وعليه في رأيي أن يوفر ثروته. أما بالنسبة الى الثروات الباقية فعليه الا يهمل، ان يكون جواداً معطاءً».

«إذ أن انفاقك أموال الآخرين لا يقلل من شهرتك، بل يرفع من قدرها، بينما انفاقك لأموالك يلحق بك الضرر. وليس هناك ما هو أشد ضرراً على نفسه من الجود والكرم، اذ باستعمالك له تفقد قدرتك على استخدامه، وتصبح إما فقيراً واما حقيراً، أو إذا رغبت النجاة من الفقر تضحى نهاباً سلاباً، يكرهك رعاياك. وعلى الأمير أن يتجنب قبل كل شيء أن يوصم بالحقارة، أو يتعرض للكراهية، ولا شك أن الكرم سيقوده الى احدى هاتين النتيجتين».

«ولذا على الأمير أن لا يكترث بوصمه بتهمة القسوة، اذا كان في ذلك ما يؤدي الى وحدة رعاياه وولائهم».

«ان من الواجب أن يخافك الناس وأن يحبوك، ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين، فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك».

«وعلى الأمير أن يفرض الخوف منه بطريقة يتجنب بواسطتها الكراهية اذا لم يضمن الحب».

«ان الناس يحبون تبعاً لأهوائهم وارادتهم، ولكنهم يخافون وفقاً لأهواء الأمير وارادته، والأمير العاقل هو الذي يعتمد على ما يقع تحت سلطانه لا تحت سلطان الآخرين، وعليه فقط أن يتجنب الكراهية لشخصه».

«وعلى الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان، أي



اللجوء إلى القوة، أن يقلد الثعلب والأسد معاً، اذ أن الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الاشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب. ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً يميز الفخاخ وأسداً ليرهب الذئاب».

«وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعوده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي الى الاضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي دعته لاعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة».

«كم من المرات تنكر الأمراء لمواثيق السلام، فنقضوا معاهداتهم، وكم من المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها، وأن يبرهن على أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً قد نجحوا أكثر من غيرهم. ولكن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد اخفاءها عن الناس، وأن يكون مداهناً كبيراً، ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته».

«وليس من الضروري، تبعاً لذلك، بالنسبة للأمير، أن يتصف بجميع ما أوردته من صفات، ولكن من الضروري أن يتظاهر على الأقل بوجودها فيه».

«وعليه أن يجعل الناس يرون فيه، ويسمعون منه، الرحمة مجسدة، والوفاء للعهود، والنبل، والانسانية، والتدين، ولعل هذه الصفة الأخيرة هي أكثرها لزوماً وضرورة لأن الناس عموماً يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم، ولأن في وسع كل انسان أن يرى، بينما لا يشعر الا القليلون. فجميع الناس يرون ما تعمل، وكيف تبدو لهم. أما القلة فيحسون حقيقتك، وستتردد هذه القلة في معارضة رأي المجموع، الذين يعتمدون على جلال الدولة في الدفاع عنهم. وفي اعمال جميع الناس، ولا سيما الأمراء، وهي حقيقة لا استثناء فيها، تبرر الغاية الواسطة».

«ان على الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، اذا كان الشعب راضياً عنه، أما إذا كان مكروهاً، ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل انسان ومن كل شيء».

«من واجب الأمراء أن يعهدوا بالمهام التي لا يحبها الشعب الى الآخرين، وان يقوم هو باغداق المنح والعطف».

«عندما يحتل الأمير دولة جديدة يضيفها الى دولته السابقة، فمن واجبه أن ينزع السلاح من أهل تلك الدولة، باستثناء أولئك الذين وقفوا الى صفة عند احتلالها. وعليه أيضاً، عندما تحين له الفرصة، ويحين الوقت المناسب، أن يضعف هؤلاء الانصار ويخضعهم، وأن يرتب أموره بحيث يضمن نقل سلاح الدولة الجديدة الى أيدي جنوده الذين يعيشون على مقربة منه في دولته السابقة».

«ويغدو الأمراء، دون شك، عظاماً عندما يتغلبون على العقبات والمعارضة، ولذا إن الحظ عندما يود أن يعلي من شأن أمير جديد، هو في حاجة الى الحصول على الشهرة البالغة أكثر من زميله الأمير الوراثي، يخلق له الأعداء، ويرغم على شن الحروب عليهم، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم ليرتقي اثر ذلك عالياً السلم الذي وضعه أعداؤه في طريقه. ويؤمن الكثيرون، تبعاً لذلك، ان على الأمير العاقل، اذا أتيحت له الفرصة أن يخلق بمكر عداوات له، حتى اذا قهر أعداءه، ضاعف من عظمته».

«وكثيراً ما رأى الأمراء، ولا سيما الحديثون منهم، ولاء ونفعاً أكثر في أولئك الرجال الذين كانوا يشكون فيهم في بداية عهدهم من أولئك الذين أولوهم الثقة».

«ويلقى الأمير، أيضاً، بالغ الاحترام، اذا برهن على أنه اما ان يكون صديقاً مخلصاً أو عدواً لدوداً، وهذا يعني أن يعلن بلا تحفظ، عطفه على انسان، وعداءه لانسان آخر، ولا ريب في أن هذه السياسة أفضل من البقاء على الحياد».

«وعلى الأمير أن يظهر نفسه دائماً ميالاً إلى ذوي الكفاءة والجدارة، وأن يفضل المقتدرين ويكرم النابغين في كل فن، وعليه أن يشجع، بالاضافة الى ذلك، مواطنيه على المضي في أعمالهم».

«وعليه في الفصول المناسبة من السنة أن يشغل الشعب بالأعياد ومختلف



العروض المسرحية وغيرها».

«ليس اختيار وزراء الأمير بالمسألة القليلة الأهمية، فهم اما أن يكونوا لائقين، أو لا يتفقون مع فطانة الأمير وحسن تبصره بالأمور. والانطباع الأول الذي يتولد لدى الانسان عن الأمير وعن تفكيره يكون من رؤية أولئك الذين يحيطون به. فعندما يكونون من الأكفاء والمخلصين، يتأكد الإنسان من حكمة الأمير، لأنه استطاع تمييز هذه الكفاءة والاحتفاظ بهذاالاخلاص، أما إذا كانوا على النقيض من ذلك، ففي وسع الانسان دائماً أن يأخذ فكرة سيئة، إذ أن الخطيئة الأولى التي يقترفها تكون في اساءة اختياره».

«هناك ثلاثة أنواع من العقول، أولها يدرك الأمور دون عون ومساعدة؛ وثانيها يدركها بمساعدة الآخرين وارشادهم؛ وثالثها لا يدركها لا بالمساعدة ولا بدونها. الأول ممتاز، والثاني جيد، أما الثالث فلا جدوى منه».

«وهناك طريقة تمكّن الأمير من معرفة وزيره واختباره، وهي طريقة لا تخطىء أبداً. فعندما يفكر الوزير بنفسه، أكثر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يكون وزيراً نافعاً، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه، اذ أن من تعهد اليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر قط بنفسه وانما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير؛ وعلى الأمير بدوره، لكي يحتفظ بولاء وزيره واخلاصه، أن يفكر به، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم، مبدياً له العطف، ومانحاً اياه مظاهر الشرف، وعاهداً اليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الأموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة، ويجب أن تكون المناصب التي يشغلها مهمة الى درجة يخشى على ضياعها».

«والأمير العاقل من يختار لمجلسه حكماء الرجال، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية في الحديث اليه، ومجابهته بالحقائق، على أن تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها ولا تتعداها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء، وأن يستمع الى آرائهم في كل شيء، وأن يفكر بعد ذلك بطريقته الخاصة».

«وعليه أن يتصرف في هذه المجالس، ومع كل من مستشاريه، بحيث يجعله واثقاً من أنه كلما تكلم بصراحة واخلاص، كلما كان الأمير راضياً عنه، وعليه بعد ذلك أن لا يستمع الى أي انسان، بل يدرس الموضوع بنفسه على ضوء آراء مستشاريه، ويتخذ قراراته التي لا يتراجع عنها».

«وعلى الأمير أن يقبل النصيحة دائماً، ولكن عندما يريد هو، لا عندما يريد الآخرون، بل عليه أن لا يشجع مطلقاً المحاولات لاسداء النصيحة اليه، إلا إذا طلبها».

«وعليه في الحقيقة أن يغضب إذا رأى أحد مستشاريه يتردد في قول الحقيقة».

العبارة الأخيرة استوقفت فنر، استوقفته تماماً. صحيح أن المشاعر التي اعترته خلال قراء هذه الوصايا كانت متفاوتة أشد التفاوت، فقد تناوب عليه الخوف والاعجاب والتساؤل، بل وتوقف في لحظات معينة، كي يعيد القراءة من جديد، ولكي يتساءل مرة أخرى. ومثلما يحس الانسان أنه في حلم، حلم انه قادر على تنفيذ هذه الوصايا، وأنه يريدها، واحس أيضاً بالخوف، لأنه يريد أن يبقى وحده الذي يعرفها، لأن الآخرين إذا عرفوها فلا بد أن يكشف، أن يصبح عارياً.

قال في لحظة حزم «عليّ أن أتعلم كثيراً، وعليّ أن أصمت كثيراً، وعليّ ألا أظهر ما يجب أن افعله، أما تطبيق ما يقوله هذا الرجل فإنه. . .» ولم يستطع أن يكاشف نفسه، فقد بدا مضطرباً، أو كأنه لا يعرف، وشعر أيضاً بالحيرة، ولام نفسه أنه يملك هذا المقدار من اللذة في تعذيب الآخرين، أو عدم احترامهم، وتمنى أيضاً لو أن الآخرين الذي يعنيهم غير موجودين، أو لو كانوا بشكل آخر. ومرت في ذاكرته صور كثيرة. العم دحيم، وأبيه، وخاله عمير، وابن مشعان، واضطرب من جديد. قال في نفسه: «ربما من المفيد أن يعرف الانسان أقل، لأن المعرفة تعب». وتمثلت له صورة خزعل: يضحك بصخب، يأكل مثل وحش، يحب النساء كما يحب الهواء، وينام في النهاية كما تنام الحية. وفكر في نفسه: كل شيء يزعجه، يجعله يفكر ويقلق ويحتار، اضافة إلى أنه لا يحب الأكل الا بما يجعله قادراً على البقاء، والنساء. . . زينة الوحيدة التي كانت تعني له شيئاً، أما



بعد أن تركته وذهبت، فإنه يشعر أن المرأة تحمل مقداراً كبيراً من الأشياء التي لا يحبها، خاصة بعد مجيء موضي، وتلك القصص التي روتها له عن قصر الروض، وكيف أن المرأة أصبحت مجرد فرج، ولا يعني لها الكثير أن تنام مع عبد أو خادم أم مع السلطان!

وتمنى لو كان مكان خزعل، قال في نفسه: «بداية مشكلة الانسان أن أقرب الناس اليه هم أول خصومه». قال بعد أيام ليونس شاهين:

- أريدك أن تكتب في الجريدة أن موران أكبر من موران، وأن لها مهمة تتجاوز حدودها الجغرافية، لا بد أن تكون لها رسالة، وأن تكون لها أهداف.

ويونس شاهين لم يكن ينتظر ايعازاً مثل هذا، فقد كتب الكثير عما فعلته هذه الصحراء، ومع كل حدث أو حديث مجموعة من أبيات الشعر، بدءاً من الجاهلية، وحتى فترة متأخرة في تاريخ العرب.

قال مرة أخرى، بعد سلسلة المقالات التي كتبها:

- . . . ويجب أن يكون لموران دور في المستقبل.

فكتب يونس شاهين مجموعة من المقالات، فهم فنر جزءاً منها، ولم يفهم الجزء الآخر. وحين ورد ذكر هذه المقالات، بعد شهور، قال هاملتون، وهو لا يخفي ابتسامة السخرية:

- هناك أشخاص لديهم مقدرة فائقة أن يتكلموا كثيراً لكي لا يقولوا شيئاً!

فنر الذي ظل في تلك الحالة من الحيرة قرر أن يطلب من أحمد محمود الجمال أن يكتب له تلك الوصايا بخطه الجميل، وأن يضعها في غرفة نومه، لعله من خلال القراءة اليومية يعرف ما يجب أن يفعله في المستقبل. ولم يتأخر الجمال، فقد كتب هذه الوصايا بخط النسخ، وزينها، ووضعها فنر في غرفته!

كيف يمكن لبضع صفحات أن تغير انساناً بهذا المقدار؟ وكيف يمكن لشخص أو حدث أن يفتح عالماً بهذا الاتساع كان الى الأمس القريب غائباً أو مجهولاً؟

إن شيئاً أقرب الى الكشف أو الزلزال حدث في فكر وحياة فنر منذ أن أخذ يمعن النظر في تلك الأوراق المكتوبة بخط النسخ الجميل، والموضوعة داخل غلاف جلدي بلون أخضر كامد، والقريبة من السرير.

كل ليلة يقرأ ويسافر في أحلامه إلى ما لا نهاية. كان يبدأ لكن لا يعرف متى انتهى أو كيف. فالكلمات الصماء التي تمر تحت ناظريه، لا تلبث أن تتحول إلى كائنات حية لها أسماء وملامح، ولا تكف عن الحركة والصراخ والغضب، وبعض الأحيان تبتسم وتهمس. وكان مثلما يقبل الانسان على رسالة جاءت من عزيز، فيقرأها أول الأمر ليعرف، ثم يقرأها ليتخيل، وفي مرات لاحقة يقرأها ليبدأ برسم الاشكال والملامح، ويستحضر الأصوات والروائح وطريقة التصرف ورد الفعل، فإن فنر وهو يقرأ «الوصايا»، كما سمى تلك الأوراق، كان شديد الحرص الا يطلع عليها احد، وكان يمتلىء بالأفكار والرغبات والصور.

لأول مرة يحس أن تلك الأفكار التي تصطرع في رأسه، وكثيراً ما سبّبت له الحيرة، تنتظم في انساق وأشكال يمكن تميزها وفهمها. زيادة على ذلك، فإن أغلب المواقف اليومية، والعلاقات مع الآخرين، بما فيها العلاقات مع أقرب الناس إليه، دخلت الآن في مرحلة جديدة، على الأقل من قبله. الوعود التي يعطيها، طريقة التصرف أو التعامل، النظر الى الاصدقاء والخصوم. وفي لحظات معينة كان يتمثل له هاملتون بالذات: «ما دام يعرف بهذا المقدار، ويتعامل بهذه الطريقة، فإن كل ما يقوله أو يفعله يستدعي التأمل والتفكير».



الفترة التي قضاها هاملتون في موران كانت فترة اختبار وتأمل بالنسبة لفنر. ما كاد يعود حتى أخذت الأمور مساراً جديداً:

- . . . والفرق، يا صاحب السمو، بين البحر والصحراء، ان البحر له قوانينه الصارمة، وعلى الانسان أن يفهم هذه القوانين وأن ينسجم معها، عليه أن يتأكد أولاً من مركبه، وأن يفهم حركة الرياح والتيارات، وأن يستعد لها ويستفيد منها، وعليه أخيراً أن يعتمد على البوصلة التي تعرّفه بالاتجاهات، وتقوده الى الموانىء التي يريدها. . .

كان يريد أن يتابع، الا أن ابتسامة فنر. والتي بدت له ماكرة، جعلته يتردد، تساءل بارتباك:

- هل تعتقد شيئاً آخر يا صاحب السمو؟

- لا . . . لكن اعتقد أن الكلام نفسه ينطبق على الصحراء أيضاً، قد تكون الأمور مختلفة لكن هناك أشياء مشتركة. .

ابتسم فنر وهو يضيف، وقد تغيرت لهجته:

- وأنت عشت في الصحراء وتعرف: بدل المراكب الجمال، وبدل مشي النهار مشي الليل، وبدل البوصلة النجوم، وأبوك الله يرحمه!

تراجع هاملتون قليلاً، تطلع الى فنر كما يتطلع أستاذ الى تلميذه، وأضاف بكبرياء:

- إن هذه المقارنة تجعلنا نسير في الطريق الصحيح . . .

وبعد قليل، وبنبرة كبرياء:

- ذكرت لسموكم، في وقت سابق، ان الذي كتب «الأمر» كتبه من مئات السنين، ولأمكنة مختلفة، وذكرت لكم ان هذه الأفكار، لكي تصبح مفيدة وعملية، تحتاج إلى مقدار مهم من البداوة، تحتاج إلى معرفة المكان الذي تطبق فيه، والناس الذين تطبق عليهم.

تنفس بعمق وهمّ، وتابع:

- في كثير من الأحيان تكون لدى البشر قوانين متشابهة وظروف متشابهة، لكن نلاحظ أن طريقة تصرف البشر، والنتائج التي يتوصلون اليها، مختلفة الى حد بعيد، وهذا، كما يبدو لي، ناشىء اما بسبب عدم فهم هذه القوانين، أو بسبب طريقتهم الخاطئة في تطبيقها، تماماً كما يفعل الخياط الجيد والخياط الرديء.

قال فنر وهو يبتسم:

- كان جدي، يا مستر هاملتون، يقول: ما خاب من أعطى الصنعة سيدها...

وبعد قليل:

- وكله توفيق من الله، يا الصاحب.

هاملتون الذي سُرَّ في هذه الليلة اكثر مما سُرَّ في ليالٍ كثيرة أثناء اقامته هنا، كان يفترض أن الفرصة التي طالما انتظرها، من أجل الوصول الى صيغة جديدة لما يجب أن يكون، قد تهيأت، لذلك لم يتوقف طويلاً عندما قاله صاحب «الأمير»، الاّ بمقدار ما يمكن أن تساعد تلك الأفكار في الوصول الى نتائج محددة.

أولى النتائج التي كان يراد الوصول اليها: كيف يمكن تصفية ابن مشعان؟

قال له السلطان أثناء اقامته في موران:

- عليكم، أنت وفنر، تخلّصونا من ابن مشعان...

ابتسم السلطان، ثم تحولت ابتسامته الى ضحك، وهو يتطلع بتحديد الى عيني هاملتون، إلى أن قال:

- ابن مشعان موجود، وقوي، لأن ابن ماضي موجود، فإذا راح ابن ماضي، وإذا الجماعة اللي يساعدونه وقفّوا مساعداتهم، ترى ابن مشعان يدوّر الخلاص!



وقال السلطان وهو يهز رأسه بثقة:

- اتركوا الباقين علينا: ابن مياح انا له: والله لأخلي ضراطه يسبق عجاجه، وابن عمير له العجرمي، فإذا ابو مشعل قعد له ركبة ونص راح يطلعه من دينه!

العجرمي الذي كان يسمع، وبدا واثقاً وقوياً، ورفض أن يبتسم، حين ابتسم الآخرون، قال:

- الدين: الجماعة، يا طويل العمر، وصلى الله عليه وسلم قال: لا تجتمع أمتي على ضلال!

لم يتأخر فنر في استخدام كل القوى من أجل محاصرة ابن مشعان: بذل جهوداً كبيرة لكسب خصومه، حرض رجال ابن ماضي، وذكّرهم أن الوحشة التي رافقت الاستيلاء على العوالي كانت من ابن مشعان، ولقد ولدت هذه القسوة استياءه واستياء السلطان. كما كلف عدداً من رجال ابن مشعان بالذات لأن يكونوا عيوناً عليه. ومن جهة ثانية انصرف بهمة كبيرة لازالة الأسباب التي يمكن أن تسوء الناس، اذ صرف مبالغ في فتح الطرق وايصال الماء؛ صحيح أن الأمر احتاج الى عدة شهور من التحضير والعمل، لكن بدأت تظهر نتائجه. أما العطايا التي قدمت في شكل هدايا، والزيارات الى بعض المناطق، ثم المعونات من الطحين والسكر والقماش، فقد وزعت بسخاء في عدة أماكن، خاصة تلك التي تعرضت الى السيول، فخلقت حالة من الارتياح.

قال هاملتون ذات ليلة، وكان يونس شاهين موجوداً:

- ... وتعرفون، يا صاحب السمو، أن المحاربين اذا مرت فترة دون حرب، فإنهم يحاربون بعضهم، وفي النهاية يحاربون انفسهم، ولذلك، فإن أفضل وسيلة للتخلص من ابن مشعان أن لا تبقى هناك أية حرب... عندها سوف ينتهي دون طلقة رصاص واحدة!

قال فنر، وكأنه يحدث نفسه:

- راح استدعي القنصل واتفاهم معه...

ابتسم وتطلع الى هاملتون ثم الى يونس:

- ويلزم نـدز فلوس لابن مشعان، قـدر ما يحتـاج وأكـثر، ونقـول لـه: الفلوس علينـا، اصرف مثل مـا تريـد، بس اترك النـاس. وحنا اذا قـدرنـا أن نعلّم النـاس انهم لا يدفعـون ضرائب الا للحومـة، ترى هـذا الشيء، اذا صار، فظني أن الأمور تنتهي!

ولم يتردد فنر في أن يجرب هذه الطريقة. بعث بسخاء، وبعث مع المال هدايا عديدة لابن مشعان، وطلب منه زيادة الطريفة، «وإذا كانت الظروف لا تساعـد، فسوف نقوم بزيارتكم في فـرصة قـريبة» وابن مشعـان الذي تسـاءل عن الأموال والهدايا، وعن تحيـات السلطان، التي كانت وديـة ومتلاحقـة، قدّر أن الـظروف أصبحت مواتية أكثر من قبل لأن يتصرف بثقة وأن يفرض شروطه، فلم يتردد في صرف الأموال، وأبلغ جنده ان يستعدوا للحرب والغنائم.

أما بخصوص زيارة الطريفة، أو استقبال الأمير فنر في مقره في شمال العوالي، فقد بعث برسالة قصيرة: «صاحب السمو الأمير. الـظروف الجاريـة لا تساعـدنا على مبارحـة الشمال، وانشـاء الله نقدر نـزوركم في وقت ثاني. أمـا ان تتوجهـوا لطرفنا، في الوقت الحاضر، فإن الأوضاع لا تساعد، وإذا استقرت الأمور سوف نبلغكم بذلك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

لم تكد تمضي بضعة شهور، حتى توقفت الامـدادات تمامـاً. لم تتوقف بشكـل رسمي، أو بموقف واضح أو معلن، وإنما أخذت شكـل التأجيـل والوعـود، مع اشـارات الى الصعوبـات وضرورة الانتظار. والجنـود الذين تعـودوا على استـلام الرواتب، ولم يعودوا يطالبون بالحرب أو بالزحف، ضجوا بالشكـوى والاحتجاج نتيجـة انقطاع الـرواتب والمؤن، وأصبحوا همـاً بالنسبـة لابن مشعان، وبـالنسبـة لبعضهم أيضـاً، خاصـة وأن الحنين الى الأهـل والديـار قد أكـل قلوبهم، وبـدأ يشكل عبئاً لا يمكن مقاومته.

قال فنر لهاملتون، بعد أن بلغته الأخبار:

- ... والبـدوان نفسهم ضيّق، فبعد وعـد القنصل انهم نفضـوا يدهم من ابن



ماضي، وبعدما عودناهم، هالحين جاءت الأخبـار ان ابن مشعان راح يشيـل بين يوم والتاني.

هاملتون الذي لم يتوقع أن يتم استسلام ابن مشعان بهذه السهولة، وقـدر أن يلجأ إلى الحرب، أو الى افتعال المشاكل، وقد عبر عن مخاوفه لفنر، فرد عليه فنر وهو يبتسم:

- حنت البلّ لأهلها، يا مستر هاملتون، والجماعةْ مضت عليهم شهـور وشهور، واليوم وباكر، ولأن ابن مشعان ما يعرف ويش يقـول، تراهم فجمـوا عليه، وصاروا له مصيبة: «إذا تريد الحرب حنا مستعدين، امـا اذا الحرب خلصت فكل واحد يدور أهله!».

وجـاءت الأخبار أيضـاً: «وبعث اليه ابن ميـاح يقول: واذا مقـامك بـالعوالي صار صعب، فمن رأيي ترجع الى الأهل والحمولة، لأن حسـابنا مـع خريبط مـا يكون ولا ينحسم الا بموران، وانت ادرى مني بأهل العوالي، أهل العـوالي مطبلين بالدنيا مزمرين بالآخرة، وابد ما يتأمنون. امس كانوا مع ابن ماضي، واليوم مـع خـريبط، ومـا نـدري باكـر مع من. جمـاعة يـريدون ويـدرون مصلحتهم، وهوا البحر غيّرهم، فالرأي ان ترجع وتحضر نفسـك، ويلزم تطرش لنـا مراسيـل بين يوم والتاني، وحنا، هنا، شاغلين الدنيا والآخرة، وخريبط ما يقدر يتقرب، وابنه خـزعل تـرك الحويـزة من شهور، وانشـاء الله ينصرنا عـلى خـريبط وعـلى القـوم الضالين».

اصبح مؤكـداً اذن أن ابن مشعـان لن يبقى في العـوالي، لكنـه لا يـريـد ان ينسحب هكذا. بعث الى فنر برسول، وثانٍ، يقول:

«الحرب تحتاج الى المال والعتاد. انتظرنا وصول الامدادات، لكن الامـدادات تأخرت، اذا لم تـرسلوا المال الـلازم مع الـرسول، سـوف ننسحب، وعليكم أن تتحملوا النتائج، وقد أعذر من أنذر».

استبقى فنر الرسول الثاني بضعة أيام اضافية، وبعث اليه من يبلغه، أن نائب السلطان، سمو الأمير فنر، يبذل كل جهده من أجل تأمين الأموال والامـدادات

اللازمة، وهذه الأموال طلبت من موران، وينتظر وصولها بين شهر وآخر، ونأمل خيراً!

بعد عشرة أيام من الانتظار عاد الرسول لابن مشعان برسالة من الأمير فنر: «وصلت رسالتكم وأخذنا بها علماً. ما زلنا بانتظار جواب صاحب الجلالة السلطان، فإذا رأيتم أن تتركوا المناطق التابعة لكم، فهذا يرجع تقديره لجنابكم وسوف نتحمل هذه المسؤولية عنكم، ونطلب اليكم مراجعة موران لتحصيل مخصصات الجند، وسوف نكتب الى موران بذلك، وعلى الله التوكيل».

ابن مشعان في العوالي، رغم الخيول التي حصل عليها، والزوجات اللواتي أصبحن له، يحس أنه سمكة خرجت من مائها. فالجند في المرحلة الأخيرة غير الجند، والناس غير الناس، اضافة الى الصعوبات التي بدأت تواجهه فيما يتعلق بالبقاء أو الانسحاب.

قال يونس شاهين في احدى الافتتاحيات التي كتبها: «... ولا بد من الاعتراف في المرحلة الجديدة ان العوالي لا تستطيع ان تبقى في حالة حرب أو استعداد للحرب، بعد أن استسلم ابن ماضي، وأصبح أثراً بعد عين، ولذلك يجب أن تنصرف الدولة الآن الى الأعمار والى الخدمات، خاصة وأن القادة العسكريين قد أعلنوا لصاحب الجلالة السلطان ولنائبه في العوالي، ان مهمتهم قد انتهت، وأنهم الآن يعودون الى أهلهم وديارهم بعد أن أدوا المهمة وأكملوا الرسالة.

«أما كل دعوة للخروج عن طاعة الدولة. أو عدم الامتثال للقوانين والأنظمة السائدة، فإنها سوف تعرّض مرتكبها للعقوبات والمساءلة، ولذلك يجب أن ينسى السكان المرحلة السابقة، وأن ينصرفوا الى الجد والعمل، وقل اعملوا فسيرى الله اعمالكم والرسول».

وانطلق فنر، أكثر من أية فترة سابقة، الى زيارة المناطق، الى دعوة الشيوخ، الى تأمين المطالب والخدمات، وكان يرافقه في هذه الزيارات عدد كبير من المرافقين، وكان يستمع ويسجل الكتبة، وكان يعد، دون مبالغة، أن تحاول الدولة تأمين ما تستطيع القيام به، ويطلب في الوقت نفسه من الناس أن



يتعاونوا، أن ينتظروا، أن يتحملوا، لأن الظروف التي تمر بها البلاد من الصعوبة والدقة بحيث تتطلب تعاون الجميع.

حين تأكد أن ظروف ابن مشعان أصبحت صعبة في العوالي بعث يخبر أباه السلطان، فبعث اليه أبوه بالرسالة التالية:

«ولدنا فنر:

اذا سألت عنا فنحن، ولله الحمد، بخير وسلامة، لا ينقصنا الا رؤيتكم والاطمئنان على اخباركم. بخصوص اخبار ابن مشعان كل شيء صار بالنسبة لنا معلوم، وما حصل حتى الآن الذي ذكرتوه مناسب، ولا يكون لكم فكر، فنحن، بمشيئة الله، ندبر الأمور بما هو ضروري ولا حاجة للقلق، ومع ذلك تحذروا وكونوا دوماً مستعدين.

ولدنا فنر، تبلغ الصاحب انه يلزم يضغط على الجماعة في الطريفة وعلى لندن بضرورة زيادة المخصصات، لأن المصاريف زادت أكثر من التقديرات، ولأن السيول التي حصلت ضربت الكثير، وتبلغ الصاحب ان المشاريع اللي قال لنا عنها، حنا بأتم الاستعداد، بس يلزم ان الجماعة ما يتأخرون.

هذا ما لزم تبليغه، ومن عندنا الجميع بخير ويهدونكم السلام، ونسأل الله أن يديم عليكم الصحة والسلامة، والدكم، السلطان خريبط».

قال هاملتون لنفسه، بعد أن قرأ له فنر الرسالة «هؤلاء البدو لديهم خاصّية انهم يفهمون ما لا يكتب، ما لا يقال بشكل مباشر، وفنر يفهم ما يريده أبوه دون كلمات، من عيون حامل الرسالة، ومن الطريقة التي تكتب بها الرسالة». وبدا له الأمر طريفاً ومثيراً للتساؤل أيضاً. إذ رغم السنوات العديدة التي قضاها فما يزال لا يعرف كيف يتكلمون أو كيف يفهمون.

قال ليونس شاهين:

- أراهن أن ابن مشعان لن يترك العوالي.

- البدو، يا مستر هاملتون، يختلفون كثيراً عن غيرهم، فهم يخافون الشتاء

والغربة والحروب التي تفرض عليهم. وما دمنا الآن في فصل الشتاء فإن الحرب مؤجلة، وما دام ابن مشعان بعيداً عن عشيرته فلن يحارب هنا وانما سيحارب هناك. ولذلك فإذا لم يكن مضطراً فلن يحارب.

هز هاملتون رأسه عدة مرات دلالة الفهم، لكن ظل قلقاً. وتأكد في نفس الوقت أن «الأمير» بدأ يلبس العباءة والعقال، وأن «وصاياه» اكتسبت الكثير من صفات البداوة وملامحها، وحتى لهجتها، فضحك بزهو، وقال لنفسه: «ليت ميكافلي حي ويرى».



أما بعد أن سقط الفرسان الثلاثة، الذين ملأوا الصحراء دوياً وخوفاً سنين عديدة، وقد كان لفنر دور هام في تأمين الأموال التي تحتاجها الحرب أولاً، وفي تأليب قوى كثيرة، في الداخل والخارج، ضد «العصاة»، بعد ذلك، فقد أصبح هاملتون على ثقة أن «الوصايا» لم تستوعب فقط، وإنما بدأت تثمر أيضاً. وذهب به الخيال ان فكر باعادة كتابة «الأمير»، لكن ضمن متطلبات مجتمع مختلف وعصر آخر.

فموران الامارة الصغيرة التي كانت متوارية منسية، وسط الصحراء، أصبحت الآن تفوق كثيراً ما أراده السلطان أو ما حلم به. صحيح أن زمن الحروب والفتوح قد انتهى، كما اقتنع الجميع أخيراً، وبدأ كلٌ يستجيب للواقع الجديد، لكن السلطان ترك بعض المسائل معلقة، لعلها تكون مفتاحاً أو طعماً للأيام القادمة، حين تتغير الظروف. وإلى أن تأتي تلك الظروف لا بد أن يهدأ، لكن دون أن ينام. وعليه أيضاً أن يتصل ويقيم العلاقات، لكن دون أن يتوقع تغيرات كبيرة، خاصة وأن هاملتون الذي وزع وقته وجهده بين العوالي وموران، بحيث يقضي الشتاء في العوالي والصيف في موران، وخلال الاجازات، أو بين الزيارتين، أو حين تسنح الظروف، لا بد أن يشبع هواياته للآثار والجغرافيا، أكد على السلطان مرات عديدة «أن الأهم في المرحلة الجديدة، يا صاحب الجلالة، أن نقيم بناء قوياً، من أن نحاول توسيع دائرة السلطنة، لأن القوةتبقى الأساس للتوسع حين يأتي وقته، ولا يمكن للتوسع أن يكون قوة إلا إذا كان ضمن ظروف دولية مناسبة».

ولكي لا يترك هاملتون مجالاً لاخطاء قد تقوّض كل ما شُيّد، فقد اندفع بحماس لتأمين موارد اضافية لموران، فاستطاع أن يتوصل، بعد جهد، الى توقيع اتفاق النفط أولاً، ثم أشار على السلطان بأن ينفتح على العالم، وأن يقيم علاقات مع الكثيرين. ولم يتأخر السلطان في الاستجابة، لكن ظل الانكليز، بالنسبة له، البوصلة التي تدله على الطريق. ولذلك فإن العلاقات التي قامت كانت استجابة، وبحدود ترضي الانكليز ويوافقون عليها.

جاء هاملتون ذات ليلة، وقد بدا فرحاً متألقاً، كما لم يكن هكذا، وهمس في أذن السلطان أنه يريد أن يختلي به ويحدثه بأمر هام. نظر اليه السلطان بارتياب. ظن لأول وهلة أن الرجل اخذ من دواء الحصر اكثر مما يفعل عادة، أو أن لديه خبراً جديداً هاماً، ولكي يتأكد من ظنونه سأله:

- هالحين يا الصاحب؟
- اي نعم، يا طويل العمر.

والسلطان الذي احرج، للحظة، وبدا له أن من الأفضل أن يقوم مع هاملتون من أن يطلب اخلاء المجلس ويغضب الموجودين.

قال بتبسط يخاطب زواره:

- يلزم، يا جماعة الخير، نطرش برقية، فظلوا بمكانكم، وأنا دقايق وراجع لكم.

وفي غرفة مجاورة، ورغم أن هاملتون استعد وحضّر اسبابه لتقديم الاقتراح، إلا أنه بدا مرتبكاً. قال بعد أن تلفت أكثر من مرة:

- لدي يا صاحب الجلالة اقتراح فكرت فيه طويلاً، واعتبر أنه ضروري وهذا وقته، لكي نتخلص من اشكالات ومصاعب كثيرة...

والسلطان الذي ارتبك أيضاً وتلفت، سأل بنفاذ صبر:

- سم... يا الصاحب!
- ويجب أن تعتبر الاقتراح حلاً لمشكلة، وليست له دوافع اخرى.
- سم، وبعدها الله كريم.



- من جملة الأسباب والعوامل التي تساعد على رسوخ الدولة واستمرارها، وانهاء أطماع الآخرين، وحتى انهاء مطالباتهم، ان تزول الأسماء القديمة والصيغ القديمة، وتحل أخرى مكانها. ان استمرار وجود الحويزة والعوالي، اضافة الى موران، ووجود مطالبين، سيبقي الأمور معلقة، وخاضعة لكثير من العوامل والتقلبات، ولذلك يجب أن تنتهي هذه الأسماء وتقوم مكانها تسمية جديدة.

احس السلطان، غريزياً، أن ما يقوله هاملتون صحيح، لكن تخوف أن يكون وراء كلامه شيء آخر.

سأل بحذر:

- خاف تكون سامع شي، يا الصاحب، او عندك علوم جديدة؟
- أبداً، يا صاحب الجلالة...
- وبعد قليل وهو يبتسم، ويغير لهجته:
- لكن من خلال معرفتي وقراءتي للتاريخ، وأثناء زياراتي للمواقع الأثرية، كما أن صحراء بلادكم، يا طويل العمر، تحرض ذاكرة الانسان، وتدفع اليها، كل لحظة، بعشرات الشواهد والحقائق التاريخية، ولاني لا أتوقف عن التفكير وتقليب الأمور، فقد أصبحت على يقين أن من جملة الاسباب التي سوف تساعد على تثبيت الحكم الجديد، وتجعله غير قابل للمناقشة أو إعادة النظر، أن يكتسب اسماً جديداً وصفة جديدة.

اطمأن السلطان، ارتخت عضلاته، نظر الى هاملتون، ابتسم، وقال بطريقة طفولية:

- أي يا الصاحب، سولف، وشنهو بعد؟
- ليس عندي الكثير لأقوله الآن، يا صاحب الجلالة، لكن يبدو لي أن هذا الأمر ضروري إلى أقصى حد، ويجب أن تحسموه في أقرب فرصة.
- وشنهو اللي تشور به علينا؟
- أرى، يا طويل العمر، أن يطلق على الدولة الجديدة اسم يشمل موران

والعوالي والحويزة معاً، وان تعلنوا أنكم سلطان هذه الدولة.

- وما دام حنّا الحاكمين، يا الصاحب، شنهو اللي يزيد أو ينقّص؟
- في الوقت الحاضر لا يزيد ولا ينقص شيء، يا صاحب الجلالة... لكن... اتاريك تعرف شي ما نعرفه يا الصاحب، ومن بد ولازم تقول شنهو اللي عرفته؟

ضحك هاملتون، والتفت، وبعد قليل وقد تغيرت لهجته تماماً:

- ربما الطريقة، أو الوقت الذي اخترته لأعرض على جلالتكم هذا الاقتراح غير مناسب، لكن بعد أن توصلت لهذه القناعة وفكرت طويلاً، لم اسمح لنفسي بتأجيل عرض الاقتراح الى الغد!

وتحرك هاملتون بطريقة معينة ليشعر السلطان ان هذا ما عنده، أو ما ارتآه. وكانت النظرات تحمل معنى الاعتذار إذا كان قد حصل خطأ نتيجة هذا التصرف أو التقدير.

قال السلطان بمودة:

- اللي تقوله، يا الصاحب، صحيح، بس ما أدري ليش هالحين خطر ببالك؟

نكس هاملتون رأسه، وصمت. وحين طال صمته، قال السلطان وهو يضرب على ساقه بمداعبة:

- ما جاوبت على سؤالي، الله يسلمك؟

رد هاملتون بحزن:

- ربما وجدت نفسي مضطراً، يا صاحب الجلالة، لاقول ما قلته، خاصة وأن الكثيرين الآن لا يتكلمون إلا حول ما يريدون، وحول أدوارهم فيما حصل، ناسين ما يجب أن يُفعل من أجل مصلحة موران اليوم وغداً. وهذا ما يجعل الكلام بالنسبة لي صعباً، خاصة عندما يسكت الآخرون!

قال السلطان، وقد تأثر:

- اللي يسولفون، الله يسلمك، ولا أكثر منهم، بس كلام عن كلام يفرق، وحنا



نسمح واجد، بس، والشهادة لله، نعرف اللي يتكلمون صدق، واللي يحركون لساناتهم وينافقون...

وبعد قليل:

- وحاشاك، يا الصاحب، تظن أن كلامك مثل كلام غيرك.

هز هاملتون رأسه عدة مرات، تنفس بعمق، ثم قال:

- قد يكون من غير المناسب أن اذكر لجلالتكم اني منذ أن اعطيتكم كلمتي، قبل سنوات، للبقاء هنا، إلى جانبكم، وأن أشور على جلالتكم، ليس لدي أي هم أو موضوع يفوق الاهتمام بهذه السلطنة: كيف يمكن أن تبقى، وأن تكون أقوى، وما يجب ان نعمل من أجل أن...

قاطعه السلطان بمودة:

- هذي ما ينراد لها يا الصاحب، وظني أنك ما تحتاج إلى شهادة.

وتغيرت اللهجة قليلاً:

- وما يلزم نقول بوجهك، الله يسلمك، شنهو اللي نقوله عليك، وأي منزلة تحتل بقلوبنا، وأنا شخصياً تحملت الكثير الكثير حتى أكد للجماعة، القراب والبعيدين، انك باخلاصك ومحبتك مثل اخواني وأولادي.

وضحك... ثم تابع:

- وعيب أن البني آدم يحكي ويقول، لكن يلزمك تعرف: ما يمر يوم الا واوصي أولادي، وكل الجماعة: الصاحب، يا جماعة الخير احرصوا عليه وما تخلوه الا راضي.

وبعد قليل:

- فاذا ببالك شي، أوسمعت كلمة، أو أحد زعلك، يلزم نعرف.
- أبداً، معاذ الله، يا صاحب الجلالة.

ابتسم، نظر الى السلطان، وكانت نظرته حزينة، وهمس:

- كل ما أريد أن أقوله يا صاحب الجلالة أنني اعتبر نفسي مواطناً في هـذا البلد، ولاني أصبحت هكذا فيجب أن أخلص له، أن أعطيه احسن ما عندي . . .

تنحنح حتى جلا صوته، واخرج منه الحزن:

- وهذا ما دعاني، يا طويل العمر، الى تقديم الاقتراح الذي حدثتكم عنه.

قال السلطان بأريحية:

- حنا معاك يا الصاحب، وانت بالنسبة لنا فوق ما تتصور، وهالحين قل وحنا موافقين، أو مثل ما يقول أهل مصر: فصّل وحنا نلبس.

ضحك هاملتون. كان مسروراً، وبدا كأنه أوصل الرسالة، ولا يريد أن يتابع، لكن السلطان، الآن، لا يريد أن يتركه. لقد راقه الموضوع، وبدا له هاماً أيضاً. وبعد فترة صمت طويلة، سأل:

- ما قلت لنا رأيك يا الصاحب؟
- رأي أن نناقش الأمر في وقت لاحق، يا طويل العمر. يمكن أن تفكروا في الاقتراح، ويمكن أن افكر، والأيام طويلة.
- ابد. . . يلزم تقول.
- تأخرنا على الجماعة، يا طويل العمر، وخاف يزعلون!
- لا تخف، وأنت ما عليك.

تراجع هاملتون في مقعده. نظر الى السلطان نظرة جادة، أقرب الى الحزم، وقال وقد اكتسب صوته لهجة احتفالية:

- بعد أن فكرت طويلاً في الموضوع، يا طويل العمر، ولما كانت أسرتكم تنتهي إلى الجد الأكبر والذي كان باسم هديب، لذلك أرى أن تسمى السلطنة بالسلطنة الهديبية.

ومثلما تراجع هاملتون في مقعده تراجع السلطان، ونظر بتلك الطريقة البدوية، وللحظة، ظن هاملتون أن السلطان غاضب أو يختبر، أو ربما حائر، لكن فجأة تهلل، وسأل:



- وإذا سميناها السلطنة الهديبية، برأيك أن الناس ما تسبنا؟ ما تقول فلاني وتركاني؟
- أبداً، يا صاحب الجلالة، ومثلما تعرفون: ان الدول تسمى بأسماء الاشخاص، وحتى العملة يسمونها بأسماء الاشخاص؛ فعملة ماريا تريزا، والليرة الرشادية، والحميدية، وحتى العباسيين وقبلهم الامويين، كل هذه الدول منسوبة الى الجد الاكبر، الجد الأول، ولا أظن أن من حق أحد أن يحتج أو أن يعترض.
- هذا رأيك؟
- اي نعم. . . هذا رأيي!
- ويقولون: السلطنة الهديبية؟
- ولِمَ لا؟
- قصدي ما هي كبيرة؟ وانت تعرف أهل موران. . . وغيرهم وغيرهم، كلهم لساناتهم طويلة وعيونهم ضيقة.
- أبداً يا صاحب الجلالة، والمسألة، أولاً وأخيراً، مسألة عادة، ومثلما تسمي ابنك اسماً، ومهما بدا غريباً أو غير مألوف، فلا يلبث أن يتعود عليه الناس، ويصبح وحده الاسم الذي يعرف به، وأيضاً الاسم الوحيد المقبول.
- هذا رأيك؟
- اي نعم.

وضحك هاملتون، وأضاف:

- ومثل كل الاشياء الجديدة، لا يألفها الانسان بسرعة أو بسهولة، لكن باستمرار استعمالها وتكرارها تُؤلف وتُقبل. . .

وبعد قليل:

- ومن رأيي، طال عمرك، أن تفكروا بالموضوع، وما يلزم أن تقرروا الآن، لكن، وكما ذكرت لكم، يجب أن يتم اختيار الاسم، وكلما كان أسرع كان أفضل.

- خلنا نفكر. . .

وبعد قليل وهو يضحك:

- ويلزم نبيّت خيرة، وعسى أن الله يوفقنا.

وهما ينهضان ليعودا الى المجلس قال هاملتون برجاء وبصوت هامس:

- لي رجاء وحيد، يا صاحب الجلالة. . .
- سم. . . الله يسلمك.
- أياً كان القرار الذي تقررونه بخصوص التسمية، كل ما أرجوه أن لا يشار، بأي شكل، وأمام أي انسان، أن لي علاقة بهذا الموضوع. الاقتراح اقتراحكم، وصادر عنكم وحدكم.

ضحك السلطان وهو يصلح ملابسه، وقال وهو يخطو:

- ما يكون لك فكر، يا الصاحب، هذا رأينا وهذا أمرنا، ولا أحد له علاقة!
- هذا ما أريده طال عمركم.
- اطمأن من هذي الناحية.

وضحك وهو يخطو ويفتح الباب:

- وانشاء الله ما يصير الا الخير!

وخلال شهور لم تهدأ موران، اذ بعد احتجاب السلطان الطويل، بدأ من جديد يستقبل الكثيرين، كما واستدعى كبار العائلة والوجهاء، حتى ظن أنه لن تمر فترة الا وتبدأ حملة جديدة، ومما عزز هذا الاحتمال وصول القنصل البريطاني الى موران، والخلوة الطويلة بينه وبين السلطان، ثم رحلة القنصل والتي شارك فيها السلطان ذاته، اضافة الى عدد محدود من رجاله. ورغم الاستفسار والتقصي، لم يعرف ما دار. ومما زاد في القلق وتشوش الأفكار المقال الذي كتبه يونس شاهين، ومما جاء فيه «. . . والدولة بعد أن اتسعت واعترفت بها الدول الأخرى، وبعد ان اقامت نظاماً لم تشهد مثله هذه الصحراء منذ وقت طويل، لا بد أن تكتسب وضعاً جديداً واسماً جديداً. واننا ندعو صاحب الجلالة السلطان



لأن يبادر وأن يقدم الصيغة الملائمة للمرحلة».

وفي الطريفة، وبطريقة احتفالية بالغة الابهة والفخامة، وأثناء استقبال القناصل، وبمناسبة ذكرى معركة الرحيبة، ألقى السلطان خطاباً اعلن فيه أن دولة جديدة قامت، ومنذ اليوم لم تعد هذه الدولة مجرد موران والحويزة والعوالي، وانما هي الدولة الهديبية.

بدا الاسم غريباً مثيراً للعجب والتساؤلات. بل أكثر من ذلك بدا مثيراً للسخرية، خاصة في موران.

شمران العتيبي الذي لم يسمع بالاسم الا بعد عدة أسابيع، رفض أن يصدقه، لكن حين أكدوا أن موران لم تعد موجودة، وأن اسمها منذ الآن المنطقة الوسطى في الدولة الهديبية، فقد رفع رأسه إلى أعلى وقال بسخرية:

- ما يخالف، خلهم يسمّون، وماهي الا اسماء سمّوها هم وآباؤهم، لكن ظني أن اللي الله خلقه العبد ما يقدر يغيره، وهذي الايام بينا وتشوفون!

وبعد قليل وهو يقهقه:

- هذول اللي يحكمون ما أدري شنهو اللي يصيبهم يا جماعة الخير، يكونون عاقلين مثلنا، يسولفون، ويضحكون، لكن طُبّ، ما يروح يوم ويجي الثاني الا ويصيرون غير ما عرفناهم وغير ما كانوا: روسهم تدور، أوداجهم تنتفخ، وما تعرف شلون تغيروا. نقول لهم: يا معودين، يا أولاد الحلال، احرصوا، ديروا بالكم، والغلط بهذي المسائل ابد ما يتصلح، مثل البنيّة بعد ليلة العرس، لكن ابد ما يسمعون ولا يفتهمون، ويصيرون مثل الكدش الحارنة.

وبدا على وجهه الحزن. هز رأسه عدة مرات وأضاف:

- لكن ما يخالف، الظاهر أن البني آدم ما يتعلم الا من كيسه، وما دام خريبط هالحين كيسه مليان خله يدفع، ومثل ما قالوا: رزق المهابيل على المجانين، ولو كان عاقل ويفهم كان عرف شنهو اللي صار بالناس اللي قبله، ويلزمه

هالحين يكون عبره للِّي بعده، وهذي موران ابد ما تنسى. تسكت، تصبر، تتحمل، لكن ابد ما تنسى!

عبد الله البخيت الذي تعوَّد أن ينفث، فينظم، بين فترة وأخرى، أبياتاً من الشعر، وأغلبها في العتاب والغزل وذم الزمان، وقد عرف عنه هذا بين اصدقائه ومعارفه، لما طلب منه العجرمي أن يقول كم بيت بهذه المناسبة، رد بسخرية:

- وانت تعرف، يا شيخنا: الشعر والشعراء للغواية والشيطان، وهذي دولة للرحمان، فيلزم أن الواحد يكتب لها حجاب، حتى الله يحميها، وظني أن السلطان ذاته ما يقبل.

ابتسم العجرمي، ورد ساخراً:

- وغيرك، يا عبد الله، بيوم الحويزة، وبعدها العوالي، قالوا شعر!
- وهذول جاهزين، ولا بد حضّروا أرواحهم لهذا اليوم، طال عمرك.
- كنا نأمل ونريد منك.
- ومن هو ابن البخيت، يا شيخنا، أمام دولة هذا كبرها؟
- ولكن الخويا يقولون لك شعر زين.

- أنا شويعر، طال عمرك، اخط بالرمل، ودولة الهديبية ينراد لها شعر بكبرها!

- يعني بالمختصر المفيد شيطان الشعر ما جاك!
- لا بالله طال عمرك!

عثمان العليان كان مشغولاً بهم أكبر، فموران، من يوم ما عرفها، تتعامل بعدة أنواع من العملة، وكانت هذه الأنواع تسبب الكثير من المتاعب والاشكالات، وقد جاءت الفرصة الآن، وبعد أن تشاور مع هاملتون، لكي تنتهي هذه المتاعب، وذلك بأن تُسّك عملة جديدة وموحدة.

ما كاد مهيوب يقول له، همساً وسراً، أن السلطان في ذكرى احتفالات الرحيبة سيعلن عن قيام الدولة الجديدة، حتى قال بنفاذ صبر:

- أي، وكانت هذي لازمة من سنين وسنين...



وبعد قليل:

- ونتخلص من فلوس المقادي، وتصير لنا عملة ترنّ وتسوى ثقلها ذهب!

أمي زهوة التي كانت تحس بالحركة حولها، ولا تعرف على وجه الدقة ماذا حصل، وكل من تسأله يدير يديه ويقلب شفته، أو يهز رأسه، دلالة أنه لا يعرف، إلى أن جاءها عبدها سرور، بعد أن استفسر وتأكد، قال لها:

- ... ويقولون، يا عمتي، ان دولة طويل العمر صارت أكبر وأكبر، ويقولون ان الفارس حتى يجتازها من طرف الى طرف ينراد له سنين وسنين!

- يا ولّ يا سرور، هذا كلام حاسدين.
- والله يا عمتي يحلفون ويتكفرون... وما أدري!
- وليش ما قلت لي من قبل حتى ننشد أبو منصور ونتأكد؟
- راحت عن بالي يا عمتي، لكن غيبته ما تطول.

- رح دوّر لنا العجمي وخله يجي ومعه دواته وقراطيسه ويكتب لنا حجاب، عسى أن الله يحمي أبو منصور ويفتح عليه ويردّ عنه كيد عداه.

وجاء المنجم وكتب الحجاب المطلوب، وتقاضى خمس ليرات مجيدية، ولما عاد السلطان، وحدثته أمي زهوة، استفسر منها متى كتب الحجاب، وأين وضع ثم ابتسم، وحدّثها أن سيارته كادت تنقلب في وادي الرخم. لكن الله سلّم. ولم يتأخر لكي يستدعي المنجم ويمنحه ذلولاً وثلاثين ليرة رشادية!

... ومرة أخرى سافر فنر في جولة جديدة، حاملاً رسائل من أبيه للحصول على اعتراف الدول الاخرى ودعمها، ولم ينس السلطان أن يطلب منه، وقد قال ذلك وهو يبتسم، أن يمر على استانبول، وأن يزور عائلة رفيفان، لكي يخطب له ابنة بندر رفيفان، «لأنها مزيونة، وابوها الله يرحمه، من جماعتنا، وأنا، من قبل، طرّشت واحد من الجماعة ومعه مكتوب وهدية، وما يلزم ترجع ويدك فارغة».

والسلطان، منذ وقت مبكر، لم يسقط من اهتمامه، الاصدقاء ـ الأعداء. صحيح ان كانت تمر فترات، وبعض الاحيان طويلة، لكي يتذكر «صديقاً» من هؤلاء، لكن غالباً ما يرافق تذكره هدايا ودعوات، فإذا لم يقم بالزيارة بنفسه، يكلف أحد رجاله، وفي حالات قليلة واحداً من أبنائه، ويترافق ذلك مع الكثير من الضجة والاهتمام، بحيث لا يبقى أحد الا ويعرف بذلك، ويؤدي أيضاً إلى أن ينسى ذلك الصديق النسيان الطويل السابق والاهمال المتعمد. وفي حالات معينة، ومقصودة، لم يتردد السلطان في أن يصاهر ويتزوج، ليفتح صفحة جديدة.

لقد قام السلطان بنفسه مرتين أو ثلاث مرات بزيارات من هذا النوع، وقد تحدثت عنها موران طويلاً. قام مرة بزيارة لمفلح الحريشي، بعد أن تقدم العمر بمفلح وأصيب بالفالج. وقد قضى في زيارته فترة غير قصيرة، رغم أن العلاقات بين الاثنين تخللها الكثير من الاختلاف، وبعض الاحيان حمل السلاح. لكن مفلح حين أدرك أنه هُزم، ولم يعد قادراً على الاستمرار أو المقاومة انزوى، وظل ينقل عن لسانه التعريض بالسلطان وبعلاقاته مع الانكليز. وخريبط الذي كانت



تصله الاحاديث مع التعريض، كان يهز رأسه ويبتسم ابتسامة ساخرة، وكان بعض الأحيان يردد:

ـ كان مفلح يريد رأسي، لكن التمني رأس مال المفاليس!

في هذه الزيارة التي تحدثت عنها موران، بدا لكل من حضر أن الرجلين لم يعرفا الاختلاف، وأن الصداقة التي تجمعهما أقوى من الأقوال التي كانت تتردد. أما عن الاموال التي سبقت الزيارة، ثم أعقبتها، فقد اختلف الكثيرون في تقديرها.

وقام خريبط أيضاً بزيارة لبيت المرحوم شبل الغامدي، قام بها بعد الوفاة بثلاثة شهور. لم تكن للعزاء، اذ جاء من قبل من قام بهذا الواجب نيابة عنه، وانما لتفقد الاولاد والتأكد أنهم لا يحتاجون إلى شيء، كما ذكر. وأبلغهم أيضاً أن لهم أباً غير أبيهم، ويمكن أن يعتمدوا عليه، وأن يدقوا بابه في أي وقت يشاؤون، وأشار إلى نفسه، ودق على صدره، وقد بدا حزيناً أقرب إلى الانفعال!

أما كيف كانت العلاقة بين السلطان وشبل الغامدي، فلا أحد في موران الا ويعرف الكثير من تفاصيلها: كيف انه قرر اعدام شبل، ثم عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة، فاستبدل القتل بالحبس، وبعد أن قضى شبل فترة طويلة في سجن القصر، وقيل أنه مرض وكاد ينتهي، أطلق سراحه. وقيل أن شبل زار السلطان وقبل أنفه وجبينه، واعتبر كل شيء، بعد ذلك، منتهياً. وقامت صداقة جيدة بين الاثنين، لكن لم تدم الا شهوراً قليلة، مات بعدها شبل!

تذكر الذين سمعوا السلطان يطلب من فنر زيارة عائلة بندر الرفيفان هذه القصص، وتذكروا غيرها، خاصة حين أكد على ضرورة عودة العائلة إلى أهلها وبلدها.

وبندر الرفيفان الذي ترك موران قبل سنين طويلة، وأعلن أمام الكثيرين أنه لن يعود، مهما كانت الظروف، لأنه كان أحد الذين ساعدوا خريبط في الوصول إلى السلطة، ثم خدعه خريبط وخدع كثيرين غيره، بعد أن تمكّن وسيطر، وأعلن

أيضاً أنه سيذهب الى أبعد مكان، بحيث لا يريد أن يسمع شيئاً عن موران، فحمله خياله، ومكنته ساقاه من الوصول إلى أبعد مكان في ديار الاسلام، إلى استانبول، وهناك قرر أن يبقى.

أما تاريخ بندر بعد موران فانه من الغموض والتداخل، بحيث يرويه كل واحد على هواه. قيل انه عاش سعيداً، بعد أن اصطحب معه زوجته التركية، وقد تزوجها قبل ذلك بعدة سنين، وانجب منها ابنة وحيدة. عاش على ضفاف البسفور، بعد أن اخرج مقداراً من الذهب الذي يحمله، وكان راضياً. وقيل أن حياته بعد موران لم تعرف الراحة يوماً واحداً، فقد كان يتأكله الحنين إلى بلده وأهله، وكان لا يفعل شيئاً سوى الصلاة والدعاء، وبعض الأحيان ترديد أبيات من الشعر والبكاء. وقيل أن الحزن الذي استبد به عجّل بموته. وقال بعض الذين زاروه في غربته، أنه أصيب بلوثة، ولم يعد يعرف أحداً، وأن امرأته لم تكن تفعل شيئاً سوى ابعاد السكاكين والأدوات الحادة، والتي لم يتوقف يوماً عن شحذها وتحضيرها، لكي يقتل خريبط!

زيارة فنر إلى استانبول كانت في نهاية جولته، وكان يفترض ألا تزيد عن يوم أو اثنين، لكي يقوم بالواجب الذي كلفه به أبوه، ولن يتعدى المرور على عائلة رفيفان وتقديم الهدايا ثم الحديث في الموضوع: «الوالد يريد مصاهرتكم، يريد ابنة بندر الرفيفان» وبعد ذلك يترك لمجوُل العصيفير، الذي اصطحبه لهذه الغاية، ومرافقيه ليتابعوا الأمر، خاصة وأن رسالة بهذا المعنى سبق أن حملها رسول من خريبط.

لكن هذه الزيارة امتدت اسبوعاً كاملاً، وغيرت الكثير في شخصية وحياة فنر، أو بالأحرى قلبتها!

اذ ما كاد يقوم بهذه الزيارة، لكي يؤدي المهمة، حتى وجد نفسه، وربما من المرات النادرة في حياته، مرتبكاً وأقرب إلى الاضطراب، بعد أن جاءت الأم والابنة للسلام عليه!

وإذا كانت عادته، منذ أن كان صغيراً، ألا ينظر مباشرة إلى عيني محدثه، فقد



اختلس النظر إلى الأم والإبنة عدة مرات، وراقب، بعناية، طريقة تصرفهما، وكيف تتكلمان وكيف تنظران، واسترجع ما قيل من قبل، واحب لكنة البنت وهي ترد على بعض الأسئلة. أما الأم التي كانت متلهفة لسماع كلمات معينة، فقد انقضت الزيارة دون أن تسمعها، فشعرت بالقلق، وما يشبه خيبة الأمل، لكن ما جعلها تؤمل وتنتظر أن الأمير أبدى رغبة في أن يقوم بزيارة ثانية في مساء اليوم التالي!

في الزيارة الثانية، جاء فنر مع مستشاره الخاص، عنان بسيوني، وحارسه، نصار، فقط، وقد سبقته مجموعة كبيرة من الهدايا، تم شراؤها على عجل من استانبول. وقد بدا الارتباك منذ بداية السهرة. كان حائراً إلى أقصى حد بين أن ينهي واجبه بسرعة، وبين أن يسمع النداء الذي بدأ يدق صدره ويلحّ عليه. فالفتاة خلال السهرة كانت أكثر جمالاً وأكثر بساطة. والأم تطلعت إلى فنر عدة مرات، وكأنها تختبره، أو ربما قدرت ما يدور في رأسه، وقد زاده ذلك خجلاً، مما أدى في لحظة تقديم القهوة الى انزلاق كوب الماء وهو يتناوله، فضحكت الأم ضحكة رنانة، وقالت أن الناس في هذه البلاد يعتبرون ذلك فألاً حسناً، ويؤدي إلى السعادة والرزق الوفير، مما خفف حرج الفتاة، فاعتبر الأمر لذيذاً وطريفاً!

وإذا كان عنان بسيوني مفيداً وضرورياً في أوقات الصعوبة والحرج، فقد كان في هذه الليلة انقاذاً حقيقياً، إذ بالإضافة إلى معرفته باللغة التركية، فإن الطريقة التي اتبعها في إدارة الحديث، ثم النكت التي رواها، خلقت ألفة ما لبثت أن سيطرت على الجو تماماً، عكس الزيارة الأولى، والتي كانت أقرب إلى المجاملة والصمت.

من الاشارات غير المباشرة، ومن الحديث مجدداً عن موران، كيف كانت وكيف هي الآن، بدا واضحاً أن الزواج لا يزال الموضوع الذي يدور حوله الجميع، ومع أن السهرة انقضت أيضاً ولم يتم التطرق إليه، فإن الدعوة التي وجهها الأمير للعائلة لتناول العشاء على مائدته، واعلانه أنه قرر ارجاء السفر، ثم الابتسامة التي رافقت ذلك، بدا مؤكداً أن الأمر سيحسم في اليوم الثالث، وسوف يتم الاتفاق على كل شيء. وقدر عنان بسيوني أن الأمير يكون في حالة

نفسية أفضل، ويشعر بالثقة أكثر حين يأتي الآخرون لزيارته، وليس حين يذهب هو لزيارة الآخرين!

حتى ساعة متأخرة لم ينم الأمير تلك الليلة، والتلميحات التي بدرت منه، وهو يتحدث مع عنان، حول جمال الفتاة وتهذيبها، ثم تساؤلاته ما إذا كانت مناسبة أم لا، وتلك الزفرات التي يصعدّها، جعلت عنان يدرك أن في الأمر شيئاً لا يفهمه. فليس هذا الزواج الأول أو الأخير للسلطان، ولا يتطلب تمديد الاقامة والاتفاق على زيارة وراء أخرى، خاصة وأن المجموعة المكلفة بهذه المهمة وصلت قبل الأمير، وتنتظر الاشارة لكي تحمل العروس وتنطلق بها، كما في كتب الاحلام والمغامرات.

قال عنان، وهو يتثاءب، اعلاناً أن سلطان النوم قد غلبه:

- لننم يا طويل العمر، ولما يصبح الله بخير الصباح فإن لكل مشكلة حلها.
- نياله اللي يقدر ينام بعد هذي الليلة، يا عنان بك!

وبلهجة مصرية لا تخلو من استغراب ومرح:

- الله... الله ايه اللي جرى يا صاحب السمو؟

ولما صمت الأمير تابع عنان بجد:

لأ... اصبحت المسألة جد خالص!

وبانفعال أقرب الى العصبية اعترف الأمير أن الفتاة دخلت إلى قلبه، وأنه يجدها المرأة الوحيدة التي تناسبه، ولا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل. هل يواصل المهمة التي كلفه بها أبوه؟ هل يجرؤ أن يخطبها لنفسه، خاصة بعد أن جاء رسول من قبل وذكر أن السلطان يريدها؟ وماذا تقول الفتاة وماذا يكون رد فعل أهلها؟ وهؤلاء الابالسة الذين ينتظرون منذ أسابيع، والمستعدون للانطلاق في كل لحظة، ماذا سيقولون في موران، للسلطان، حين يرجعون؟

ومع أضواء الفجر الأولى، وقد استعاد عنان بسيوني يقظته، تبين له أن في الحياة أموراً كثيرة لا يمكن أن تفهم بسهولة، وأن القشرة التي تغلف سلوك



الانسان، تخفي، أغلب الأحيان، تحتها أموراً عديدة وبمنتهى الغرابة. فالأمير الذي رفض باصرار، بلغ حد النزق، أن يسمع من أحد، حتى والده، حديثاً عن الزواج، بعد وفاة زوجته الأولى، والذي يغرق في الصمت، وبعض الأحيان يسخر من أخوته، خاصة خزعل، لأنهم لم يجدوا شيئاً يفعلونه سوى الزواج مرة بعد أخرى، يكتشف الآن ان فنر لا يختلف عن الآخرين، وأن في دماء هذه العائلة شيئاً يستعصي على الفهم أو التفسير. استعاد صورة الفتاة، وتساءل ما إذا كانت تملك من المزايا ما جعله يهتز ويتغير بهذا المقدار.

قال للأمير، وهو يهز رأسه:

- لنترك الأمر للغد، وأن غداً لناظره قريب!

في اليوم التالي، وبطريقة حازمة تماماً، طلب عنان بسيوني من مجول العصيفير والمجموعة التي جاءت معه، أن يستعدوا للسفر خلال ساعات، وأبلغهم أنه تشاور في الأمر مع طويل العمر، وعليهم أن لا يقولوا شيئاً «لأن موران ستبلغ بالنتائج».

ولم يترك الأمر هكذا، اشرف بنفسه على سفر المجموعة، وأبلغ إدارة الفندق بدعوة العشاء، ولأن الأمير ظل نائماً أو مرابطاً في جناحه، ولم يشأ، أو لم يستطع، أن يكون مع الآخرين، فقد اختار ذلك الغروب في شهر حزيران، لكي يبلغه، وبشكل تقريري، أقرب إلى رواية قصة قديمة:

- ... ولقد أعطى خادمكم لنفسه الحق في أن يتخذ نيابة عنكم بعض القرارات، وأعتقد أن القرارات التي أُتخذت لن يندم عليها أحد طوال حياته...

وحين تطلع اليه الأمير بعينين تختلط فيهما الحمرة بالصفرة، وبدا أنه متعب وضجر، وربما أقرب إلى الحزن، تابع بلهجة أبوية:

لقد طلبت، يا صاحب السمو، من الجماعة أن يسافروا، وقد سافروا...

وتطلع الى ساعته، وأضاف:

- وقد مضى على سفرهم أكثر من ثلاث ساعات!

وبعد قليل وهو يبتسم:

- واذا سمحت لي، يا صاحب السمو، يمكن أن أسافر الآن، وسوف أكون قبلهم في موران، لكي أشرح لصاحب الجلالة السلطان الأمر بنفسي، وسوف يكون أسعد إنسان، لأن الشيء الذي تعب من أجل الوصول إلى تحقيقه، قد تحقق: لقد وافق سمو الأمير على الزواج...

وبعد أن نظر الى الأمير الذي كان فرحاً ومحرجاً معاً، قال وهو يقهقه:

- ولولا دعوة العشاء هذه الليلة لما رأيتني الآن هنا...

وحين تذكر فنر دعوة العشاء، وأصبح كله عينين تنظران وتتساءلان، قال عنان بسيوني بجد:

- المهمة الآن تقع على عاتق شخص واحد، تقع على عاتق صاحب السمو الأمير فنر بن خريبط، ولا بد أن يقرر وينتهي كل شيء الليلة!

وبعد قليل وهو يفرك يديه:

- وإذا اردتني أن أساعد في هذه المهمة، يا صاحب السمو، فأنا جاهز ومستعد تمام الاستعداد.

حتى بعد انقضاء سنين عديدة، وكيفما ورد ذكر استانبول، أو تركيا، وكان عنان بسيوني موجوداً مع فنر حين كان أميراً، ثم بعد أن أصبح سلطاناً، والتقت نظراتهما، فلا بد أن تمر على الشفاه ابتسامة، لأنها تقترن بالكثير من الذكريات، ولأن ذلك القرار الذي أُتخذ فجأة، وعلى مضض، لم يكن خطأ، ولم يخلف ندماً.

لا... يمكن أن يكون الأمر معكوساً تماماً. فلو لم يُتخذ ذلك القرار لسارت الأمور في مسارات أخرى. فالأمير الذي بدا حائراً، ثم مفتوناً، وأخيراً صار مغرماً، والذي أجّل سفره مرة بعد أخرى، ولم يسمح لمستشاره أن يسافر لكي يحسم الأمر مع أبيه، بل وأحس في بعض اللحظات بالخطأ والندم، وفي لحظات



أخرى بالقوة وضرورة أن يتخذ قراراً حاسماً، ثم يترك للآخرين أن يتخذوا نيابة عنه القرار الذي يعنيه وحده، يعتبر أن ذلك القرار بالذات هو الصحيح، ووحده الذي كان يجب أن يتخذ، بغض النظر عمن اتخذه، وبغض النظر عن التفاصيل الثانوية أو الصغيرة.

ليس ذلك فقط، فإن الأمور سارت ضمن منطقها الخاص أيضاً، فالسلطان الذي لم يقابل مجول العصيفير الا بعد ثلاثة وعشرين يوماً، إذ كان، أول الأمر، في البادية، ثم انشغل باستقبال وفود زائرة، جاءت للتهنئة بقيام الدولة الجديدة، ظن، وهو يستقبل مجول، أنه واحد من الذين جاءوا للسلام، وفي لحظة معينة تذكر، خاصة حين اقترب مجول ليبلغه أن عنان بسيوني طلب منه العودة. قال السلطان وهو يشد على يده:

- كل شيء صار معلوم يا مجول، وعسى يكون خير!

مجول العصيفير الذي أراد أن يشرح ويوضح، لم يجد الجو ملائماً، قال وهو يتراجع، وبعد أن عرف ما حصل:

- الله يقسم اللي به الخير، يا طويل العمر.

أما الأميرة الجديدة، الأميرة ثروت، والتي أصبحت جزءاً من حياة السلطنة الهديبية منذ اقترانها بالأمير فنر، وقد اعتبر الأمير، ثم أبوه السلطان، ذلك فألاً حسناً للسلطنة في عهدها الجديد، فكان لقاؤها بالأمير صدفة فرضت نفسها، ولم يخترها أحد، وحتى الأمير الذي لم يكن يفكر بالزواج، وجد نفسه أسيراً لحالة جديدة: حالة لذيذة وضرورية وكان يجب أن تقوم منذ وقت طويل.

لماذا حصل كل ذلك؟ أو كيف حدث بهذه السهولة وبهذا التوافق؟

النبع الأول الذي شرب منه الجد القديم، رفيفان، وطالما سمعت ثروت أباها يتحدث عنه، وظلت أمها تذكره، وتتذكر القصص التي حدثتها عنها بندر، هذا النبع سرت مياهه في الخلايا البعيدة فروتها، وجعلتها تتفتح وتنهض. لكن هل كانت مياه ذلك النبع هي التي دفعتها لأن توافق، ولكي تكون، مرة أخرى، جزءاً من عالم شديد التغير، سريع الانفجار؟ هل هناك شيء، في كل إنسان

يخبو، لكن لا يموت، ويظل هذا الشيء يحركه ويدفعه من مكان إلى آخر، حتى يعود إلى منابعه؟

هناك قوى غامضة، وإلى حد كبير مجهولة، وقد تنقضي سنوات كثيرة قبل أن يكتشفها الإنسان أو يعرفها، وهذه القوى هي التي تحرك وتغير، وأخيراً تدفع إلى حيث يجب أن يكون البشر.

عنان بسيوني، وهو يستعرض الأمور، كيف كانت، والأشخاص، كيف كانوا وكيف هم الآن يقول لنفسه بنوع من الحيرة: «الصدفة هي اخطر القوانين في التاريخ، إذ يمكن أن يترتب عليها تغيير المصائر والرجال والأنظمة . . . وحتى الحدود الجغرافية». يقول ذلك لأن الأمير فنر لم يتوقف عن التغير منذ السفرة الأخيرة. صحيح أن سفراته السابقة أثرت فيه، جعلته يتطور، ومختلفاً، لكن منذ أن جاءت هذه المرأة أصبح انساناً آخر. يحدث نفسه بقناعة واستغراب معاً: «الإنسان، أي انسان، يكتسب الكثير من التجارب والمعارف والأسفار، وتجعله باستمرار غير ما كان قبلها، أما أن ينقلب بهذا المقدار، فلا شيء يقوى على ذلك إلا الله والمرأة». ويتذكر كيف كان الأمير فنر محباً للعزلة والانطواء، وسابحاً في عالم من الخيال، ويتذكر أيضاً كلمات الطبيب البلجيكي، الذي جاء إلى موران، قبل بضع سنوات، وقد قام بفحص الكثيرين من أفراد أسرة السلطان، وكان هو الذي يترجم للطبيب ويحاوره. قال الطبيب يصف حالة فنر: «يعيش في أحلام اليقظة، ولا بد أن يحتك بالآخرين، لكي يتخلص من الحزن والامساك وكوابيس الليل» واضاف وهو يغمز بعينه: «وإذا تزوج مبكراً أفضل، لأنه إذا ظل هكذا يجهد نفسه . . .».

صحيح أن ذلك جزء من تاريخ بعيد، لكن آثار ذلك التاريخ ظلت باقية، وظل الأمير ميالاً إلى العزلة، وتعاوده، بين فترة وأخرى، أمراض غامضة، لا يعرف الأطباء كنهها أو أسبابها. أما الأدوية التي كانت توصف لعلاجه فكانت تؤذيه أكثر مما تفيده.

في السنوات الأخيرة، وقد تغير فنر كثيراً، وظهر للذين يعرفونه أنه غادر الحزن والعزلة، فما لبث أن عاودته بعض الأمراض اثر وفاة زوجته. ومع انه يصرف



وقتاً طويلاً في ادارة شؤون الحكم، واكتسب الكثير من التجارب والمعارف، الا أنه ظل رجلاً صعباً.

ورغم أن عنان بسيوني يعتبر الزواج سبباً للاستقرار والهدوء النفسي بالنسبة للكثيرين، فقد كان على يقين أن الزواج لا يتعدى المتعة العابرة بالنسبة للسلطان وأولاده وأقاربه، بل وكاد يعتبر ذلك قاعدة في موران كلها، ولهذا لم يتصور أن زواج الأمير حدث خارق. صحيح أنه بدا له هاماً، إستثنائياً لأغلب الذين عرفوا الأمير فنر، خاصّة من اخوته وأقاربه، الذين حاولوا اقناعه بالزواج من قبل، وكيف اتخذ ذلك الموقف الرافض، الأقرب الى النزق، الا أن الأمر ما لبث أن اصبح مألوفاً، ثم عادياً، ولم يعد أحد يأتي على ذكره، ما دام رد فعل الأمير هكذا!

بعض مسني العائلة من الرجال، الذين يسمعون الكثير، ولا يتكلمون الا نادراً، والذين يرقبون بعناية كل تصرف وكل حركة، وبعد أن سمعوا ورأوا كيف تغير السلطان بعد وفاة ابنه منصور، وبعد أن نقل الخدم والنسوة كيف يتعامل مع خزعل، وتذكر عدد منهم كيف أن خريبط ألّح على ضرورة تدخلهم من أجل اقناع فنر بالزواج من جديد، وأكد لهم أن فنر يعني له الكثير لكي تستمر الدولة والأسرة، وبالتالي قدرتها على مواجهة الخصوم والمنافسين والأحداث، فقد قال بعض هؤلاء أن خريبط لن يتردد في أن يجعل فنر سلطاناً بعده. المسألة مسألة وقت، ولكن ذلك لا بد أن يحصل. أما من كانوا أصغر سناً من هؤلاء، والذين يعرفون خزعل وفنر، فإنهم أكثر جرأة على أن يقولوا بصوت عالٍ:

- اللي يقدر يدبر الأمور بعد السلطان هو فنر، وإذا جاء خزعل الله يستر!

النسوة، في الجناح الغربي من قصر الروض، ورغم أن فنر بعيد أغلب الوقت، لم يكنّ يخفين قناعاتهن أن السلطان بعد السلطان هو فنر. وأمي زهوة التي كانت شديدة الغضب والنزق في الفترة الأخيرة، كانت تسأل عن فنر بمقدار ما تسأل عن السلطان، وحين كان يرد عليها أن فنر في العوالي، وقد تطول غيبته هناك، كانت تصرخ:

- الله من الظلّام، يريدونه بعيد حتى ما أحد يتذكره، لكن الله بالعين ما نشاف

بالعقل انعرف، وهذا فنر قدر ما يريدونه بعيد قريب، وبس يجي طويل العمر أسولفه وأقول له، ويشوفون!

موضي التي اختلفت مع زوجة فنر الأولى، وآثرت أن تبتعد، غضبت أكثر لأن فنر انتهى أو كاد بعد موتها. حاولت أن تصالحه، أن تقترب. زارته وبكت لموتها، واعتبرت أن كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد، لكن لما وجدته غارقاً في الحزن، لا يريد أن يكلم أحداً، أو أن يسمع من أحد، فقد عادت مرة أخرى إلى موران، دون أن تودعه، ودون أن يحس بها إلا من كان قريباً منها.

الآن، بعد أن تزوج من جديد، فقد حملت هدايا كثيرة وجاءت. كانت فرحة مثل طفلة، وكانت لا تقوى على اخفاء ندمها لما بدر منها سابقاً. أما العلاقة التي قامت بينها وبين ثروت، فكأن الاثنتين تعرفان بعضهما منذ وقت طويل، أو كأنما عاشتا معاً من قبل. وفنر الذي تمزق بين الحزن والعناد، وكان سفر موضي عاملاً اضافياً في الكآبة، وربما المرض الذي عانى منه، فإنه الآن، وقد رأى موضى تعود، واكتشف أنه يحبها أكثر مما كان يفترض أو يتصور، ورأى أيضاً أثر السنين التي مرت، فقد أحس بقسوته وخطأه، ولام نفسه انه كان عنيداً هكذا.

خالته مزنة التي جاءت لتهنئته بالزواج، ولكي تبذل جهداً جديداً من أجل اطلاق سراح خاله عمير، وكانت قد رأته قبل شهور وتراه الآن، فقد قالت:

- فنر هالحين مثل يوم ما كان عندنا، لأنه تصالح مع موضي.

وتتذكر أن فنر حين كانت تغضب منه موضي يمرض، ولا يقوى على الأكل أو النوم.

الآن، وقد عادت موضي، وبدت فرحة، راضية، ومنذ أن التقت نظراتها بنظرات ثروت، وعبّرت عن التعاطف ثم المحبة، وكان فذ قلقاً لاحتمال ألا تنسجم المرأتان، كما حصل مع زوجته السابقة، فلم يستطع أن يخفي انفعاله لهذا الود وذلك الانسجام.

همس في أذن ثروت في الليل المتأخر:

- ... موضي بالنسبة لي أكثر من أخت، كانت أختي وأمي.



قطمة، خادمة موضي التي لا تفارقها لحظة واحدة، قالت لإحدى صديقاتها، وقد لحظت التغير الذي حصل:

- ستي ولدت من جديد، ولا تريد أن تعطي فرحتها لأحد بعد أن تزوج سيدي من ثروت.

وموضي التي كانت على ثقة أن مثل هذا الزواج وحده يمكن أن يكون معقولاً ومرضياً، فقد كانت مثل أية أم حين تنظر الى الفتاة التي ستكون زوجة لابنها، إذ تبحث في شكلها وصفاتها عما يلائمها هي بالدرجة الأولى، قبل أن تعرف ما يلائم ابنها، لكنها، مع ذلك، لا تريد أن تعترف بهذا حتى لنفسها.

وثروت التي دخلت قصر الروض مذعورة، وكانت تجفل من أي صوت، وتخاف النظرات والهمسات، بل وندمت في لحظات معينة أنها وافقت وتزوجت الامير فنر، وأصرت على أن تبقى أمها الى جانبها، وأن لا تفارقها الّا حين تذهب لتنام، ما لبثت أن شعرت بالاطمئنان والراحة وهي تصل إلى العوالي، وتبتعد تماماً نظرات نساء قصر الروض وابتسامات الصبية والخدم.

قالت لها أمها، فريزة خانم، وهما تجلسان على شرفة قصر الهازعي، مقابل البحر:

- ... قد يكون الطقس في هذه البلاد قاسياً، لكن القسوة خارج القصر، وعليك ألا تفكري بالخارج، المهم الداخل، وداخل قلب فنر بشكل خاص.

تنهدت وبان عليها الحزن وهي تتذكر:

- ورجال موران بمقدار ما يبدون قساة، ولا يعرفون الضحك، أو كيف يفرحون، الا انهم، في لحظات كثيرة، يصبحون كالاطفال، ويريدون من المرأة أن تكون كل شيء بالنسبة لهم: ان تكون أماً وأختاً وعشيقة، ويجب على المرأة أن تفعل ذلك، وأن تكون كل ذلك، شرط ألا يحس أحد، حتى زوجها، وأن تفعله في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة!

ابتسمت وتلمظت، ثم تابعت وقد تغيرت نبرة صوتها:

- لم أتصور أنني سأكون قادرة على العيش مع أبيك خلال الشهور الأولى، كان دائم التجهم، شديد الحزن، وأغلب الأحيان، صامتاً، ولقد فكرت أن اتركه واعود إلى بيت أبي، لكن مع كل يوم يمر، ومن خلال الابتسامة والمداعبة، ومن خلال تقديم الخدمات الصغيرة، ومشاركته في أحزانه وأفكاره، ثم الاستماع اليه وهو يفضي إليّ بهموم قلبه، تغير. نعم تغير، أصبح انساناً آخر.

ابتسمت بحزن وتابعت كأنها تحدث نفسها:

- . . . وفي استانبول، وخلال فترة شهور طويلة، أصبح مرة أخرى انساناً صعباً إلى أقصى حد، لكن بمرور الأيام تغير. . . وحتى أصدقاؤه في موران الذي زاروه في استانبول، أكدوا له أنه يبدو الآن أصغر من عمره، وأكثر نشاطاً وفتوة مما كان عليه في موران.

هزت رأسها بحزن، وبعد قليل:

- أما حين سمعوا ضحكاته الصاخبة، ورأوا طريقته في الحياة والتصرف، فقالوا له: التركيات غير بنات موران. ولم يتردد بعضهم في ممازحته والطلب منه أن أدبر لهم زيجات مثل زواجه!

غيرت فريزةخانم جلستها، أعطت البحر كتفها والتفتت الى ثروت تنظر إليها بتحديد، وهي تتابع:

- والمرأة الذكية تستطيع أن تفعل كل شيء. المهم أن تعرف ماذا يجب أن تفعل ومتى. وهذا يتطلب، بالدرجة الأولى، أن تعرف زوجها: ما يحب وما يكره، كيف يفكر وماذا يريد. إذا عرفت ذلك وصلت إلى قلبه أسرع من البرق.

استدارت مرة أخرى نحو البحر، وعادت إلى لهجة الذكرى:

- لم يعرف أنني أعزف على العود وأغني إلا في وقت متأخر، لو عرف ذلك في البداية لظن الظنون، وربما لم نستمر. ان الشك بالنسبة لهم يعذبهم، وقد يقتلهم، لأنهم شديدو الغيرة، ولا يثقون بسهولة، لكنهم إذا وثقوا فإنهم يعطون كل شيء، ولا يترددون في أن يفعلوا كل ما تطلبه منهم.



ضحكت بصوت عالٍ والتفتت إلى أكثر من جهة قبل أن تتابع:

- في وقت لاحق، خاصة في استانبول، أصبح يردد معي بعض الاغاني التركية. كان يضرب على صينية الشاي، لكي يلتقط النغم ويشاركني الغناء. وفي أحيان كثيرة، وربما تتذكرين ذلك، كان يحمل إليّ العود لكي أعزف ألحاناً لأشعار يحفظها!

هل هو نفس الرجل؟ هل تغير بهذا القدر؟ وأنا. . . كم تغيرت أيضاً؟

تابعت دون أن تنتظر جواباً:

- بالتأكيد تغيرنا نحن الاثنين. أصبحت له وحده، وجعلته يصبح لي وحدي، والحياة تغيرت أيضاً.

ردت ثروت بضيق:

- ولكن فنر أمير، يا أمي، وأنت تعرفين أمراء هذه البلاد!
- انه رجل قبل أن يكون أميراً!

وابتسمت الأم بثقة وخرج صوتها عميقاً واثقاً:

- عند عتبات غرف النوم يترك الرجال ألقابهم وسيوفهم ونياشينهم، أما حين ينزعون سراويلهم فإنهم يتخلون عن قسوتهم وتحفظهم وخوفهم، ويصبحون أكثر استعداداً للفهم والاستجابة، شرط أن نقول لهم الشيء المناسب، وعلى دفعات تتناسب مع اهتزازات السرير!

احمّر وجه ثروت وشعرت بالحرج، لكنها لم تخف ابتسامة عبرت وجهها، مع التماعة في العينين، وكأنها كانت تتذكر ذلك تماماً، وشاركتها أمها الابتسام!

خلال فترة طويلة لم تفعل ثروت سوى أشياء قليلة: تتطلع الى فنر بإمعان، تراقبه، تسمع باهتمام كل كلمة يقولها. كانت تريد أن تعرف كيف يفكر وماذا يريد. في بعض الأحيان، حين يراها تنظر إليه، أو يحس بمراقبتها، تبتسم تعبيراً عن الاعجاب والغرام، فإذا سألها لماذا تتطلع إليه هكذا كانت لا تتردد في أن تحرك رأسها، أو تغمز بعينها، لكن بطريقة لا يمكن أن يخطىء فهمها، أو

دلالتها. وحين يكون الوقت ملائماً، لا تكتفي بهزة الرأس أو غمزة العين، كانت تجيبه بجسدها كله!

ويوماً بعد يوم: ما يحبه فنر تحبه. ما يريده يمثل أقصى أمانيها. تعودت ساعات نومه وساعات اليقظة. ليس لها طلبات خاصة، وتعجب بكل ما يفعله أو يقوله. كانت تبدي دهشة، تصل حدود الخفة، حين يقدم لها هدية. ومثلما تعودت، ومنذ أيام الصغر، أن تقبّل أمها لأية هدية تقدمها إليها، أخذت تقبله. صحيح أنه كان يبدي تحفظاً ظاهراً أول الأمر، ثم أصبح التحفظ خفراً، وانتهى إلى أن ينتظر القبلة اذا قدم إليها الهدية فانشغلت بها عن تقبيله. كان يقول بدعابة:

- ولا كلمة شكر؟

وتهجم عليه، تتعلق برقبته، تقبله على خديه، على شفتيه، فيحس أنها منحته أكثر مما قدم إليها.

أما الاشياء التي يفضلها، أما الأشخاص الذين يحبهم، فقد أصبحوا جزءاً من حياتها واهتمامها. لا تعرف النوم قبل أن يعود. وكثيراً ما وجدها، وهي بكامل زينتها، نائمة، أو بالأحرى غافية عل المقعد المقابل للحديقة التي يحبها. وكان هناك يفضل أن يتناول معها القهوة كل صباح.

لقد علمه هاملتون، أو بالأحرى أوحى له، وبطريقة غير مباشرة، أن جزءاً من محبة الشعوب لملوكها وامرائها، هو احساس هذه الشعوب أن أمراءها مختلفون، وأنهم متفوقون. وها هي ثروت تؤكد له ذلك.

قال له هاملتون ذات ليلة:

- يجب أن يكون الملوك والأمراء مثل الشمس: بعيدين وقريبين، في آن واحد. يجب أن يملأوا كل مكان، وأن يكونوا موجودين بكثافة، ودائماً فوق الآخرين، ولكنهم أيضاً عصيين على كل شيء، ويمكن أن يفعلوا ما لا يتوقعه الآخرون.

فنر الذي تعود منذ وقت مبكر عادات خاصة، وربما فرضتها العزلة، أو



الخوف من الآخرين، أصبحت هذه العادات جزءاً من حياته وسلوكه، وأصبح يختلف أيضاً عن الكثيرين. فإن يشرب أبوه القهوة مع جماعة كبيرة، ومنذ الصباح الباكر، لا يعني أن يصبح مثل أبيه، أو أن تصبح هذه الطريقة عادة يجب أن تتبع. فهو يفضل أن يشرب القهوة بملابس النوم، وحده، أو مع من يريد، ولا يريد أن يصبح واحداً من القطيع، كما قال هاملتون مرة، حين نهض أحد المدعوين الغاضبين عن المائدة، وجعل الآخرين ينهضون، تعبيراً عن الغضب، ولكي يشعر السلطان، أنه قادر وقوي مثله، قال هاملتون بدعابة:

- الانسان يأكل قدر ما يحتاج وقدر ما يريد، لا حسب رأي الشيخ أو حسب الامساك الذي في معدته!

وأضاف بعد قليل وهو يقهقه:

- أما القطيع فإنه يأكل حسب رغبة الراعي وحسب شراسة كلبه!

هذه الكلمات التي قالها هاملتون عرضاً انغرزت في عقل فنر ووجدانه، ولذلك، وبكثير من الإصرار والتحدي، أصبح يتصرف حسب ما يراه معقولاً ويناسبه أكثر.

صحيح انه يمتثل لعادات أبيه حين يكون معه، ويفعل ما يجب أن يُفعل، لكن إذا كان وحده، أو في مكان يمتلك حرية التصرف، خاصة إذا كان في العرين، كما كتب أحد الصحفيين واصفاً الأمير في العوالي، فإنه لا يفعل إلا ما يعتبره ضرورياً وملائماً. كان يكره تصرفات خزعل، وطريقته في التعامل مع الآخرين. فخزعل لا يفعل سوى تكرار ما فعله أبوه: الحركات، الكلمات، وبعض الأحيان لا يتردد في أن يقوم بأعمال سوقية، كأن يمازح أو يشتم. كان فنر يعتبر ذلك لا يليق بالأمراء. فإذا كان أبوه قد تعود مداعبة بعض الأشخاص الذين عرفهم منذ وقت مبكر، وإذا تمخط أو بصق، فلا يعني ذلك أن يفعل الآخرون مثله، لأن حياة السلطان، وأيامه، تختلف عن الحياة التي يعيشونها الآن، ولا يتطلب تكرار ما انتهى.

لقد بدر مثل هذا الاختلاف أكثر من مرة، لكن لم يصل إلى حد الخلاف.

كان فنر، أغلب الأحيان، ينظر إلى مثل هذه التصرفات بسخرية ويمضي. أما إذا أراد أحد أن يوقفه، أن يناقشه، فكان يرد بحدة:

- الواحد يدوّر على راحته...

وتتغير نبرة الصوت، تصبح أقرب إلى الغضب:

- ومثل ما قالوا من قبل: نم على الجنب اللي يريحك، ولا تنم مثل ما يريد الناس!

فإذا كان الحديث يجري عن طريقته في الأكل، فإنه ينبر:

- وأنا، إذا قطعت اللحم بالسكين، أضر أحد؟

وحين يكون الجواب المؤكد بالنفي يتابع بزهو:

- كل اللي يعجبك، وبالطريقة التي تعجبك، وألبس ما يعجب الناس، وسولف معهم بالكلام اللي يعجبهم!

فإذا ذكّروه بالبادية والعادات، كان يرد بسخرية:

- إذا كنت بالبادية، مع البدوان أسابقهم وأسبقهم، وأنتم تعرفون!

وهذه الصفة بالذات هي التي أعجبت فريزة خانم، ولفتت نظرها، منذ اللقاء الأول. وإذا كانت فريزة خانم، أول الأمر، بدت خائفة أو متحفظة، حين قال لها عنان بسيوني أن الأمير يطلب يد كريمتها، فقد أصبحت مختلفة حين استعادت الصورة والتصرفات. فقد ظهر لها الأمير زوجاً مناسباً، ولا يمكن أن يرفض، بل أكثر من ذلك بدا لها محبوباً. فبندر الرفيفان، رغم السنوات، ورغم أنه سمح لها بالتدخين، أو بالأحرى لم يمانع أن تدخن أمامه، فلم يكلف نفسه، مرة واحدة، عناء أن يشعل لها سيجارتها. كانت تشعل له سيجارته. كانت تهيء له أركيلته، لكنه لم يتنازل، أو لم يفكر، بأن يشعل لها سيجارتها مرة واحدة. فنر، لم يتردد في أن يفعل ذلك، بل ولم يتردد في أن يحمل لها طبق الفاكهة، ويعرض عليها، مرة، بعد أخرى، أن تختار.

قالت لعنان بطريقة لا تخلو من مكر:



- ولكنهم قالوا لنا أن العريس شخص آخر.

رد عنان بحزم:

- الذين قالوا أخطأوا، فصاحب السمو الأمير فنر، يسعده أن يطلب يد كريمتكم!

والأيام الثلاثة التي طلبتها فريزة خانم كمهلة، لتعطي بعدها كلمتها، والتي انتظرها الأمير فنر، كانت أياماً صعبة وقاسية. بل ووصل الأمر به إلى حد الندم ولوم النفس، لأنه سمح لنفسه، أو سمح للآخرين، أن يتصرفوا بهذه الخفة. لكن عنان بسيوني الذي استعمل ذكاءه وخفة دمه، وحزمه أيضاً، لكي يصل إلى نتائج ايجابية، لم يترك الأمور هكذا. ففي صباح اليوم التالي استأذن الأمير، لأنه مضطر للغياب لعدة ساعات، لكي يزور قريباً فقيراً في قرية غير بعيدة عن استانبول، وأن الواجب الإنساني يقتضيه أن يترك له بعض الدراهم. والأمير الذي وافق على أن يقوم عنان بهذه الزيارة، طلب منه ألا يتأخر!

بعد سنين عديدة، كانت فريزة خانم تشعر باللذة، حين تتذكر تلك الساعة، عند الضحى، وهي تجلس مقابل عنان بسيوني. كانت مترددة، قلقة، وأميل إلى إرجاء الجواب. فبعد أن حدثها بندر رفيفان مرات ومرات عن خريبط، امتلأت بالخوف والإعجاب معاً. وفي لحظات معينة تصورت بندر سلطاناً أو ملكاً، وأنها إلى جانبه الملكة، وكل العيون تتطلع إليها، تتابعها باعجاب. أما وإن كل ذلك قد انتهى، فإن الباب الخلفي يُدقّ الآن، ويأتي خريبط، أو من يمثله، لكي يتقرب منها، ولذلك فإن ما عجزت عن تحقيقه أو الوصول إليه، يتاح لها الآن، ولكن من خلال ابنتها، فيجب أن تستغله، أن تقبض عليه بيديها وأسنانها. لقد عاشت الفترة الماضية، منذ وصول مندوب خريبط وهداياه، وحتى الآن، وهي تهيء نفسها، لأن تكون أم الملكة، فهل تبدد حلمها وتتراجع لتقبل أن تكون ابنتها مجرد امرأة ضمن هذا العدد الهائل من النساء المنتظرات، ولا تعرف ماذا سيحصل كل واحد من الأخوة المتنافسين من ميراث أبيهم؟

قالت لعنان بسيوني، وخرجت كلماتها متلجلجة:

- ما فهمناه أن السلطان نفسه يريد ثروت!

رد عنان بمكر:

- صحيح أن السلطان يريد ابنتكم، ولكن لابنه فنر، يا فريزة هانم. . .

وتابع وهو يبتسم ويحرك رأسه ويديه:

- وأنت تعرفين، يا فريزة هانم، أن ابن السلطان سلطان بعد أبيه!
- ولكن أولاده كثيرون.

- السلطان لا يعتمد إلا على سمو الأمير فنر، وهو الآن نائبه وحاكم العوالي، وهو أحب أولاده إليه، ويعتمد عليه في الصغيرة والكبيرة!

وحين صمتت وقلبت شفتها، بدرت منه حركة وكأنه ادى كامل مهمته، وليس عليه الا الانسحاب، إيذاناً بأن كل شيء قد انتهى. تطلعت إليه بطريقة تريده أن يبقى، أن يواصل الحديث. أدرك. قال بنبرة جديدة:

- لا أريد أن أذكر ما حصل خلال الشهور الأخيرة: لم تبق امرأة، في السلطنة كلها، وفي بلدان أخرى غيرها، إلا وتمنت أن تكون زوجة لسمو الأمير فنر، وسموه، حتى أيام قريبة، لم يكن يفكر في الزواج، ولم يخطر بباله، لكن في هذه الحياة كل شيء قسمة، كل شيء صدفة، وعلى الإنسان الذكي ألا يفوّت الفرصة.

وبعد أن استفسرت فريزة خانم عن ترتيب الأمير بين اخوته، وعن المهمات التي يشغلها، وعن الأسباب التي دعت الأمير الى اختيار ابنتها لتكون زوجة له، وعنان بسيوني يفيض في الحديث والإشادة، ولم يتردد، في لحظة معينة، حين تأكد من اقتناعها، بأن يهمس، وكأنه يفضي إليها بسر:

- لو كنت مكانك، يا فريزة هانم، لما ترددت لحظة واحدة، لأن المرأة التي ستكون زوجة سموه ستكون أسعد امرأة في العالم!

حين تتذكر فريزة خانم الجلسة، والحوار الذي جرى خلالها، تقول لنفسها، ولا تتردد في أن تقوله لثروت: الفضل كله لعنان بك، نصيحته كانت من قلبه،



والله، سبحانه وتعالى، أعطاه على نيته، لأن كل من يوفق رأسين على مخدة له عز الدنيا وجنة الآخرة».

وفريزة خانم التي خافت من القرار الذي اتخذته، وظلت أياماً لا تنام، وكادت تتراجع بعد أن أحست بهول النقلة وبعد المسافة، لما تأكدت أنها ستترك استانبول إلى مكان بعيد ومجهول، حزمت أمرها وأعطت كلمتها في لحظة يأس، مع دمعة سبقت الإبتسامة!

وهي تصل إلى موران لم تزايلها مشاعر الضيق والخوف. أكثر من ذلك، بدت لها موران بلدة موحشة، أقرب ما تكون إلى تلك الأحياء البعيدة والفقيرة عن وسط استانبول، حيث لا يرى الإنسان سوى تلك الوجوه المتحفزة الخطرة، والمليئة بالنوايا الشريرة. ومع ذلك قررت الاستمرار والمقاومة.

قبلت نظرات الاستطلاع من نساء القصر بالابتسام، ولا يعرف ما إذا كانت ابتسامتها تشفياً أو دلاً، وهي تصطحب معها أكثر بنت بياضاً، وربما جمالاً، إلى موران، أم أن الإبتسامة كانت درعاً تحصنت وراءه لكي تتقي النظرات المكتشفة وغير الودية التي ترمقها بها النسوة.

قالت لثروت في الأيام الأولى، وقد لمست ضيقها وخوفها:

- سوف يتعودون على وجودك يوماً بعد يوم.

وبعد قليل، وكأنها تحرض نفسها:

- حين تبتسمين للآخرين تنتزعين منهم أقوى أسلحة المقاومة، كما تنتزع السنارة الصغيرة السمكة الكبيرة. أما الرقة مع الرجل فإنها أقصر الطرق إلى القلب.

وابتسمت وهزت رأسها، وكأنها تتذكر:

- لا تنسي ذلك أبداً، ولذلك يجب أن لا تخافي وأن لا تتضايقي.

قالت قطمة لموضي:

- . . . وهذي البنّية غير عن النساء يا ستي: تضحك من قلبها وتحب سيدي.

وبعد قليل وهي تبتسم:

ـ وحبتك يا ستي!

قال نصار حارس الأمير الذي لا يفارقه:

ـ كان يلزم تجينا هالكرجية من أيام وأيام . . .

وضحك ثم أضاف:

ـ من قبل، كانت كلمة صبحكم الله بالخير، أو مساكم الله بالخير، ما تطلع منه. هالحين: شلونك يا نصار؟ وعساك زين يا نصار؟ وما تريد شي يا نصار؟ والخوايا شلونهم وما يريدون شيء؟

وقهقه وقال لنفسه:

ـ اللهم اتمم علينا بخير!

رد بخيت الذي يصب القهوة للأمير:

ـ القول اللي تقوله يا أبو عزّيز. كان من قبل يهز الفنجال، وإذا تكلم قال: بس، هالحين صار رجال ثاني، غير شكل.

هز رأسه عدة مرات وخرج صوته همساً:

ـ فكفكته بنت الأوادم، وحتى لسانه العظم حلّته، وإذا ظلت عاتتّه، تراها، الله العليم، ما راح تخلي منه الا الجلد والعظم!

ـ لا تخف يا رجال، هذولا الكرجيات يعرفن وين الداء وكيف يداون!

وفريزة خانم عينان لا تتعبان: تراقب بدقة، تنظر إلى كل شيء بعناية، وما لا تستطيع أن تراه بعينها تلتقطه بأذنيها. وتحملها الذكرى بعيداً، تقول لثروت بحزن:

ـ . . . وكنت أعرف وقع خطاه في الظلمة وهو عائد من المقهى، وكنت أميز، من نظرة، ما إذا كان سمع شيئاً يفرحه أو يحزنه، وكنت أقدر أي الاكلات يشتهيها فاعدها دون أن أشعره، وكان يفرح بذلك ويزداد حبه لي.



وثروت، بمرور الأيام، لم تعد بحاجة إلى كل هذه النصائح، قالت ذات مرة لأمها، وهي تضحك:

ـ لا تخافي، ولم أعد صغيرة!

ولم تتوقف فريزة خانم عن ابداء الملاحظات، مؤكدة على ضرورة الانتباه والحرص. وثروت التي تسمع تبتسم، مع قناعتها أنها تجاوزت كثيراً الكلمات والنصائح التي تقال!

لم تتوقف رياح الصحراء عن الهبوب يوماً واحداً. كانت تهب قوية مرة، وهادئة رضية مرة أخرى، لكنها دائماً، وهي تهب، تدفع أمامها أشياء جديدة.

فالرياح التي هبت على السلطان في عين دامة أثناء عودته من الطريفة، وقد خيم في الناحية الشرقية، بناء لرغبة العجرمي، وليكون أيضاً بعيداً عن القلعة التي يطل منها خصمه الذي لا ينساه، عمير، جعلته ضيق الصدر عصبياً. وإذا كان قد احتمل اليوم الأول، والليلة الأولى، فقد طلب ظهر اليوم التالي أن تُشدّ الرحال. قال للعجرمي بمداعبة لا تخلو من غمز:

- عين دامة، يا أبو مشعل، ما تحملنا حنا الثلاثة، أنا وأنت وثالثهم...

وأشار إلى القلعة وهو يضحك، وبعد أن هدأ:

- والقضية الثانية: جانا طارش ان القناصل يريدون يقابلونّا بموران، ولا بد يكون عندهم سالفة، ويلزم نشوفهم.

العجرمي الذي حاول اقناع السلطان بفوائد مياه عين دامة، وتأثيرها المؤكد، كان حريصاً أكثر أن يقتنع ببقائه. قال له بانفعال:

- الأشياء الزينة، يا أبو منصور، والمجربة، مثل ما يريدها الإنسان لنفسه يريدها للي يحبهم!
- وكلّ الله، يا أبو مشعل، المهم، هالحين، تشد حيلك، وترجع لنا معافى وسالم.

وبعد قليل وبتعريض واضح:



- وحنا، الله يسلمك، يجي دورنا ونلحق عليها!

فنر الذي رافق أباه إلى عين دامة، وكان يتحين الفرص لكي يبحث معه أمر خاله عمير، وقد أرسل مبكراً لهذه الغاية عدداً من رجاله، لكي يقابلوا عمير في القلعة، لعلهم يقنعوه، فيعلن ندمه وتوبته، ويكون وجود السلطان مناسبة لإنهاء هذه المشكلة، فقد أبلغه الذين أرسلهم أن عمير نسي خريبط أو كاد، ولم تعد شتيمة فنر تترك لسانه. وأشار بعضهم، بحياء، وبكلمات غير مباشرة، إلى ما يردده، الأمر الذي أوغر صدر فنر، وصرفه عن بحث الموضوع. أما حين سأله أبوه عن «جماعة» القلعة، وقد سأل بسخرية، فكان رده سريعاً وجاهزاً:

- بعده ما تأدب، طال عمرك، لسانه طويل والشتيمة توّنسه.
- اذن خله متونس إلى أن ينقض!

عبد الله البخيت حين حاول العجرمي أن يمسك به ويجبره على البقاء، فقد همس بإذنه:

- الأحسن يا شيخنا امشي، لأني الوحيد اللي قلت لأهل موران أن شيخنا ظهره قوي، وما يشكي الاّ من صوابعه. ناظروا بوجوه بعض وقالوا: عبد الله ما يحكي الا الصدق، وغيره يكذب!

وبعد قليل:

- وإذا تركناهم، أنا وأنت، يا أبو مشعل، تراهم يسلقونّا، وما يخلون ستر مغطى، وبعدها يصدقون كل اللي ينقال لهم، الأخير أكون هناك، والقمّ كل ليئم، وكل صاحب لسان طويل، حجر!

وابتسم ثم قال وهو يترنم، لكي يقطع على العجرمي أية محاولة للضغط:

- وإذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وأن تدخل من الباب تهتدي

العجرمي الذي اضطرب، لأن الناس تتناوله بهذه الطريقة، سأل بحنق:

- وشنهو اللي يقولونه يا عبد الله؟
- أنت تعرف أهل موران، طال عمرك، إذا ما لقوا أحد يسولفون عليه

يسولفون على أرواحهم!

- الخنازير. . . أولاد الحرام.

ولكي لا يترك ابن البخيت مجالاً، قال وهو يرفع اصبعه مهدداً:

- بس ابد لا تدير بال، يا أبو مشعل، أنا وراهم واشعل موتاهم، وهم يخافونّا خوفه حية. . .

وتابع بعد أن جر نفساً عميقاً:

- الق العصا تتلقف كل ما صنعوا          ولا تخف ما حبال القوم حيات

قال العجرمي بهدوء وحزن:

- زين. . . زين ارجع ونشوف. . .

ثم بلهجة مهددة:

- بس اريد منك، يا عبد الله، تعلمني، لما ارجع، من هو اللي يقول وشنهو اللي يقوله!

- سوالف ليل يا أبو مشعل، وما تنشال من أرضها.

- لا. . . أريدك تعلمني.

- بسيطة، يا شيخنا، المهم، هالحين، تشفى صوابعك وتتعافى، وبرجعتك، بالخير والسلامة، لكل حادث حديث!

ولم تتوقف الرياح عن موران أيضاً:

شمران العتيبي في سوق الحلال يستقبل الرياح وأصحاب الرعايا والاخبار، فإذا كانت الريح غربية قوية يصدّ قليلاً، ويطلب من الذين حوله أن يعطوا ظهورهم لها، وأن يتابعوا ما يروونه من الأخبار، حتى إذا عرف ما حصل، وتذكر ما رأى وما سمع، تنحنح وخرج صوته صافياً قوياً:

- . . . وموران هي موران، الله خلقها بهذا المكان، وخلق ناسها، وما أحد يغير اللي الله خلقه.



ويتنفس بحزن، ويتطلع في الوجوه:

- الأسماء ما يخالف، هذي ما هي بينا وبينهم، يريدون يسمّون موران المنطقة الوسطى، أو المنطقة الشرقية أو الغربية، هذي يمهم، ما يخالف، بس شلون يقدرون يحوّلون احساب الناس وانسابهم؟ وليش يدورون على كل عظريط أو خصي أو ابن حرام ويحكمونه بروس العباد؟ وتترقبه العيون، تتابعه، فيحتذ:

- العجرمي. . . اذا احد سأله عن اسم أبوه يصفن، واذا سأله نوبة ثانية يقول: خلني أتفطن؛ راح يوم وجا التاني صار مفتي السلطنة. . . تركوا كل الناس، اللي يفهمون والأوادم، وقالوا له: أنت اللي تفتي وانت اللي تشور!

ابتسم بحزن وأسف، ثم تابع بتحذير:

- يلزم تاخذون بالكم يا جماعة الخير: اليوم لقيت جماعة من القصر وقالوا لي: من هالحين وصاعد، كل واحد ينسأل انت منين وما يقول هديبي يدفع جزا، فولفوا أرواحكم وفكوا اكياسكم إذا ردتم تحافظون على أصلكم!

قال أحد الذين يتابعون:

- يا أبو نمر: اللي ينسى أصله ما له أصل!

- يا ابن الحلال، حنا مع اللي يقول: كلنا عربان، كلنا مسلمين؛ أما اللي يقول: كل الناس ما لهم أصل، ويلزمهم يكونون لي تبع، لا بالله، البني آدم ما هو مقطوع من شجرة، كل واحد له أب واجداد، وكل واحد يصل إلى عدنان أو قحطان، فيلزم يعرفوا الناس ويلزموا حدودهم، والا انقلبت عليهم.

قال آخر:

- أي، يا أبو نمر. . . شنهي سالفة الشيخ العجرمي؟

- العجرمي؟ أبو مشعل؟

ويضحك ويهز رأسه ثم يتابع:

- هذا العظريط: شيخ الدنيا والدين، بدل ما يصلي ويصوم، ويلقى زاوية يلبد فيها ويتعبد، تعرفون وينه هالحين؟

وحين تتطلع إليه العيون بتساؤل، يجيب:

- أبو مشعل هالحين بعين دامة. وصفوا له ميّتها، قالوا له: تنعظ الذكر وتقوّى الظهر، فقال: لا غنى عنها ومالي غيرها، ولا بد هالحين العجمي يمسّده ويوسّده، وطويل العمر ينتظر فتاويه!

وفي سوق التجار، الذي اضطرب واهتز، نتيجة الاخبار عن احتمال سقوط العملات كلها، وأن ابن العليان جمع من السوق الذهب والفضة، ويريد أن يستبدلها بالنحاس والورق، فقد قال عثمان الأصقى، تاجر الرز، الذي لم يعد يبيع ويشتري كما كان يفعل أثناء حملات السلطان:

- الله لا يعلّيك يا ابن العلّيان، تريد تخرب بيوتنا بعد ما خربت الهند والسند؟

ولأن أحداً لا يجيب، ولا يشترك معه في هواجسه وأفكاره، فانه يتابع:

- الحق ما هو عليه، على خريبط، وكأن موران ما بها تجار، راح دوّر هنا وهنا إلى أن لقاه، قال له تعال: خرّب اللي بعده ما تخرب بهذي الديرة!

ويرفع يديه الى السماء ويصرخ بحسرة:

- الله لا يوفق اللي يضر الناس، الله يهدم ملكه ويهد حيله ويجعله أثر بعد عين!

خريبط الذي يسمع بعض ما يدور في سوق الحلال وسوق التجار، والذي كان يصل هذه الأسواق في أوقات سابقة، فيبدد الاشاعات، ويشرح ويوضح، فقد غاب تماماً وراء الأسوار في قصره، لا يريد أن يسمع الا ما يطيب له أن يسمعه، ولا يستقبل الا من يجب أن يراهم ويلتقي بهم.

ومثلما توارى السلطان وراء أسوار القصر، فإن الكثيرين، ممن كانت لهم



أدوار في المرحلة السابقة، تراجعوا أو تواروا أيضاً، وان تنوعت الأسباب واختلفت.

فالجفاء الذي بدر من السلطان تجاه بعض القادة، اضطرهم الى الانسحاب. والكلمات التي كانت تحمل السخرية والتعريض، وقد قالها عدد من رجال السلطان وبوجوده، ولم يعترض، بل وشارك في الابتسام، حملت عدداً من الشيوخ على أن يغادروا بسرعة، وبعضهم لم يكلف نفسه وداع السلطان. وقيل ان مهيوب اجتمع بمجموعة من الذين كان لهم دور بارز في المعارك الأخيرة، وقد سلمهم هدايا السلطان، وطلب منهم المغادرة والعودة إلى الاماكن التي جاءوا منها، وانتظار استدعائهم في فترة لاحقة.

أما البدو الذي جيء بهم من أماكن عديدة، ونظموا في مجموعات، حسب القبائل، وقد وعدوا بالكثير حين جُندوا، وكذلك الفلاحون والمزارعون الذين طلب منهم النزول من الجبال، أو جلبوا من الواحات والقرى، لكي يحاربوا، مع وعود لا تنفك تتزايد أنهم سينالون اضعاف ما كانوا يحصلون عليه من اعمالهم، وبعد أن حاربوا وحققوا النصر للسلطان، فقد اضطروا للانتظار اسابيع، صارت شهوراً، عند أسوار قصر الروض، لعلهم يحصلون على ما وُعدوا به، أو بعضه، إلى أن صرف أخيراً لكل شيخ راتب ثلاثة شهور عن كل «رأس»، وأعطى كل نفر ثوباً وحذياناً. وفي وداع كل مجموعة، وعلى مدى أسابيع، كان يقف مهيوب خطيباً، لكي ينقل إلى العائدين تحيات طويل العمر، وينهي خطابه بأن يقول:

- وطويل العمر يقول: يكثّر خيركم، والله يعطيكم العافية، وترجعون لأهلكم بالسلامة، ولا تنسوا، يا أولاد الحلال، الدعاء للسلطان بطول العمر والتوفيق.

ورحل أو توارى أيضاً كثيرون غير هؤلاء. فالدعاة الذين كانوا ينتشرون في كل مكان، وقد اجتمعوا حين انتهت الحملة الأخيرة في موران، فما لبث عددهم أن تناقص أسبوعاً اثر آخر، بعد أن توقفت المخصصات، وتعذر عليهم الوصول إلى نتائج، لأن العجمي تظاهر، خلال الفترة الأخيرة، أنه لم يعد يسمع، ثم سافر مع السلطان الى العوالي. ولما عاد السلطان ولم يعد، وقيل أن غيابه

سيطول، فقد آثر هؤلاء أن ينتشروا في الأرض، بحثاً عن الرزق.

وكذلك الخياطون وصانعو السيوف، وأصحاب حرف أخرى لها علاقة بالحرب. أما الحطابون وأصحاب الرعايا، والذين كانوا يرافقون الجند، أو يخيمون حول المعسكرات، من أجل تقديم الخدمات أو لتأمين الذبائح، فقد رجعوا إلى قراهم أو بواديهم، بعد أن رفعت المعسكرات وتفرق من كان فيها. كذلك الباعة الجوالون، والذين يجمعون البقايا، أو يبادلون على ما يفيض لدى الجنود... لقد عاد كل هؤلاء، وغيرهم أيضاً، إلى المدن أو إلى البوادي، لكي يبدأوا عملاً يؤمن لهم معيشة أولادهم.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالكثيرون الذين كانت لهم أعمال أو صلات، وكان يبحث عنهم باهتمام وإلحاح رجال السلطان، ما كادت الحملات تنتهي حتى نسوا تماماً، وزاد في تجاهلهم ونسيانهم أن عدداً ممن كانت لهم بهم صلة تركوا خدمة السلطان، أو نقلوا إلى أماكن أخرى، أو لم يعودوا حريصين على مثل هذه العلاقات.

باختصار: لم يبق شيء في مكانه، فالرياح التي هبت خلال هذه الفترة كانت قوية إلى درجة غيرت مواقع الكثيرين، أو اضطرت الكثيرين إلى تغيير مواقعهم، لعلهم يكونون أقدر على التكيف مع وضع لم تعد الحرب هماً من همومه.

وهذه الرياح لم تقتصر على مدينة أو منطقة، فقد طالت المدن الكبيرة والبلدات والدساكر، ووصلت أيضاً إلى أعماق البادية وإلى أعالي الجبال، بحيث لم يبق أحد إلا ووصلته أو تأثر بها. لكن أكثر من تأثر الفقراء، والذين تركوا أعمالهم السابقة، فاضطر أغلب هؤلاء إلى الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن الرزق.

والسلطان الذي لم يكن يترك لأحد أن يتصرف أو يقرر في الفترات السابقة، فقد أصبح انساناً آخر في المرحلة الجديدة.

كان في السابق، وأينما ذهب، يحمل معه ديوانه، ولم يكن الديوان سوى الأوراق في صناديق، وهي عبارة عن الرسائل والسجلات، إضافة إلى الأموال والاشياء الثمينة. كانت هذه الصناديق تزيد سفرة بعد أخرى، وتحملها جمال



مخصصة لها، وقد اكتسبت هذه الجمال، مع الأيام، صفات الصناديق التي تحملها. فإذا كان يراد التأكد، مثلاً، ان حامية عين دامة استملت رواتبها، كان ابن هجرس يصيح منادياً مسؤول الركائب، فيسأله عن احمال عين دامة، وهذه الأحمال تعرف من الجمل الذي يحملها، وقد أصبح يحمل اسم المكان ذاته. وفي صناديق عين دامة: اسماء المحابيس، وأسماء الخصوم والحلفاء، وعدد الجمال والأغنام في المنطقة، ومتى دفعت الضرائب آخر مرة، إلى غير ذلك من التفاصيل. أما المراسلات المتعلقة بابن ماضي أو بالانكليز، فانها كانت من الكثرة والتنوع، ومحمولة على عدد من الجمال، الأمر الذي تطلب من ابن هجرس لأن يعطي هذه المراسلات أسماء فرعية. ورغم أنه كان يعتمد، في الكثير من الأمور، على ذاكرته، إلا أنه اضطر في وقت لاحق لأن يخصص دفترا لذلك، ولأن يسم الجمال بوسم لا يعرفه سوى ثلاثة: هو ورئيس ركائب الديوان والمكلف المباشر عن الجمل.

هذا الديوان المثير للسخرية، والذي أصبح موضع تندر الكثيرين، خاصة ابن البخيت، كان السلطان يحرص عليه أشد الحرص. ورغم الاختلاف في تفسير حرص السلطان، اذ عزي إلى المال المحمول، فترة، وعزي إلى أهمية المراسلات التي تلقاها السلطان، أو إلى حاجته لمراجعتها بين مدة وأخرى، فإن لدى عدد من خدم السلطان قناعة أكيدة أن هذه الأهمية نابعة بالدرجة الأولى، وربما الوحيدة، من مجموعة الحجب الموجودة في صندوق «الأمانة»، والذي يُحمل على أحد الجمال المكلف به اثنان، والذي يسمى «الأمين».

كان صندوق الامانة الوحيد الذي يوضع في خيمة السلطان، وكان مفتاحه معه دائماً. وجوبير الذي ظل واحداً من أقرب العبيد للسلطان، ولم يكن يفارق خيمته، حتى مع أقرب الخلصاء، إلا إذا طلب منه السلطان بالذات، ذكر جوبير الذي التحق بابن ماضي، بعد أن أهانه خزعل وضربه، أن في هذا الصندوق مجموعة من الأشياء التي يحرص السلطان على أن يحملها: حجب متعددة الاستعمالات والفوائد عددها سبعة: ثلاثة بانياب لذئاب مسنّة مأخوذة من الجهة اليسرى؛ كمية من الاحجار الكريمة، استطاع أن يميز من بينها ثلاثة أنواع من الزمرد: حجر زمرد ذبابي، لونه أخضر صادق الخضرة، وهو يسمى كذلك، كما

قال فطين الذي يصب القهوة لابن ماضي، والذي كان يسمع القصة: لأنه شبيه بلون ذبابة خضراء. وحجر زمرد ريحاني، لونه بلون الريحان الأخضر النضير، وحجر زمرد شفاف ينفذ منه البصر.

وذكر أحد الذين سمعوا جوبير يروي عن الزمرد، أن رجلاً عجوزاً لا يكاد يرى، قال وهو يرفع رأسه إلى أعلى وكأنه يتذكر: «والزمرد يدفع العين، ويخلي البني آدم ما يخاف، ويقاوم السم، ويفرح القلب ويقوي البصر...». وكاد يضيف اشياء أخرى لولا أن ابن ماضي قاطعه وهو يضحك «ونسيت تقول: ويحيي الموتى».

وذكر جوبير أيضاً أن في ذلك الصندوق: سبعة كعوب أرانب، وحافر بغلة سوداء، وخصيتا ثور مجففة ومسحوقة، ومجموعة من الخطاطيف، وقد جُعلت كلها في اناء أزرق؛ وفي ثلاث زجاجات صغيرة دم ضبع؛ وفي الصندوق جلد ذئب وعليه قلب طير. وقد عرف جوبير ذلك من السلطان الذي قال له: «في هذا الصندوق ذخر الدنيا والآخرة» وامره أن لا يقترب منه أحد، وأن يوضع دائماً على يمين الخيمة، وأن يُسمّى بالله قبل النظر إليه، وأن يلمسه الإنسان بيده اليمين، إذا اقترب منه، أو حمله، أو فتحه. ولكي لا يخاف جوبير ذكر له السلطان عن بعض ما فيه!

كل هذا الحرص الذي كان يبديه السلطان تخلى عنه في المرحلة الجديدة. وماعدا «الأمانة» فقد ترك الصناديق الأخرى في عهدة عرفان الهجرس، الذي سُمّي في هذه المرحلة برئيس الديوان، وقد اختار عرفان لنفسه مكاناً إلى يمين ديوان السلطان، ووضعت الصناديق كلها هناك. كان حرص عرفان على معرفة زوار السلطان، والغاية من الزيارة، أكثر من حرصه على الصناديق. وانتقل هذا الاهتمام إلى الذين يعملون معه أيضاً، بحيث صدف كثيراً أن تُرك المكان خالياً ومشرع الأبواب!

وكلف السلطان أيضاً عدداً من الذين حوله بتصريف الأمور، فإذا كانت هوايته في فترة سابقة أن تُقرأ عليه رسائل أمراء المناطق، وإملاء الإجابة، فقد كلف عبد المحسن الساعدي بأمور الأوراق، وطلب منه أن لا يعرض عليه، وأن لا يسأله إلا حول الأمور الكبيرة. وعبد المحسن الذي لم يكن يميز بين الأمور



الكبيرة والصغيرة، اضطر أن يعتبر الأمور كبيرة أم صغيرة حسب مزاج السلطان، وبمدى امكانية أن تعرض عليه، اضافة إلى الوشايات والاخبار الخاصة!

وأنور عبد الغفار الذي اختاره فنر، ليكون «البريد»، كما سماه، والذي يحمل الرسائل بين العوالي وموران شهرياً، كان يحظى، في الفترة الأولى، بساعة من وقت السلطان، لكي يعرض عليه ما جدّ خلال شهر في العوالي، وليأخذ رأيه فيما يجب أن يعمل؛ لقد انتهى الأمر «بالبريد» بأن يرجع إلى العوالي، مع كلمة، غير مباشرة، نُقلت على لسان السلطان: «تصرّف، وأبلغنا النتائج».

وإذا كان خزعل قد اقترب كثيراً، في هذه الفترة، من موران، فقد كان شديد الدقة والحذر، لا يريد أن يرتكب خطأ يمكن أن يؤدي إلى عكس ما يطمح إليه، ولذلك بدا محباً، متواضعاً، لا يترك أحداً من العائلة الا ويتفقده ويسأل عنه. وهذا السلوك إذ أرضى الموظفين والخدم والمسنين في العائلة، فإنه أيقظ المخاوف لدى زوجات السلطان، ولدى الأبناء الكبار. أما الحروب العلنية أو غير المكشوفة، التي كانت تجري في أوقات سابقة، خاصة أثناء غياب السلطان، وكانت تتخذ عشرات الأشكال، وتتذرع بأوهى الأسباب، فقد بدأت تبرز مرة أخرى، وإن أخذت أشكالاً جديدة أو مختلفة.

راكان الذي كبر، وأصبحت له قوة وفرض وجوده، لأنه ابن فضة، وأكبر الأخوة الموجودين في موران، ولأنه أيضاً في قصر الروض، توصل، أو جاء من أوحى إليه، أو أقنعه، أن جوهر الصراع في هذه المرحلة، يتلخص بنقطة أساسية: من الأقرب إلى السلطان ومن يحميه؟ ليس هذا فقط، يجب أن تكون الحماية حاجة حقيقية وليست مجرد مظهر!

وتكررت القصة ذاتها: اثنان، لكن هذه المرة، من أقارب ابن مياح، قبض عليهما، وهما يرتبان محاولة لاغتيال السلطان، عن طريق عدد من الخدم والعبيد.

رتبت القصة بكثير من الدقة، مع تفاصيل وافية: المكان، الهدف، الأدوات، الطريقة، بحيث عندما عرضت على السلطان، وقد عرضها راكان وأمه معاً، وجيء بعدد من الشهود، ثم جيء بعائد العريني وذياب العقلة، المكلفين بهذه المهمة، واعترفا للسلطان، وقيل أنه طُلب منهما ذلك مقابل أموال كبيرة، ووعد

أن يطلق سراحها بعد فترة، عند ذاك أصبحت القضية بالنسبة للسلطان لا تحتمل الشك أو التردد.

أما ما تلا ذلك من اعدام الاثنين، اضافة إلى خمسة من العبيد والخدم، وهناك اعتقاد أن لاثنين من هؤلاء علاقة بخزعل، وقيل أنهما عيونه في قصر الروض، واعدام صويلح التركي الذي رتب العملية كلها، وكان قد وعد بمائة ليرة ذهبية وبأن يزوج بمريم التكرونية لقاء هذه الخدمة، ولقد تم اعدامه للتخلص من أي أثر... فإن أهم نتيجة تم الوصول إليها هي تسمية راكان رئيساً لحرس القصر، وبالتالي الشخص الوحيد المسؤول عن حماية السلطان، بما في ذلك الإشراف على شؤون القصر والديوان، والتأكد من صفة الزوار وأسباب الزيارة، إلى غير ذلك من ترتيب الشؤون الأمنية والاتصالات.

هذه المعركة التي اعتبرها خزعل موجهة إليه، وهزيمة له، تظاهر أنها لا تعنيه، بل أكثر من ذلك أشاع أن العبدين كانا يتجسسان عليه، وأنه نبه سلمان الأعرج إلى ذلك، وطلب منه أن يبلغ السلطان أو مهيوب، ولا يدري فيما إذا قام سلمان بذلك، لأن سلمان مات قبل ثلاثة أسابيع، في أحد حمامات القصر!

فقد صدف أن ثلاثة من الخصيان، اضافة إلى سلمان الأعرج، ماتوا مختنقين، في حمام القصر، ولا أحد يستطيع أن يؤكد أو ينفي، ما إذا كان ذلك الموت نتيجة الاختناق فعلاً، أم نتيجة اغلاق أبواب الحمام وضياع المفاتيح!

ان التفاصيل في مثل هذه الأمور تؤدي إلى متاهة حقيقية، ولذلك لم تمض أيام حتى نُسيت! واستمرت الأمور في القصر كما كانت من قبل، على الأقل بالنسبة لخزعل. أما راكان، الذي أخذ يعزز وضعه بوقت مبكر، فلم تزد تسميته رئيساً لحرس القصر، إلا إعطاء الاشياء أسمائها الحقيقية، والاعتراف له بالسلطة، التي من خلالها، يستطيع أن يفرض على الآخرين ما يشاء.

ولئلا يعتبر من تسول له نفسه أن السلطان أصبح متقدماً في العمر، أو ربما عاجزاً، ولكي يبقى موجوداً بقوة وكثافة، كان يروق له أن يخرج بجولة في



السيارة بين فترة وأخرى. وهذه الجولة تمتعه إلى أقصى حد. كان يخطط أين يجب أن يذهب، من يجب أن يرى، ماذا عليه أن يقول، وكيف يجب أن يتصرف. كانت هذه الأمور تشغله إلى أقصى حد: يتخيلها، يضع لها أكثر من احتمال، يفترض ماذا سيقول الآخرون وماذا سيكون جوابه، ويتصور رد الفعل، وكيفية الاستقبال!

ولأنه يسمع ما يقال، أو على الأقل بعض ما يقال، وكان أكثر ما يزعجه أن يتحدثوا عن تقدّمه في العمر، فقد قرر أن يرد عليهم بالطريقة المناسبة.

فإذا كان مظهره خلال الفترات السابقة يثير الاحترام، وكان يعتز بقامته المديدة، وقوته الخارقة، ويترك للآخرين أن يتحدثوا عن هذه المزايا التي لا تخفى على أحد، وكان يروق له أن يسمع من عيونه كيف يتحدث الناس عن طوله الفارع، وعن عدد نسائه، ويختلفون على عدد البنين، فقد كان لا يتوقف عن ارسال الرسائل التي تبرهن على استمرار هذه القوة، من خلال الزيجات التي يعقدها، ومن خلال المحظيات والعبدات اللواتي يزداد عددهن في قصره، وكدليل على هذه القوة، أيضاً، تلك الأفواج الجديدة من البنين والبنات.

سأل هاملتون ذات ليلة الأمير فنر، وكان السؤال بين الجد والمزاح، عن عدد أخوته الذكور، ومن أي الأمهات، وفنر الذي فوجىء بالسؤال، ودارت عيناه دورة سريعة، وكأنه يتذكر، أو يريد أن يكتشف ما يرمي إليه هاملتون رد بمرح:

- قبل ما أصل العوالي كانوا عشرين!

ابتسم، وبعد قليل:

- اما بغيبتي كم واحد جاء فعلمي علمك يا مستر هاملتون!

اعترض هاملتون بمرح:

- منذ وقت طويل اتفقنا، يا طويل العمر، أن هاملتون انتهى، فأنا الآن عبد الصمد.

- عفواً، استاذ عبد الصمد!

ابتسم هاملتون ثم حرك رأسه وتغيرت تعابير وجهه، وتساءل بخبث:

- هل أستطيع أن أسأل الأمير ما إذا كانت لديه الرغبة أو النية لأن يكون له أولاد مثل صاحب الجلالة السلطان؟

وحين بدا فنر محرجاً أو غير واثق، تبدلت سحنة هاملتون تماماً، قال وخرج صوته عميقاً:

- طبيعي لا يحق لي أن أتدخل في مثل هذه الأمور، ويمكن للإنسان أن يقرر بنفسه، لكن، مع ذلك، أعطي لنفسي الحق في أن ألفت النظر إلى ملاحظتين، الأولى: أن العائلة الكبيرة، خاصة إذا كانت من صلب واحد، يمكن أن تكون قوة، ويخشاها الآخرون. وأكثر العائلات، في فترات معينة، كانت تفاخر وتعتز بعدد أفرادها، وهذا التقليد لا يقتصر على هذه البلاد، لقد كان سائداً في أوروبا أيضاً، وكان نموذجاً لعصر بكامله، لكن طبيعة الحياة هناك والتطورات التي حصلت، فرضت صيغة جديدة: العائلة الصغيرة. ربما يكون الدافع اقتصادياً بالدرجة الأولى، لكن هذا ما حصل.

أما الملاحظة الثانية، يا صاحب السمو، فهي أن هذه القوة التي تتمثل بعدد الأفراد، فإنها تبلغ ذروتها في فترة ثم تبدأ تتراجع، لكي تصبح في فترة لاحقة مصدر ضعف. تكون قوية ومؤثرة بوجود رب الأسرة، وبمدى قدرته على التحكم وعلى الاستفادة من هذه القوة. أما في حال غيابه أو ضعفه، فإن ما يتولد نتيجة الصراع والنزاع والتنافس يمكن أن يؤدي إلى العكس.

هذه الفكرة التي طرحها هاملتون كانت تدور في ذهن فنر. صحيح أنها غائمة متداخلة، أو لم تكن بهذا الوضوح. وكانت أيضاً تعليقاً على ما نقله «البريد» أنور عبد الغفار أثناء زيارته الأخيرة لموران، وكيف أن الكثيرين يتحدثون عما جرى في القصر، وكيف أن راكان أصبح الشخص القوي، وأن عدداً من رجال خزعل قد أعدموا.

وكان يريد من طرح الفكرة أيضاً أن يهيء فنر نفسياً إلى ما يجب أن يفكر فيه ويقرره في يوم من الأيام.



قال كأنه يحدث نفسه:

- ومع ذلك فإن العادات والتقاليد في الشرق تختلف عن أوروبا، عن أماكن أخرى، ولذلك ما حصل في تلك الأماكن لا يعني أنه سيحصل هنا.

تساءل فنر بمكر لا يخفى:

- صحيح أن التقاليد تختلف، لكن الديانة المسيحية، كما أعرف، يا مستر هاملتون، تحرم تعدد الزوجات أليس كذلك؟

ابتسم هاملتون وأجاب:

- يمكن للمستر هاملتون، المسيحي السابق، أن يجيبك، لكن أرجو ألا تنسى، مرة أخرى، انني عبد الصمد...

وقهقه، ثم بعد قليل:

- نعم، لا تجيز المسيحية تعدد الزوجات...

تنفس بعمق، ثم أضاف بمكر:

- وتمنع الطلاق أيضاً.

رد فنر بمرح:

- وحدة بوحدة، يا أستاذ عبد الصمد، وبالتالي الزواج الواحد اما ان يكون نعيماً مطلقاً، أو جحيماً مطلقاً، والإنسان وحظه!

قال خزعل، وهو يستأذن أباه في السفر إلى الحويزة، ليزورها ويتفقد أحوالها:

- ... وتعرف البدوان، يا طويل العمر، إذا الواحد ما مرّ وسأل ياخذون على خاطرهم، فقلت لنفسي ما دمت أنت مشغول أمرّ بهم واسأل عنهم وأبلغهم سلامك.

رد السلطان بمرح:

- الشباب ما يتبعون، ولما كنا بعمركم، يا وليدي، ما بتنا بمكان ليلتين، فعلى

خيرة الله، ولا تنسّ تسلم على الكبير والصغيّر، وانشاء الله بس تخلص شغيلاتنا من بدّ ولازم نزور كل المناطق، ونسأل ونتفقد الجميع.

وقال خزعل لزيد الهريدي:

- ويلزمك تتذكر كل اللي صار بهدي الأيام، ويلزمك تذكرني.

واستمرت الرياح تهب. مرة تكون قوية، وأخرى خفيفة، لكن يوماً لا يشبه الآخر في السلطنة!



في مواجهة الرياح الشرقية التي تهب من جهة الصحراء، كانت رياح البحر تهب من الجهة الأخرى. وعند سفوح جبال الصد، العالية الممتدة، وفي الأودية العميقة، كانت رياح الصحراء ورياح البحر، والتي لا تتوقف عن الهبوب معظم أيام السنة، تلتقي. وهناك، وهي تتواجه لأول مرة، تتصارع، تلتحم، تتقدم وتتراجع. كانت تفعل ذلك دون توقف، غير آبهة بالحواجز والعلامات التي وضعها البشر، كما لا تعترف بالرغبات أو الأمزجة، حتى إذا تغلبت ريح على ريح، فوصلت رياح الصحراء إلى العوالي، أو واصلت رياح البحر طريقها إلى ما وراء جبال الصد، فإن أمزجة الناس الذين تصلهم، وتصرفاتهم، وحتى أخلاقهم، تكتسب صفات جديدة، تظهر واضحة في التعامل والنظرة، وتبقى كذلك إلى أن تأتي الرياح الأخرى فتغيرها!

ثروت الرفيفان، التي بدت خائفة، ثم عصبية، في موران، لم تلبث أن شعرت بالثقة، والقوة وهي تصل إلى العوالي، وتواجه البحر. لقد ذكّرتها الطريفة، ببحرها الأزرق الممتد، باستانبول والبسفور، فشعرت بالرضى والامتلاء، لكن مع هبات رياح الربيع ثم الصيف، وتغير النوء، اختلفت. وجدت نفسها، من جديد، وفي الطريفة هذه المرة، محاصرة، ضيقة النفس.

قالت لها أمها، فريزة خانم:

- المسألة ليست لها علاقة بالحرارة أو الريح، وانما لها علاقة بشيء آخر!

وثروت التي فهمت ما تعني أمها، لا تريد أن تعترف. ردت بنزق:

- المسألة أكثر. . . ماما!

فتحت فريزة عينيها بخوف متسائل، تابعت ثروت:

- يريد أن يسافر ويتركني.

قالت فريزة وهي تضحك:

- الرجال يسافرون، يا بنيّتي. دائماً يسافرون، وقد يغيبون شهوراً طويلة. . .

هزت رأسها ثم بعد قليل وقد تذكرت صوراً معينة:

- كان بحارة استانبول، في بعض الأحيان، يغيبون عن زوجاتهم شهوراً طويلة، أو ربما سنوات، وكانت المرأة الحامل تلد وتربي، حتى إذا عاد الزوج رأى في بيته رجلاً آخر، وبدل أن يخاصمه يؤاخيه. هكذا النساء في كل مكان.

بعد أن نطقت بهذه الكلمات الحكيمة، ولا تعرف كيف خطرت لها، سألت ابنتها:

- وأين سيسافر، ومتى سيذهب ومتى سيعود؟

ردت ثروت من بين دموع ملأت عينيها فجأة، وكانت هذه الدموع نتيجة الضيق والألم والغثيان:

- لا أعرف. . . ماما. . .

وبعد قليل:

- حين طلبت منه أن يأخذني معه ضحك، وقال أن ذلك مستحيل. فلم أسأله ولا أعرف كم سيغيب!

قالت فريزة بقسوة:

- نعم يجب أن يسافر الرجال دون زوجاتهم. . . بعض الأحيان.

وبعد قليل وهي تبتسم بسخرية:

- إن ذلك مفيد للرجال والنساء معاً: الرجال يكتشفون أن الأسرّة التي كانوا



ينامون عليها أكثر دفأً، وفيها وحدها يشعرون بالأمن، لأن الأسرّة الأخرى اذا امتلأت، فمثل امتلاء اليد بالماء، فهذا الماء يهرب باستمرار ولا يروي. والنساء، لأن الأشياء الصغيرة التي تعنيهن وحدهن، ويجب ألا يشغلن الرجال بها، يمكن أن ينتهين منها ما بين سفر الرجال وعودتهم!

ردت ثروت بألم:

- وكيف يتركني وأنا في هذا الوضع؟

- لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلك، يا صغيرتي. أنت وحدك التي تستطيعين: ان تعطيه ولداً حين يعود. وهذا الولد يمكن أن يربطه، أن يجعله يفكر ويتحمل، وأن يتغير أيضاً!

قالت ثروت وهي تحاول أن تمنع نفسها من التقيؤ:

- ولكن كيف أستطيع تحمل كل ذلك وحدي؟

- الأفضل، يا صغيرتي، أن تتحمليه وحدك، لأن المرأة خلقت من أجل هذا، أما إذا أرادت من الرجل أكثر، أو حاول هو أكثر، فإنه يتظاهر، وهذا التظاهر لا بد أن تدفعي ثمنه في وقت لاحق، ولذلك لا أريد أن تكوني بلهاء إلى هذه الدرجة.

تنفست فريزة بما يشبه التنهد وقالت كأنها تحدث نفسها:

- ولقد ذكروا لي أن النساء في هذه البلاد لا يبّلغن الرجال بالحمل، لا أعرف لماذا، وحين لا يستطعن اخفاء ذلك يشعرن باحدى حالتين: إما بالفخر أو بالخجل. أما إذا حانت ساعة الوضع، فإن المرأة تصبح تماماً مثل الكثير من الحيوانات: تريد أن تحل مشكلتها بنفسها، ولذلك لا تكون بحاجة إلى مساعدة أحد، أو حتى إلى معرفة أحد، انها تذهب بعيداً عن العيون لكي تنهي هذه المشكلة!

وضحكت ثم أضافت:

- أما إذا عادت وعلى يديها ولد، فإنها تكون فخورة، قوية، وينظر إليها زوجها بكثير من الإكبار والمحبة. صحيح انه ينظر بسرعة إلى الولد، لكي يكتشف شبهاً من نوع ما بينه وبين هذا المخلوق الذي لا يعرف من أين جاء أو كيف، لكنه أيضاً يشعر نحوه بالمحبة، ويشعر نحو زوجته بالامتنان.

استراحت فريزة وربما مرت في ذاكرتها صور كثيرة، ثم بعد صمت:

- الأفضل أن يسافر...

وضحكت بسخرية، وقالت:

- إذا قرر الرجل السفر يجب أن يسافر، والأفضل أن توافق المرأة. أما إذا اعترضت، وسافر، فإنها تخسر نفسها، وإذا لم يسافر، بناء على رغبتها، فلا بد أن يخسر نفسه. وفي الحالتين فإن هناك خسارة يجب ألا تقع...

وهزت في وجهها يدها كلها وهي تضيف:

- هذا عن الرجل العادي، أما إذا كان أميراً أو ملكاً، خاصة من هذه البلاد، فإن الخاسر الوحيد هو المرأة، فاحذري تماماً، ويجب ألا تكوني حمقاء إلى الدرجة التي تخسرين فيها كل شيء!

هذه القصة حصلت في وقت مبكر ونُسيت، وربما كانت بسبب الضيق وعدم المعرفة، أكثر مما كانت للاختبار، لأن مثلها لم يتكرر، ولأن فنر لم يتوقف عن السفر، سواء داخل السلطنة أم خارجها. وإذا كانت ثروت قد أحست، في لحظات معينة، أنها وحيدة، أو غير مفهومة، فإنها بمرور الوقت تعلمت أشياء كثيرة، وأصبحت امرأة مختلفة، وساعدت أيضاً في أن يكون فنر إنساناً آخر.

صحيح أن ذلك كلفها جهداً كبيراً، لكن تلك الروح التي ورثتها عن أمها جعلتها تصمم، ثم مكنتها من الوصول بعد ذلك.

قالت لها أمها، ذات يوم، وقد رأتها تضرب الطفل بقسوة، لأنه يبكي ولا تعرف سبب بكائه:

- حين تضرب الأم أولادها، أو حين تصرخ في وجوههم، دون مبرر كاف، فلا



بد أن يكون السبب في الأم قبل أن يكون في الأولاد... نعم في الأم وفي الفراش بالذات!

وضحكت فريزة لأنها تذكرت أمراً، وبعد قليل:

- قالت لي امرأة مسنة، كانت من قريبات جدتي، وقد حصل ذلك قبل سنوات طويلة: على المرأة التي تحس أن زوجها لم يعد يحبها، أن لا تبحث في ثياب الزوج عن رائحة امرأة أخرى، أو أثر من آثارها، عليها أن تبحث في مكان أقرب...

والتفتت فريزة خانم، لكي تتأكد أن لا أحد يسمعها، وهمست:

- نعم، عليها أن تبحث في مكان أقرب بكثير: في سريرها، في ثيابها، أو ربما عليها أن تبحث في سراويلها. لأن عدم اقبال الرجل لا يعني دائماً أن امرأة أخرى دخلت حياته، وإنما لأنها هي لم تعد امرأة بالمقدار الكافي، أو لم يعد زوجها يرى فيها المرأة التي يشتهي!

وضحكت وقد تغيرت نبرة صوتها:

- وكانت تلك العجوز تقول، وهي تهرش رأسها: «اخطر شيء في هذه الحياة، بعد الله والمال، هو السروال: إذا كانت دكته قاسية أتعب، وإذا ارتخت دكته أشقى وأتعب». ولم تكن تقصد سروال المرأة وحدها، إنما وسروال الرجل أيضاً.

ابتسمت فريزة خانم وهزت رأسها عدة مرات. مرت في ذاكرتها صور لا حصر لها. كانت ثروت لا تزال متجهمة، وتعتبر أن جزءاً من الحديث، رغم أهميته، زائداً. قالت الأم وهي تنظر إلى عيني ابنتها تماماً:

- وقدرة المرأة غير قدرة الرجل. المرأة، في يوم، يمكن أن تتعلم ما لا يستطيعه الرجل في سنين، لأن المرأة تدفع ثمن كل ما تتعلمه، أما الرجل فإنه يؤجل الدفع، وقد يوافق على أن يدفع عنه الآخرون. وفي حالات كثيرة فإن ما يتعلمه صدى لأوهام أو لأحلام غيره. أن ذلك لا يحصل مع المرأة، فهي

وحدها التي تقرر حين ترغب وتريد، ومستعدة لأن تدفع ثمن القرار التي تتخذه.

وعادت فريزة خانم من رحلتها، فتغير صوتها، أصبحت امرأة أخرى:

- والنوم غير المريح، يا ثروت، يؤدي إلى النرفزة وأمراض المعدة...

وبعد قليل، وبرجاء:

- وقرب الولد من أبيه، خاصة في مثل هذا العمر، لا يؤدي إلى محبته أو زيادة تعلقه به، ربما العكس هو الصحيح. فالأب يريد أن ينام، ويريد أن تكون إلى جانبه امرأة لا مرضعة، فلذلك اتركي لي الطفل الصغير واهتمي بالطفل الكبير!

وثروت التي كانت غاضبة، وكانت تستمع لأمها مضطرة، اكتشفت، فجأة، أن أمها تقول شيئاً مهماً. بل أكثر من ذلك اكتشفت أنها لا تعرف أموراً كثيرة في هذه الحياة. لقد اعتقدت أن الليلة الأولى، إذا اجتازتها كما ترغب، فإن كل الليالي بعدها أسهل منها؛ وبعد أن اجتازت تلك الليلة، وليالي أخرى غيرها، وبدت متأكدة وواثقة، اعتبرت أن مجيء الطفل يجعلها في مصاف جميع الأمهات، ولن تكون أم، حتى أمها، أكثر معرفة منها. الآن تكتشف، أن العمر وحده هو ما يجعل الإنسان أكثر ادراكاً، ولذلك، فإن تلك العجوز، أو أمها، أو أي عجوز أخرى، تعرف ما لا تعرفه هي.

أخرجتها أمها من الأفكار:

- الأطفال لا يبكون دون سبب.

ردت ثروت بحدة:

- ولكن أكل ونظيف، ولا يحتاج إلى شيء.

ضحكت فريزة وقالت تحدّث نفسها:

- إذا لم يبك الأطفال من الجوع والألم، فلا بد أن تكون عندهم أسبابهم...



وبعد قليل، وبسخرية:

- ربما يريدون أن يصبحوا ملوكاً أو أنبياء بسرعة، ويحسون أن الزمن يسير على غير ما يشتهون أو يحلمون، ولذلك يحتجون بالبكاء!

ردت ثروت بغيظ:

- ماما... لا تسخري مني.

قالت فريزة بصوت بطيء وواثق:

- حبيبتي... أرى أن تهتمي بالطفل الكبير، وأن تتركي الصغير إليّ، لأنك لا تستطيعين أن تعتني بالاثنين معاً.

قالت ثروت وهي تدير وجهها بعيداً عن عيني أمها:

- ماما... الخدم، كما قال لي كل الذين سألتهم، يفسدون الأطفال، وأنا أريد أن أربي ابني كما أشاء.

قالت فريزة خانم، وخرج صوتها من صدرها، وكان حاداً:

- أنا التي أريد أن أربيه، وأنا لست خادمة، ولست صغيرة.

ولم تتأخر ثروت في فهم هذه اللهجة، خاصة وقد اختبرتها منذ أن كانت صغيرة. إضافة إلى أن قصة تلك العجوز والسراويل التي تحدثت عنها، أعجبتها، أو بالأحرى وجدت أن لها معنى يفوق ما افترضته. ولذلك تركت لأمها أن تهتم بالطفل، وانصرفت هي للطفل الآخر!

كتب هاملتون في مذكراته «... والغريب في أمر الشرقيين أنهم مفتونون بالحديث عن الجنس إلى أقصى حد، وربما أكثر من ممارسته. لا أريد أن أزعم أنهم لا يمارسون بالمقدار الكافي، أو أن الحرمان الطويل يجعلهم هكذا، ان في الأمر ما يستعصي على التفسير البسيط. انهم، بعض الأحيان، يقضون الساعات الطويلة، وربما سهرات بكاملها، وهم يتحدثون في هذا الموضوع بالذات. لا فرق بين غني وفقير، بين شاب ومسن. بل أكثر من ذلك: ان الرجال الذين

يعرفون كيف يتحدثون في هذا الموضوع يتمتعون بمنزلة تفوق غيرهم، ورغم أنهم يكررون القصص ذاتها، دون أية اضافات أو تفاصيل جديدة، فإن الآخرين يستمعون بشغف، وكأنهم يسمعون هذه القصص للمرة الأولى. تظهر الشهوة في عيونهم، في حركاتهم. وتصدر عنهم، دون شعور، أو دون قدرة على التحكم، أصوات أو تصرفات تثير الدهشة والاستغراب.

بل أكثر من ذلك، يمكن للإنسان أن يستنتج دون عناء، أن في الشرقيين ميلاً واضحاً ليس إلى الجنس وحده، وإنما، بنفس المقدار، إلى الظلال والطقوس التي تحيط به وترافقه. وفي حالات عديدة تكون الظلال والطقوس أكثر أهمية. هل لذلك علاقة بمفهوم الخصب، أو بالآلهة الانثى التي سادت خلال فترة من التاريخ؟ وهل يجوز أن العطور والبخور وتلك الأغاني والأشعار التي يرددونها، تعطي للأمر هذه الأهمية؟

قد أكون مخطئاً أو متسرعاً في استنتاج أحكام دقيقة أو كلية، لكن ما بدا لي، حتى الآن، ملفت للنظر ويثير التساؤل والحيرة.

السلطان، مثلاً، لا يتردد في أن يقضي الساعات الطوال لكي يسمع قصة، ربما تكون ملفقة، أو مليئة بالأوصاف والخيالات، رغم أن ما عنده من النساء، من حيث العدد أو الجمال أو التنوع. يفوق ما يسمعه بعشرات المرات. هل لذلك علاقة بالشعر؟ هل لذلك علاقة ان تراث هذا الشعب يعتمد بالدرجة الأولى والأساسية على الاذن، قبل أن ترى العين أو تختبر الحواس الأخرى؟

ان في الأمر ما يتطلب التفكير والتأمل.

صحيح أن في أدبنا وتراثنا، منذ أيام روما، وحتى الآن، الكثير حول الجنس، لكن الفرد العادي في بلادنا، في أوروبا عموماً، لا يشغل نفسه ولا ينشغل بالجنس إلى هذا الحد أو بهذه الطريقة. وحتى ما يقال عن السلاف، وذلك الوله بالجنس، فانهم يمارسونه، وبكل حواسهم، أكثر مما يتحدثون عنه.

إذا قيّض لي فائض من الوقت فلا بد أن أبحث هذا الموضوع، من خلال أسئلة مباشرة ومحددة، وصريحة أيضاً، لمن أثق بهم، ولمن يثقون بي، واعدهم أن



أخفي أي إشارة أو دليل، فقط أريدهم أن يحدثوني بصدق في هذا الموضوع بالذات».

وفي وقت سابق كتب هاملتون في يومياته ما يلي: «. . . زواج فنر أمر جيد. عندما لا تكون المرأة موجودة، يصرف الرجل وقتاً مضاعفاً في التفكير فيها واستحضارها، ثم اغرائها لاقناعها، وأخيراً إذا وصل إلى نتيجة، فهي مؤقتة، وتضاعف همومه في النهار، ولذلك يصبح صعباً.

لا أريد أن أضع معادلات أو قواعد، لكن ما لاحظته أن فنر أصبح الآن، وبعد أن تزوج، أكثر ليونة وأكثر استعداداً للفهم. كان ليناً من قبل، وكان فهيماً، لكنه كان أيضاً مثل الآلة التي تحتاج إلى التزييت والدوران. انه الآن شخص آخر: أقل تجهماً، محب للحديث، وانتاجه أفضل بكثير من قبل. ربما كان جزء من طاقته يذهب هدراً نتيجة الحزن أو لانشغاله بأفكار وخيالات.

قيل لي: إن الشرقيين يتهيبون الزواج في البداية. انهم يترددون، وتتملكهم الحيرة، وقد يؤجلون الزواج مرة بعد أخرى، في محاولة للهرب، لكن بعدما يكتشفون كم كان سهلاً وجميلاً ومثيراً، فانهم يستمرؤن الزواج الثاني، ثم أي زواج لاحق، وقد لاحظت أن الذين يتزوجون مرتين من السهل عليهم أن يتزوجوا مرات أخرى، ودائماً لديهم الأسباب الكافية، على الأقل لاقناع أنفسهم!

أصبحت مقتنعاً الآن أن زواجه كان ضرورياً، وأقدّر أن الزواج، بصورة عامة، ضرورة، لكن لا أعرف إلى أي مدى يمكن أن يكون مثل الآخرين أو مختلفاً عنهم. خاصة وأن لدى العائلة في التراثمن هذا المجال ما يجعل الزواج بواحدة ضرباً من المستحيل، عليّ أن أراقب لأعرف المزيد».

. . . والعوالي التي ظلت تستقبل السفن والغرباء والأخبار، وامتلأت ذاكرتها بكلمات الحكام، ما قاله الأتراك، ثم من بعدهم ابن ماضي، وأخيراً ما قاله خريبط، مع وعوده وسيوفه، ورأت الملوك والقادة يأتون ويذهبون، ومع كل ملك وقائد: الموت والحصار والجوع، فقد كانت متأكدة أن الذين يحكمون، خاصة من يأتون حديثاً، لا يعنون دائماً ما يقولون. أما الوعود التي يطلقونها فهي لكسب الوقت وإلهاء الناس، أكثر مما هي جدية أو للتنفيذ، كالآباء تماماً في معاملة الأبناء الصغار: لا يرفضون لهم طلباً، خاصة أمام الضيوف والغرباء، أو في أوقات المرح والتفاخر، لكنهم، مع ذلك، لا يحققون إلا ما يريدون. وحتى هذا الذي يحققونه لا بد أن يقدم على دفعات، وبكثير من الاحتفال والمهابة، ويطالبون، مقابل ذلك: بالشكر والاعتراف، وأيضاً بالصمت.

الناس في العوالي الذين تعودوا أن يكون الحكام هكذا، ولكي يواجهوا أكاذيبهم، ويحتملوا الحياة التي تزيد صعوبة حاكماً بعد آخر، فقد لجأوا إلى الحيلة يخدعون بها أنفسهم ويخدعون غيرهم. فإذا لم تكف نكات النهار وتورياته، والتي تنطلق من كل مكان، ولا يُعرف من أطلقها، لكنها تتطاير في الهواء كما تتطاير الفراشات، لتنتقل من أقصى مكان إلى أقصى مكان يقابله، وقد تتجاوز العوالي إلى موران، وخلال الرحلة السريعة تتشذب هذه النكات وتتكامل، وقد تكتسب نكهة المكان الذي تمر فيه . . . إذا لم تكف نكات النهار، فإن الليل كفيل بأن يلغي الحكام والعيون والخوف، ولذلك فمع القصص التي تروى، والأخبار التي تنتقل، تصبح النكات أكثر وضوحاً وحدة، ثم تأتي الأغاني لتغسل الأحزان والهموم، وتفتح في القلوب كوى صغيرة: «لنؤمل أن يكون الغد أفضل من



اليوم. ولنتوقع أن تكون أيام الأولاد أحسن من أيام الآباء، ولنتأكد أن الحكام يشبهون السيول: يأتون بقوة، لكن يذهبون بسرعة. البحر ينتظر ليبتلع كل السيول، والبحر يبقى، وتبقى العوالي، ويبقى الناس».

كانت الأغاني سلوة حقيقية في العوالي. وكانت العوالي في الليل غيرها في النهار. فإذا قال المسنون في النهار: «علينا أن ننتظر، ولا بد أن يُعطي الذي جاءوا بالأمس فسحة، لكي يزول خوفهم، وبعدها نتبين ما إذا كانوا يعنون الكلمات التي يقولونها، وهل هم أحسن أو أسوأ من الذين سبقوهم» فإن الأصغر سناً يصمتون في النهار، احتراماً للكبار، أما في الليل فإنهم لا يوفرون أحداً أو شيئاً.

لقد انقضى وقت يعتبرونه كافياً منذ أن وصل خريبط إلى العوالي، وخلال هذا الوقت توقفت الحرب، لكن لم تنته. وتراجع الموت لكن ليبدأ العذاب والانتظار. فالوعود التي أعطيت تراجعت ثم نسيت، والجنود الخائفون الذين كانوا يشهرون أسلحتهم، كرد فعل، لأي تصرف، والذين كانوا شديدي التهجم والحنق، ذهبوا، وجاء بدلاً عنهم آخرون: أكثر نعومة لكن أكثر دهاء. صحيح أنهم لا يرفعون السلاح، لكنهم يربطون اللقمة بمدى الولاء. وهؤلاء جاءوا ليبقوا، وكان على رأسهم فنر.

وفنر بمقدار ما يبدو ودوداً، يستمع بانتباه، ويسأل، فقد كان يتحصن بالصمت والغموض. فإذا تكلم، فإنه يتكلم همساً، ولعدد محدود، أن موران لا تستجيب، رغم أنه يريد تلبية كل طلب، وإجابة كل سؤال، فإذا زاد الإلحاح وتعاظمت الشكوى يذهب إلى الجامع الكبير في الطريفة ليصلي ويطيل الدعاء، ويهمس في آذان الذين حوله أن يعطوه وقتاً لكي يقنع موران.

والعوالي التي تعتز بالغناء، وتعتبره سلوتها وطريقتها في الفرح، تعتز بمغنيها وتعتبرهم رسلها. وعمر زيدان، كبير مغني العوالي، كاد أن يصل إلى مصر والشام، لكي يغني هناك، لكن الحرب وما ولدته من ضجة ومصاعب وانقطاع المواصلات، اضطرته إلى تأجيل رحلته سنة بعد أخرى. وإذا افترض أن صوته يذيب البحر، وتقف في وجهه جبال الصد العالية، وتمنعه من الوصول، فقد

تأمل خيراً وانتظر كثيراً بعدما انتصر خريبط، خاصة وأن الناس لم يعودوا قادرين على الإحتمال.

بوصول خريبط، أصبح عمر زيدان متأكداً أن جبال الصد التي كانت حاجزاً ومانعاً، لن تلبث أن تصبح بوقاً أو مئذنة. وهناك يمكن أن يقف على ذراها لكي تسمع موران غناءه، ومنها إلى مصر والشام. لذلك لم يتردد ولم يتأخر في الاستجابة إلى الدعوة التي وجهت إليه لكي يغني في قصر الروض.

أما بعد أن ذهب وعاد فقد امتلأ غماً امرضه. وأكد عدد من الذين رافقوه، أنه بكى حين قيل اليه أن يذهب إلى المقابر، كما طلب أحد مرافقي السلطان، لكي يغني هناك للموتى. وقيل أيضاً أنه رفض الغناء، بعد أن عاد، لعدة شهور. أما المحاولات التي بذلت معه في وقت لاحق أن يغني في موران، وفي احتفالات السلطان، فقد فشلت، وحين ألحّ عليه يونس شاهين، وأكد له أن ذلك سيساعد العوالي كلها ويفرج عن الناس، فقد وافق على أن يرأس فرقته نائبة رضا الجاوي.

قال لرضا بسخرية مرة:

- ظني أن موران ينراد لها ألف سنة حتى تقدر تسمع السيكا والمنصوري، فلا تقرب، الله يسلمك، الثقيل، يلزمك تغني من الخفيف وما دونه!

رد رضا الجاوي:

- الغناء يا أبو ناصر إذا ما كان من القلب ما يصل، وحنا رايحين وقلوبنا هنا، ولذلك حتى الخفيف يجوز ما نقدر عليه!

بعد أن سافرت الفرقة قال عمر زيدان، لبعض الأقربين، وكان يتذكر:

- قبل سنوات طويلة، التقيت بمغني تركي، جاء على سفينة، وكان بينا ابن حلال يترجم ويفسر، ومنه صوت ومني صوت... والى الصبح. وكل ليلة، ما دامت الباخرة في الطريقة، نغني. كنا أول ليلة نغني وحدنا، بآخر ليلة ما ظل أحد إلا وغنى، والناس إلى الصباح، ويمكن بعضكم كان... ويذكر.



وهز رأسه بحزن ثم أضاف:

- وبعدما صار بيني وبينه خبز وملح، قال لي: اركب معي، فإذا وصلنا استانبول تشوف العجب. قلت له: لا بالله، ما أترك ديرتي، وإذا تركتها لأولاد العم، لمصر والشام، وهذا حدي. حاول. الحّ، قال: جرب. وابد. قال: بالبحر نؤلف أنا وأنت غناء بالعربي والتركي، فإذا وصلنا استانبول وغنينا نصير فوق الريح، قلت له: لك البحر واللي ورا البحر، وأنا هنا، وإذا جابلك الزمان لهذه الديرة، نوبة ثانية، فلا تنسى: لك أخ وما ينساك.

خيم الصمت ثقيلاً، ولما أحس أنه لا يطيق هذا الصمت كله، صفق بيديه بتلك الطريقة التي يعرفها مريدوه، ليستحضر النغم، وقال:

- أتذكر أني حضّرت لموران هذي الأبيات:

عيني لغير جمالكم لا تنظر ... وسواكم في خاطري لا يخطر
صبّرت قلبي عليكم فأجابني: ... لا صبر لي، لا صبر لي، لا أصبر
لا صبر لي حتى أراكم بناظري ... وعلى محبتكم أموت وأحشر

بعدما انتهى من الغناء قهقه. هز رأسه مرات أسفاً، ثم أضاف وجاء صوته حاداً:

- قال لي ذلك التركي لا تغن أبداً الا لمن تحبهم، لمن لا تعرفهم، أما من يغني للملوك فإنه يبقى أسير قصورهم.

وبعد قليل:

- توهمت اني أعرف خريبط وأني أحبه، هكذا أوحى لي الناس، وطلبوا مني أن استميل قلبه، لكي يخفف عذابهم. ذهبت دون وقفة في دارم أو عين دارة، ولم أتوقف في عين بنات أو في رحاب خزمة، كنت أريد أن أصله... لكن...

وصفق بيديه مرة ثانية وأنشد:

- وضيعني قومي لأني لسانهم    اذا افحم الأقوام عند التكلم
وطالبني دهري لأني زنته    واني فيه غرة أدهم

لكن هيت لك، هيت لك، هيت!

قال جمعة عبد الباري الذي لا يفارق عمر زيدان:

- مولانا أضاعوني وأي فتى أضاعوا...

رد عمر:

- أنا وأنت، يا جمعة، وكل أهل العوالي، وحتى الناس غيرنا، لازم نكون ذياب أو أشد، حتى نعيش.

قال جمعة بغضب:

- حاشاك مولانا...

وبعد قليل وهو يبتسم:

- ألف ذيب ولا غزال واحد مثلك، مولانا!

رد عمر، وكأن انساناً آخر في داخله يتكلم:

- حتى الغناء ما عدنا نقدر عليه يا جمعة، كان سلوتنا، وهالحين، مثل ما تشوف عينك: «حرام وحلال، يصير وما يصتير»؛ فإذا سكتنا أكثر، يا جمعة، متنا، راحت علينا، وحتى...

قاطعه جمعة:

- يا مولانا...

كان جمعة عبد الباري يبدأ كل كلام يقوله بهذه الجملة، وقد أصبحت لازمة تثير الضحك، أو تنبه لما يمكن أن يقوله، وغالباً ما يكون مثيراً وحاداً. تابع:

- يا مولانا، أنت سبب بلانا...

وابتسم، ثم بعد قليل:

- كلّ الناس بنظرك خير وبركة. كل الناس يفهمون ويقدرون، ونطيعك.



وبعدما نركض ونتعب، وبعدما نتحمل اللي ما يتحمله الحمير، ويطردنا اللي تعرفهم مثل ما يطردون الكلاب، تقول لنا: أنا غلطان، سامحوني، ونسامحك. ونظن أنك تعلمت. لكن المرة الثانية: نفس الأخطاء ونفس المشاكل، وتعالوا يا ناس: اصبروا وتحملوا، واستروا ما شفتم منا...

قال عمر وهو يضحك:

- الحق اللي تقوله يا جمعة.
- مولانا... هذا الكلام ما ينصرف، وما يفيد، لان الخازوق وصل لليافوخ!
- والحل يا جمعة؟
- الحل، مولانا، تسافر فرقتنا لمصر، لأن موران ما تسمع الا من بعيد.

وظلت العوالي موزعة مشتتة، عين على البحر، وما يحمله من أخبار، وما يقذفه من بشر، وعين الى جبال الصد، وما يأتي من ورائها.

قال رضا الجاوي بعد أن عاد من رحلة موران:

.... ولا يحتملون السرعة أو أنغام الطرب. صحيح أنهم يفهمون الكلام، لكنهم لا يتذوقون النغم، خاصة الرجال الكبار في السن. وحتى السلطان الذي بدا فرحاً ويريد المزيد، كان لا يطرب قبل أن يعرف الكلمات، وكان يستعين بواحد ابليس، يقال له ابن البخيت، وهذا يعرف الانغام والكلمات، وقد طلب منا أن نغني السيكا والمنصوري، وحتى البيات، وفي بعض الحالات كان يغني معنا.

تراجع عمر زيدان قليلاً بظهره إلى الوراء، زم ما بين حاجبيه، وسأل:

- ابن البخيت؟
- اي نعم. وإذ تتذكر المرة الأخيرة التي جاء فيها السلطان إلى الطريقة، كان دائماً معه: اسمر، طويل، ضعيف مثل قصبة، ودائماً ينظر إلى الوجوه وكأنه مضيع احد.
- وعينه اليسرى كريمة؟

- عيونه مثل عيوَن الصقر، يا شيخ.
- ومن حاشية اليمين أم من حاشية اليسار؟
- كان مع السلطان، ولا أدري عن الحواشي!
- ويفهم في الغناء؟
- اي نعم، مولانا!

هكذا أجاب رضا الجاوي، وهو ينظر إلى جمعة، ويبتسم:
سأل عمر زيدان بجدية:

- وهومن موران؟

هز رضا رأسه ايجاباً وهو يصفق بيديه، على طريقة معلمه، ويغني:

- تـصـورت من الـقـى فـلما رأيتـه ... ذهلت فلم أملك لسـانـاً ولا طـرفـاً
وأطـرقـت اجـلالاً لـه ومهـابـة ... وحـاولت اخفاء الـذي بي فلم يخف
وكنت معـداً للعتـاب صحـائفـاً ... فلما اجتمعنـا ما وجـدت ولا حرفا

قال عمر زيدان، وكأنه يحدّث نفسه:

- إذن موران فيها خير، ما دام فيها واحد مثل اللي تسولف لي عنه!

قال رضا الجاوي بمرح:

- لكنه ابن حرام يا مولانا، عين على الشيطان وعين على الـرحمان، مـا تصل إلى حد الا ويتلفت مثل الـذيب، اكثر من السلطان ومن شيـخ الاسلام، وكـان يدخل علينا ويغشانا مثل الموت أو مثل السيل، فاذا غنينا:

قـد صفـا وقتـنـا وطبـنـا وهمنـا ... في هـوى زينب وسعـدى ولبنى
فاسقني الراح يـا نـديمي ودعني ... بـين أهـل الهـوى أمـوت وافنـى

يصرخ:

يـا مصـطفى من قبـل نشـأة آدم ... والكـون لمْ تفتـح لـه الاغـلاق
ايـروم مخلوق ثـنـاءك بـعـدمـا ... أثـنى عـلى اخـلاقـك الخـلاق



وكنا لا نعرف هل هو من الانس أم من الجان: عيناه تحلّق مثل طيور الحمام، وعقله بيننا وبين السلطان. حـاولنا معـه، حاورنـاه، كان فهيمـاً لبيباً. وكـان شيطاناً رجيماً. قال لنا، في احدى الليالي، بعد حفلة كبيرة: «احذروا يا أهل العوالي، العين حمرا، وموران ما تحمل». وغاب أياماً، ثم بعد ذلك قال لنا: ارحلوا.

سأل عمر زيدان بقلق:

- ولم تروه بعد تلك الليلة!
- مرة... وفي النهار، لكنه في النهار غـيره في الليل، مـع السلطان غيره معنـا، ولا تعرف هل هو مع نفسه أم مع غيره. عجيب هذا الإنسان!

ومن جديد سأل عمل بقلق:

- ووحده أم معه أحد؟
- تراه واحد وتراه مائة. أما إذا تكلم أو إذا ترنم فإنـه يحلق، حتى إذا عاد لم يبق أحد الا وتحرك، حتى السلطان.

قال عمر زيدان، وخرج صوته من صدره عميقاً:

- موران مثل العوالي، إذا كانت هالحين تغطيها غيمة، فمع أول ريح تنكشف، وما احـد يدري بعدها شنهو اللي يصير!

قال جمعة:

- أتاريهم مثلنا، يا مولانا يخافون؟
- الفرق باع أو ذراع، لكنـهم يصلون، وإذا ما هو اليوم اللي عقبه...

هكذا قال رضا بمرح، وتابع:

- ونسـاهم، يا مـولانا، غـير رجالهم، صحيـح، والشهادة لله، مـا قرّبـن، لكن البني آدم يسمع وصوصتهن، ويسمع ضحكهن، إذا صفا الجو، والوصوصة والضحكـة تشلع القلب. وبتوالي الليـل كنا نشوف الأطياف مثـل خطـوات العافية. والأصوات تلمع ويقولن: سمعنا وطربنا.

قال جمعة عبد الباري:

- اذن الدنيا بخير يا مولانا؟

رد عمر زيدان بأسى:

- عجيب أمر الناس: الخوف قاطع قلوبهم، كلهم يعشقون ويغنون، بس بالسر، ما أحد يأمن لغيره، وكل واحد يخاف من الثاني، لكن يجي يوم وتشوفون.

سأل جمعة:

- وبرأيك، مولانا، ان هذا اليوم قريب أو بعيد؟
- قريب وبعيد، مولانا...

وقهقه عمر ثم أضاف:

- إذا راده الناس يقرب، وإذا نسيوه يجوز نموت وما نحصّله، لكن لا بد ويصير، إذا ما هو على أيامنا على أيام أولادنا.

قال رضا الجاوي:

- والغريب، يا عمي عمر، ان الناس، هناك، في الليل، غيرهم في النهار، بين بعضهم غيرهم مع الأغراب، وما هو بس كذا، يتغيرون بالساعة. هذا اللي كان يسولف ويمزح، واللي كان يدندن ويغني، إذا مرّ منادي الصلاة انرعص، وكأن عقرب لدغه، وحتى هذا اللي محني لحيته، اللي يقولون له العجرمي، مثل الشيطان الرجيم، وما تعرف من هو اللي يخاف من الثاني!

قال عمر زيدان، كأنه يحدث نفسه:

- ... والعوالي، من قبل، كانت كذا، لكن البحر ورياحه، والمراكب واللي جوا عليها، وتغير كل شيء، لكن الله يستر.

وبعد قليل وبحزن:



- وهالحين ما احد يدري: ياخذون منا أو يصلونا هم وخوفهم، ويخلونا نصمت مثل المقابر...

وينتفض ويضيف:

- ولكن حنا بروسنا، مواويل بعد ما غنيناها، وما احد يقدر يمنعنا...

وصفق بيديه وأنشد:

باحت بسري في الهوى ادمعي ... ودلت الواشي على موضعي
يا معشر العشاق ان كنتمُ ... مثلي وفي حالي فموتوا معي

نـزاعات قصر الـروض ومشاكله لا تتـوقف ولا تنتهي. قـد تـتراجـع، بعض الأحيان، أو قد لا تـظهر، خـاصة أثنـاء وجود السلطان، أو ربمـا تأخـذ مظاهـر خادعة، اذ يفيض الود، وتكثر الدعوات، وتبادل الزيـارات ـ وصدف ان وقعت خلال ذلك زيجـات مفاجئـة ـ لكن ما يكـاد يسافـر السلطان، أو يتغير الجـو، حتى تدب المشاحنات من جديد، وقد تؤدي إلى النزاع فالحرب المكشوفة.

قالت وريدة قابلة القصر تحذّر امرأة جديدة من نساء السلطان:

ـ إذا تغيرت الريح، وكان الحمل بين سعد بلع وسعد الخبايا، فلا تنتظر الحامل الا بنيّة.

وبعد قليل، وبتأكيد:

ـ فإذا جابت بنيّة يصير وضعها مخوطر، ويجوز تروح عليها!

اقتربت منها وهمست:

ـ فإذا رادت وليد، يلزمها تنام، قبل ما يجيها، ثلاثـة أيام عـلى جنبها اليمـين، وما تناظـر كريمـة عين، أو مفـروقة سن، وبتلك الليلة مـا يلزم تتفلقح مثـل البقرة، إنما ترمح مثل الغزالة، وبعد ما يسمّي تحرف به نحو القبلة وتنـوي، فإذا وطاها تاخذه وتجيبه الهون الهون، وبثاني يوم اذا شافت القمر تقـول: أريد ضدك، واذا شافت الهلال تقول: وفيت حقك، وهذا الله شهيد.

أما لماذا امتلأت وريدة بهذه القناعة، فلأنها، كما تقول، سمعت منجماً عاش في القصر، ومـات فيـه، وكـان السلطان يحبـه ويصـطحبـه اينـما ذهب، يهمس للسلطان: «هذا القصر الجن رابطه وحاميه، وما احد يقرب منه أو يقـدر عليه،



وإذا خرب فوراء خرابه مريّة أو بنيّة ومن داخله» وهذا ما يفسر تطير السلطان من المواليد الاناث!

كانت وريدة تقول ذلك، محذّرة، ولا تشير إلى أنها إذا بشرّت السلطان بغـلام فلها فوق المعـاش ثلاث اعـطيات: كسـوة، وحشوة وقـريشات. الكسـوة عادة: ثوب للشتاء، إذا كان الفصل شتاء، وغطاء للرأس، وخف هي التي تحدد لونه. أمـا الحشـوة فهي عبـارة عن ذبيحتيـن أو ثـلاث ذبـائـح، حسب أم المـولـود. والقريشات: خمسة مجيّديات، أو نيرة ذهب، عصمّليـة، وفي وقت لاحق وريقة أم الميّة. أما إذا كان المولود بنتاً فـإنها، أغلب الأحيان، تتـوارى، وإذا سئلت لا تجيب.

لهذا لم تكن وريدة تخفي محبتهـا للذكور. أمـا إذا اضطرب قصر الـروض ودبت فيه المشاحنات، فكانت تتطلع إلى نجمة الصبح وتقول بصوت عالٍ:

ـ يا ملك الجان، بحق نبي الله سليمان، تربط العمدان، وتقوّي الحيطان...

وتجر نفساًعميقاًويتغير صوتها:

ـ وكل مريّة تفري على غيرها فرية ترد عدوانها لنحرها وتجيب اجلهـا، أو تقـطع نسلها!

المصـالحـات التي رعتهـا أمي زهـوة، بـين نسـاء السلطان الاقـدم والأقـوى، ساهمت في خلق فترة من الهدوء بين الكثيرين، وبدت فضة امرأة مسالمة أقرب إلى الانـطواء والحزن، بحيث أن الـذين عادوهـا من قبل لامـوا أنفسهم، واكتشفـوا خطأهم وقسوتهم! خـدم القصر فسروا تغير فضـة إلى اليأس والتعب خـاصة إن النساء الجديدات، أو أكثرهن، سكن خارج القصر، وقال آخرون ان تغير فضـة بسبب صعوبة حركتها نتيجة السمنة.

لكن فجـأة، وكما تهب العـاصفة، ويـداهم السيل، وبعـد أن أصبـح راكـان مسؤولاً عن أمن القصر وحمـاية السلطان، أخـذ كل شيء يتغـير: «قصر الروض لراكان واخـوته»، هكـذا قال مجـلي، احـد حـرس راكـان، مـبرراً الإجـراءات الجديدة. أما ابن العريفان، والذي لا يعرف كيف يواجه الاعباء والمشـاكل فقد

قـال: «فضة تـريد القصر لهـا ولأولادها» ولأن السلطان انشغـل بزيجـات سريعة متتالية، ثم أصبـح يقضي فترات طـويلة في الباديـة، للقنص أو لرد الـزيارات أو لمصـالحة بعض الشيـوخ الذين غـادروا موران غـاضبين، فقـد جـاء من أكّـد ان الاسبـاب الحقيقية لغيبـات السلطان الطوعيـة عن موران، وعن قصر الـروض، بالتحديد، نتيجة لنبوءة قالها لـه أحد المنجمين المشهورين في العوالي، إذ أبلغه، ولم يكن معـه سوى مهيـوب وابن البخيت: «النجاة في الفـلاة، ويلزمك، طـال عمـرك، ما تصـل موران الشهـور الحرم جميعهـا، ومـا دام نجم الـثريـا في منـازل الغياب.

ومثلما كـانت فضة قبـل سنين، عـادت، أما راكـان فلم يكن بحاجـة إلى من يحرضه أو يوغر صدره. فالإهـانة التي تلقـاها من العنـود ظلت تنام وتقـوم معه. الآن وقد تهيأت الفرصة لا بد أن ينتقم.

خلال يومـين لم يبق في جناح العنـود، فقد اسغـل سفرهـا، أي معالم تـدل على استقلاله؛ هدم الحواجـر والجدران التي تفصـل جناحهـا عن الجناح الـذي يحتله وأمه، وأجرى تغييرات بحيث حوّل الجناحين إلى واحـد. أما الأثـاث فقد أوعـز الى الخدم والعبيد ان يأخذوه أو يحرقوه، لأنه لا يريد أن يراه مرة أخرى!

فعل ذلك بصمت أول الأمر، ثم حين تحسب من لوم أبيه إذا عـاد، لجأ إلى القبض عـلى عدد من خـدم العنود وعبيـدها، وأمـر بجلدهم في ساحـة القصر، لأنهم لم يبلغـوا عن الخمور التي وجـدت في الجناح، بعـدمـا اعـترف الخـدم «ان ضافي، أخ العنود، وكان في العادة ينـزل ضيفاً عـلى أخته، إذا جـاء إلى موران، تعود أن يجلب الخمر الى القصر، وكان يشربه. راكان لم يتجاوز مـا فعله ابوه في حادثة مماثلة، حين طـرد احد أبنـاء عمه، لأن ثـلاثة شهدوا انه تناول الخمـر في القصر، وقـال السلطان آنذاك، وأمـام عدد من رجـاله «. . . ولـو شـافتـه عيني شربان لسويته عبرة» ولذلك اكتفى بطرده ومنعه من دخول القصر بعد ذلك.

لم تكن العنـود وحدهـا التي تعرضت لمثـل هذا الاجـراء، فاثنتان من أقـدم زوجـات السلطان، وثلاث من محظياته، اضافـة إلى عدد من الجـواري والخدم تعـرض أيضاً إلى النقـل والمضايقـة. فالقسم الشرقي من القصر، والـذي جرى توسيعه عدة مرات، والحقت به أجنحة جديدة، وكان قد بني بعد حادثة التسمم



المشهـورة، وأصبح سكنـاً للسلطان ومكانـاً للعمل، تقـرر توسيعـه من جديـد، بحيث اقتضى الأمر هدم الأسوار التي تفصله عن أجنحة أخرى.

لقد تم ذلك «لاعتبارات متعلقة بالأمن» كما قال راكان، حـين سئل، «ولأنـه من الواجب أن يكون للسلطان قصر يليق به».

بـدأت عمليات الهـدم دون أن يطلب راكـان من أحد مغـادرة سكنـه، ولأن الحياة في مثل هذه الظروف أصبحت مستحيلة لهؤلاء السـاكنين، فلم يـوافق على أن تغـادر أي منهن إلا بعد أن تكتب طلبـاً أو تبصم على ورقـة أعدت لـذلـك، لكي يؤمن لها سكناً آخـر، وليثبت لكل انسـان، مستقبلاً، أن تغيير السكن تم بناء لطلب، وامتثالاً لرغبة!

أمي زهوة التي تسكن في الجنوب الغـربي من القصر، وقد ظلت معتكفـة لمدة شهـرين، بسبب الكـوابيس التي لاحقتهـا خـلال ثـلاث ليـالٍ متـواصلة، وقـد تشاءمت منها كثيراً، لم تدر بما يدور. أما تهاني التي سمعت وعـرفت، فقد قـالت بسخرية:

- إذا كان هذي سواياتهم والسلطان على مرمى عصا، فشلون اذا غاب؟

وبعد قليل وبهزء:

- وشدوا روسكم يا قرعان!

وقررت تهاني ان تؤخر ابلاغ الشيخة، لأنها كانت في طـور النقاهـة، وخشيت أن تؤثر عليها مثل هذه الأخبار.

ابن العريفان الذي كان أقوى شخص في القصر أثناء غيـاب السلطان، رغم مظاهر البساطة والتواضع، امتـلأ غيظاً نتيجـة تصرفات راكـان، خاصـة بعد أن بدأت الاحتجاجات تنهال عليه من كل جـانب، ولا يستطيـع أن يمنع الأذى، أو يغيـّر من اجراءات الهـدم والنقل. وحـين عبّر عن استيـائه لـراكان تلقى جـوابـاً مختصراً وقاسياً:

- حياة طويل العمر قبل كل شيء وفوق كل اعتبار. . .

وبعد قليل وباستهانة:

- واللي ما يعجبه يرحل، وأرض الله وسيعة.

ولما حاول ابن العريفان ان يلفت نظره إلى احتمال غضب السلطان نتيجة هذه الاجراءات اجابه:

- أنا المسؤول ولا أسمح لأحد أن يتدخل.

قال ابن العريفان لسكينة، احدى زوجات السلطان التي جاءت محتجة:

- . . . ورأي تطولين بالك، لأن راكان وام راكان ما عندهم لحية مشّطة، وشايفهم ما هم مصلين على النبي، فاما تصبرين على الهدم فوق راسك أو ترحلين . . .

وبعد قليل وبحزن:

- وإذا رجع طويل العمر تسولفينه واسولفه باللي جرى وباللي صار، وعسى أن تنتهي على خير.

ابن العليان الذي لم يكن يرافق السلطان في رحلاته، لأن لديه الكثير ليفعله في موران، وقد شعر، خلال فترة، بالراحة، نتيجة غياب السلطان، وبراحة أكبر لغياب خزعل، فقد أصبح راكان هماً جديداً بالنسبة له.

إذ بعد أن فرض راكان نفوذه وسيطرته على القصر، ونتيجة الطلبات المتزايدة من أجل ترميم القصر ومصاريفه، إضافة إلى تشكيل الحرس الخاص، ولأن ابن العليان يستجيب مرة، ويتظاهر بالغباء والنسيان في مرات أخرى، اضافة إلى الادعاء بعدم وجود المال المطلوب، فقد لجأ راكان الى أساليب جديدة لتحصيل الأموال التي يريدها: اخذ يوفد رجاله إلى أمراء المناطق لجلب المال، ثم لجأ إلى الاستيلاء على كل شيء يمكن أن يباع، وباعه. هذا عدا عن تهديد ابن العليان، وتأليب سكان القصر عليه.

والسلطان الذي كان يبعث، بين فترة وأخرى، رسله، إلى موران، ويبلّغ انه لن يتأخر في العودة، الا أن الأسابيع، تتلوها الشهور، تنقضي، ولا يزال ينتقل



من مكان إلى آخر في البادية. فإذا عنّ له أن يستريح، فإنه يذهب إلى الحويزة، أو إلى العوالي، وغالباً دون المرور بموران، أما الديوان الذي لم يكن يفارقه في رحلاته كلها، فلم يعد بحاجة إلا إلى القليل منه.

قال عثمان لطالع العريفان، الذي جاء يطالب بمخصصات القصر:

- طلعت روحنا يا طالع من قولة هات، وطويل العمر يظن أنه عندنا مكينة تطلّع ذهب. . .

وزفر مثل جريح، وأضاف:

- وهالحين اما تروح لطويل العمر، وتقول له باللي صار واللي جرى، أو اروح بنفسي.

وبعد قليل:

- الله يذكره بالخير خزعل، قلنا إنه ما يشبع من الفلوس، هالحين راكان وامه، وباقي الويلاد ما يعرفون الا قولة هات، وما تدري اللي يسوونه بالفلوس.

قال طالع بحزن:

- تروح بنفسك يا أبو عزيّز، تصل طويل العمر، وتقول له: وما هو بس الفلوس، القصر بليّاك ما ينداس، ويلزم ترجع من كل بد ولازم، والا . . .

وتلفت اكثر من مرة واضاف بهمس:

- يا ابو عزيّز، انت ما تدري وما يصلك الا اللي له علاقة بالفلوس، انا شعري شاب وقلبي ذاب من السوالف الثانية: كل يوم، كل مطلع شمس، سالفة جديدة، وتعال يا ابن الحلال: حل المشاكل، هدّي الأمور، طيّب الخواطر. . .

وبعد قليل:

- والله لولا الخجل والحرام ما ابقى بالقصر يوم واحد!

قال ابن العليان وهو يضحك بسخرية:

- لو كان ابن البخيت بهدي الديرة كان فرّج علينا، يجوز ما يقدر يحل المشاكل، لكن يقـول كلمتين تشفي الغـل وتبل القلب، لكن وينـك، هالحـين يـا أبـو بادي؟

- والله لا ابن البخيت ولا مية مثله، يـا ابـو عـزيّـز، لأن الهم زاد عن الحـد وفاض!



. . . المرح الذي كان يميز بعض تصرفات السلطان وتعليقاته، حين يكون في جو اليف، او بين المختارين من جماعته، وكان يطلق عليهم: الربع، هذا المـرح غادره تماماً في المرحلة الاخيرة، وحل مكـانه همّ أقـرب إلى الحزن، وكـان يتبدى واضحاً لكل من يراه. أما الصمت الذي كان يتحصن وراءه في حالات خاصة، أو على التحديـد حين يـريد الإقـدام على عمـل خطير، وكـان يخشى أن تفضحه كلماتـه، أو طريقتـه في الكلام، فقـد أصبح في هـذه المـرحلة الصفـة البـارزة أو الوحيدة في علاقاته مع الجميع، مما أدى إلى خشية المحيطين بـه، ثم تخوفهم أنـه يعـد لعمل كبـير، ولا يريـد لأحد أن يعـرف. وقد صـدف أكثر من مـرة، حين صفّى بعض خصومه، أو أصدر احكام الإعـدام على من اعتـبرهم مخطـئين، ان اعتصم بالصمت، وخيّمت عليه الجهامة الممزوجة بالحذر أو التخفي.

ترافق ذلك مع تغير واضح في الهيئة ثم في السلوك والتصرفات. اذ بالاضـافة إلى عدم رغبته في سماع أي حديث لـه علاقـة بالمـطالب والشكاوي، كـان بادي الضيق، سريـع الانفعال، وفي فـترة لاحقة لم يعـد راغباً بلقـاء احـد. وأخيـراً، وبشكـل سريع، قـرر مغادرة مـوران، ولم يصطحب معـه الا عـدداً محدوداً من رجـاله. ظهـرت الحيرة عـلى وجوه المسافرين، أو الـذين عرفـوا بالسفـر في آخر لحـظة، لأنهم لا يعـرفـون مستلزمـات رحلة من هـذا النـوع، ومـا تـتطلبـه من تجهيزات تتناسب مع المكان الذي يقصده، أو المدة التي ستستغرقها الرحلة. وإذا كان البعض قد عزا التغير والاختلاف الى هموم القصر، خاصة نكد النساء، فإن آخرين كانوا متأكدين أن الأمر اخطر من ذلك، خـاصة وأن السلطان اصـطحب اثنتـين من نسائـه الجديـدات، اضافـة إلى عدد من محـظياتـه وجـواريـه. وكـان

المحيطون به على يقين ان حصيلته من النساء أثناء العودة ستكون ضعف العدد الذي رافقه، أو ربما أكثر.

وإذا ظلت هناك مزايا يفاخر بها السلطان، وغالباً دون كلمات، وبشكل غير مباشر، فان من جملتها: قوته الخارقة، وقامته المديدة، اضافة إلى ما يتمتع به من طاقة على التحمل، وكان يترك للآخرين أن يتحدثوا عن هذه المزايا في مجالسهم، شرط ألا يكون موجوداً، وظل هو يبعث بالرسائل التي تبرهن على استمرار هذه القوة، من خلال الزيجات المتلاحقة التي يعقدها، ومن كثرة المحظيات والجواري اللواتي يزداد عددهن في قصوره وأماكن وجوده. كما لم يكن يتردد في التعبير عن هذه القوة أيضاً، وخاصة من خلال الأفواج الجديدة من البنين والبنات.

في الفترة الأخيرة لاحظ مرافقوه تخوفه الواضح من النساء. إذ أصبح يأكل منفرداً، أو مع عدد محدود من رجاله، وأصبح العويدي، طباخه الخاص، لا يفارقه، وهو وحده موضع ثقته أكثر من أي شخص آخر. وقد تذكر الكثيرون حادثة التسمم التي وقعت في القصر قبل عدة سنين: فراودتهم الشكوك ان حادثة من نفس النوع، أو على الأقل، اشارة، نتيجة معلومات أو وشاية، وصلت الى السلطان، وجعلته حذراً متحفظاً هكذا. ولقد لفت نظر القريبين في السنة الأخيرة أن المواليد أقل من أية سنة سابقة، مما أثار التساؤلات، وبعض الأحيان التعليقات الساخرة. فأغلب النسوة اللواتي وصلن إلى القصر، بعد معارك العوالي، لم ينجبن. رغم صباهنّ وقوة اجسادهن، واختلف الذين راقبوا هذه الظاهرة في تفسيرها، أو استنتاج دلالات منها.

قال ابن العليان في احدى الليالي، حين جرى الحديث عن أولاد طويل العمر:

- ... والغريب، يا جماعة الخير، أن أكثر أولاده من أول نسوانه، والظاهر أن الرجّال مثل المرية، يبلغ سن ويقف!

سأل ابن البخيت بمكر:

- وشنهو اللي تقوله عن الأولاد اللي جوا بالسنين الأخيرة؟



- كل شيء يظل به توالي، يا عبد الله، ظرف السمن بعدما تتعب وانت تعصره، اتركه بالشمس ساعة وشف شنهو اللي يطلع منه... وما هو بس هذا: عين الماء، الغدير، كل شيء، والبني آدم كذا.

- وشيخنا العجرمي، كم عمره يا عم؟
- ليش تسألني؟ تريد توقع بيني وبينه؟
- لا... أريد أقول انه بهذا العمر، وما تمر سنة الا وعنده فلو جديد!

- الله منك يا عبد الله: كل سالفة ويلزم تقول: تصير وما تصير، قاعد للناس سكينة خاصرة، ولا كأن شيء عاجبك أو مالي عينك!

قهقه ابن البخيت، وبعد أن هدأ:

- كل الناس خير وبركة، يا عم، بس اللي أعرفه أن سن اليأس عند النسا؛ أما الرجال فتظل ظهورهم قوية حتى ولو وصلوا للمية، خاصة إذا كانت الأفراس حايلة وطالبة!

- يا ابن الحلال... عمري بعمر طويل العمر، وما أريد أسأل أحد، أشوف نفسي!

- لكن عنده النشامي والاجاويد: شيخ الصاغة ومعتمدي، وغيرهم وغيرهم، وهذول ما لهم شغلة الا يسنّعونه زين: بالاكل، بالعطر، بالدهون، وانت يا عم همك غير همه!

لقد جرى هذا الحديث، أو ما يشابهه في وقت مبكر: أما بعد أن بدا هذا التغير على السلطان، ثم سفره المفاجىء، ولا أحد يدري إلى أين، أو إلى متى سيبقى، فقد ساورت الظنون والشكوك الكثيرين، أو بالأحرى لم يبق احد في قصر الروض أولاً، ثم بعد ذلك في موران، الا تساءل وتوقع.

ابن البخيت الذي استأذن السلطان قبل يومين من السفر، لكي يقوم بواجب العزاء لعائلة صديق توفي، لما سأل عن السلطان، وأبلغ بسفره، هز رأسه، وكأنه تذكر، أو أن الأمر لا يعني له شيئاً. وحين استفسر طالع العريفان ما إذا كانت

رغبة جلالته أن يلتحق به عبد الله البخيت، اكتفى بأن هز رأسه علامة النفي.

وحين ظل طالع يدور حول السلطان، منتظراً اللحظة المناسبة، لكي يسأله ويتلقى توجيهاته خلال فترة غيابه، فقد قال له السلطان بحدة بالغة، أقرب إلى الغضب:

- امسك الأرض، يا طالع، لأن عيونّا زاغت من دبيّك!

وفي اللحظة الأخيرة قبل أن ينطلق موكب السلطان، سأل طالع، وخرجت الكلمات مسكينة:

- تؤمرني بشي، طال عمرك، بغيبتك؟

تلقى جواباً لن ينساه بعد سنين طويلة:

- النملة إذا دبت وماعرفت بها لا تلوم الا نفسك، وبس ارجع نتحاسب!

قال طالع العريفان لناهي الذي كان خارج القصر أثناء سفر السلطان:

- طويل العمر ما يعجب، يا ناهي، متسودن، ونفسه حامضة، ولو حكيت كلمة واحدة، ما عنده مانع يطقني، ويلعن أجداد أجدادي.

استغرب ناهي، حاول أن يستفسر:

- شلون يا أبو جازي؟ شنهو اللي شفته وشنهو اللي صار؟

تنفس ابن العريفان بعمق وبحزن، ثم أجاب:

- البني آدم ما يتعلم إلا من كيسه يا ناهي. قبل سنين قلت لي: خلنا نمشي، وأنا عاتّ بك وأقول لك احسن من هذا المكان ما نلقى. اليوم تأكدت بنفسي اني متوهم، وكان يلزمنا نهّج من قبل، ونترك أهل موسى يندبون موسى!

- ظني أن هالحين ما تفيد الندامة، يا ابو جازي...

وبعد قليل وبمرارة:



- باكر، إذا رجع لحليب امه، وجرب غيرنا، يتذكرنا يا أبو جازي.

رد ابن العريفان بحزن:

- إلى هذا الحد طاح حظنا بهذي الدنيا يا ناهي وما عاد خير إلا إذا لقي أخيس منا؟

- من قبل قالوا، الله يسلمك: لا تحط يدك بالنار، ولا تصيح: يا الغريب الفرج!

قال ابن العريفان بيأس:

- لا صافي يظل، ولا خابط يظل مخبوط، واللي تدردبه السما تتلقاه القاع وهذا هو.

عرفان الهجرس الذي بدا حائراً خلال فترة التحضير للسفر، لا يعرف ماذا يأخذ وماذا يترك، ولا يجرؤ أيضاً على سؤال السلطان، استمر يصدر التعليمات ثم يوقفها، ويعود لاصدار تعليمات جديدة. يأمر، مثلاً، باستبدال الركائب بالسيارات، ويحمل جزءاً من الديوان، ثم يطلب انزال الاحمال مرة أخرى، والوقت يمضي بين تعليمات وأخرى نقيضها، إلى أن تقدم، في لحظة عصبية، من السلطان، وسأله همساً:

- شنهو اللي يلزمكم، طال عمركم، من الديوان، حتى نشيله؟

تساءل السلطان كأنه يخاطب نفسه:

- شنهو اللي يلزمنا من الديوان؟

وهز رأسه عدة مرات، ثم أضاف:

- الى الحين وما تعرف شنهو اللي يلزمنا واللي ما يلزمنا يا ابن الهجرس؟ متى تتعلمون وتصيرون؟

وبعد قليل وباستدراك:

- لا... خَلِ كل شيء بمكانه، بس أقفل وحزّم، وتبلغهم ما أحد يقرب شي إلى أن نرجع.

ثم استدرك مرة أخرى:

- ولا تنس الصندوق، يا عرفان، خله بالسيارة اللي اركبها.

مهيوب طول الوقت لم يهدأ لحظة واحدة من أجل اختيار مجموعة خاصة من الحرس، كما لم يجب أي انسان عن وجهة سفر السلطان، رغم أن الكثيرين سألوه، إذ كان يكتفي بالصمت أو بنظرة تجاهل. حتى السيارات الخمس التي طلب اليها التحرك قبل ساعة، اعطيت لسائقيها تعليمات مبدئية: «تذهبون إلى المليحة، وهناك تتبلغون بالوجهة النهائية للسفر».

وأغلب نساء السلطان لم يعرفن بسفره الا بعد السفر، أو في اللحظات الأخيرة؛ ولذلك، وخلافاً، لرحلات سابقة، لم يختلفن ولم يتراهن. أكثر من ذلك شعرن، جميعاً، وإن كان بنسب متفاوتة، بخيبة الأمل، وانهن لم يعدن شيئاً بالنسبة له.

لما عاد عبد الله البخيت من سفرة العزاء، بعد عدة أيام، وعرف بسفر السلطان، قال لعثمان العليان، والذي أبلغ ابنته ان تبعث وراءه حالما يعود عبد الله:

- مثل اللي راح للمسجد ولقاه صاكّ بابه، قال لربنا: جت منك، وما هي مني!

وقهقه، وبعد قليل:

- خلنا نستريح، خلنا نشوف اهلنا ونشوف الناس...

وكاد يتابع بنفس المرح، لكنه تنبه فجأة، فسأل بخوف:

- وما قال: تحملّوه وراي وتدزوه مثل الجدي؟

- ربك سترك، هذي المرة، يا عبد الله. ولا بد أنك مسوّي بدنياتك خير يوم من الأيام، لأن الله رحمك، ونسّاه!

رد عبد الله البخيت بمرح:

- الله يدري بالقلوب، يا عم. وعمل الخير ما هو بس باللي يعطي الفلوس



ويزّكي، باللي يقول الكلمة الزينة، أو يمنع الاذية، ويرفع الظلم عن المساكين. وحتى إذا نسّى الواحد السلطان عن الناس، فنسيانه لهم رحمة، لأنه إذا تفطن الله وأكبر!

قال ابن العليان بنزق:

- اتركنا من هذي السوالف هالحين، وأريد أسألك...

- سم يا عم.

- أبو منصور... شنهو اللي بلاه بهذي الأيام؟ ما رحت للطريفة ورديت الا وشفته غير بني آدم، غير اللي اعرفه. صار شي بغيبتي؟ أحد خربه؟ أريدك تسولف لي كل اللي تعرفه، يا عبد الله.

رد ابن البخيت بمرح:

- هالدنيا ابد ما ينحزر عليها يا أبو عزّيز... وما لها أمان.

وضحك بسخرية ثم جاء صوته رخواً وبعيداً:

- وأنا، غافل وعلى نيتي، كل ظني أن الوسادة أقوى شي بهذي الدنيا، أتاري غيرها ما هو أقل منها...

وبعد قليل وقد تغيرت النبرة:

- وكنت أحسب واخاف من توالي الليل، ودايما اقول لروحي: اذا تغير، اذا حب أو بغض فالحريمات هن السبب، وانت تعرف، الله يسلمك، سوالف الوسايد ابد ما تنسي، لكن، ومثل ما يقولون: اللي يخاف من العفريت يطلع له!

قال عثمان العليان بنزق:

- موّتني، يا ابن الحلال، علمني بليّا طولة سيرة.

قهقه ابن البخيت لأنه استطاع أن يغيظ عثمان، وتابع بنفس السخرية:

- وشلون تريدني أجاوب وأقول؟

وحين لاحظ أن ابن العليان لم يعد يحتمل، غيّر جلسته فتغيرت نبرة صوته:

- أما مسألة أنه تغير فهذي واضحة، مثل عين الشمس، ما ينراد لها، أما شنهو اللي غيّره، فأنا اهجس وماني متأكد. . .
- هات اللي عندك، وبعدها نشوف.
- من شهرين أو ثلاثة شهور، يا أبو عزّيز، وبالمليحة، وبعد ما قضّى هو ومشرف البكيري، وحدهم، من رأسه لراسه، الليل بطوله، وثاني يوم من الصبح للظهر، طويل العمر انخربط، تغير وصار غير شكل!

وهز رأسه وهو يتذكر:

- وما أدري، إذا كنت شفته، أو تعرفه، لمشرف؟
- لا بالله، يا ابن أخي، لا شفته ولا سمعت به.
- هذا، يا عم، أهل العوالي كلهم كوم وهو، وحده، كوم.
- شلون يا ابن الحلال، هات، سولف.
- إذا ناظرته تظنه مهبول وما تشريه بنواة، لكنه ألعن من ابليس، وما هو تارك أحداً من شره.

وضحك ثم تابع:

- طويل، متين، لكن ريحته تقطع النفس، وما هو بس كذا، مكحّل، حتى انك تحسب عيونه عيون حرامية أو بقرة وحشية، وهذي العيون مالية وجهه كله، وتحتها لحية محنّاة، وما تعرف حمرا أو زرقا، ويا كبرها يا أبو عزيز، كأنها جزة خروف. ومطمّس راسه بخريقات ملونة وشادّها شدة سياف، ومبخّر ومعطّر، وخاتمه. . . فُصّه عشرين قيراط. . .

وهز رأسه استغراباً وعجباً، وبعد قليل:

- أما شنهو اللي دار بينهم، شنهو اللي قاله لطويل العمر، فعلمي علمك. ومن يومها السلطان كان به عقل وطار. ركبه الوسواس، وعاف الاكل وما يقدر ينام، وعيونه، يا ابو عزيز مشلوحة، من ذاك اليوم، تناظر بخوف، وما تأمن لأحد.



وزفر بحرقة ثم اضاف نبرة جديدة:

- ويومين وسافر مشرف، رجع للعوالي، وانا، طال عمرك، ما خليت طريقة أو حيلة، اريد اعرف شنهو اللي جرى، لكن أبد. قلت لطويل العمر: جماعتنا من قبل قالوا: حط بينك وبين النار منجم؛ وان المنجمين يتبعهم الغاوون؛ وان من كان دليله المنجمين مأواه العذاب والخراب. يسمعني، يبتسم، يهز رأسه، ويسكت. واذا تكلم قال: «مشرف البكهري، يا عبد الله، ما هو منجم، هذا الله كاشف له، وهذا يقرا الممحي، وانا تأكدت» أما شنهو اللي قاله، وشلون تأكد طويل العمر، فهذا علمه عند علام الغيوب!
- ومنين جانا هذا البلية؟ من هو اللي وصّله، من هو اللي اقنع به طويل العمر؟
- دورت وتقصيت، يا ابو عزيّز، سألت جماعة كثيرين من العوالي، قالوا لي: هذا يعيش بجبل عالي، وانه قال للناس قبل سنين من هزيمة ابن ماضي، وقبل ما تقع بينه وبين طويل العمر، ان ابن ماضي يمشي بفلان وقت وبفلان تاريخ. وحدد السنة والشهر، ويقولون أنه حدد اليوم. كل هذا صار قبل ما تثور بالعوالي أول فشكة. وقالوا ان ابن ماضي استدعاه وسأله، فجاوب نفس الجواب. حاول معه، هدده، حبسه، رد عليه: أنا أقرأ المكتوب وما أقدر أرد القدر. عرض عليه فلوس، ووعده بعشرة روس خيل، وقال له: يا ابن الحلال: اذا تقدر تغير أو تبدل. جاوب: فات الأوان!

وقلب شفتيه وحرك يديه، وقد رأى تأثير كلماته على ابن العليان، فقال وهو يضحك:

- هذا اللي سمعته يا أبو عزيّز، وما يندري صدقه من كذبه!
- وانت شفته يا عبد الله؟ سولفت معه؟
- شفته، الله يسلّمك، أما اني أقول لك سولفت معه فاكذب اذا قلت أي، لأن الرجّال عيونه مثل المغارات، ما تقدر تناظره، وسبحته ألف حبة، وغرقان فيها: يتمتم، يهذي، يغيب، ولا يفرق عن المهبول، واذا سألته ينتفض وكأنك فزته من النوم.

- وبعد يا عبد الله؟
- سوالفه كثيرة يا ابو عزيّز: يقولون إذا وقع بالساعة يعرف اللي صار واللي بعده ما صار. وشفت واحد من جماعته، وهو اللي دزه بعد رجعته للعوالي بشهر، ومعه حرز لطويل العمر، وهذا قال لي: «شيخنا متصل بالأولياء، وتجيه وفود من الهند والسند، ويعرف القتيل والقاتل من سفر اربعين يوم. ويلقى المسروقات ولو كانت مدفونة ببطن القاع». وقال وقال، بس ما اذكر كل اللي قاله يا أبو عزيّز!
- ومن هو اللي وصله لطويل العمر؟
- سمعت أن فضة، ام راكان، هي التي شارت عليه، لأن جماعة زاروها وسولفوا لها عنه، وقالوا: يا ما نساء حبلن على يده، ويا ما سرقات لقاها!
- متأكد يا عبد الله؟
- لا بالله يا ابو عزيّز، لأنها هرجة ليل وسوالف حريم، وما يندرى!
- وبعد يا عبد الله؟
- خلنا ننتظر ونشوف، يا عم.

نساء قصر الروض احسسن في وقت مبكر، وقبل الرجال، ان السلطان لم يعد مثل قبل، وان في الأمر شيئاً لا يفهمنه، ولا يقدرن على تفسيره، لكن، مع ذلك، امتلأن بمشاعر الخوف والحذر. واتجهت انظارهن إلى الجناح الأوسط، وإلى أمي زهوة، واتجهت انظار أقدم النساء إلى الجديدات، سواء كن في الجناح الشرقي، أم كن خارج القصر كله. لم يكتفين بما يصل اليهن من معلومات، فقد أرسلن الخدم والأطفال، وأرسلن بطلب بعض الزهور أو بعض العطور، أو بادرن بارسالها، تعبيراً عن المودة وحسن النية، لتكون رسلهم في معرفة الاشياء الجديدة، لكن لم تصل المعلومات التي تطمأن اليها قلوبهن. كن على يقين لا يتزعزع أن التغير الذي حل بالسلطان نتيجة امرأة، أو نتيجة عدة نساء. وكان هذا اليقين بسبب حالات سابقة. حتى عندما ماتت لولوة من حالة التسمم، وقيل أن السلطان كان مقصوداً، أو على أقل تقدير وطفة، فقد وجدت كل واحدة وسيلة أو صيغة لتظهر براءتها أولاً، ولكي تحاول أن تستعيد السلطان بعد ذلك.



أما الآن، وبسبب الجفوة والبعد، اضافة إلى الغموض الذي رافق سلوك السلطان، فإن الحيرة، الأقرب إلى الخوف، جعلت كل امرأة تشعر بالاهانة. بل وأكثر من ذلك، اصبحت كل امرأة تعتبر الأخرى، أياً كانت، عدواً.

أمي زهوة التي اختفت شهوراً، لا أحد يراها، أو يعرف عنها شيئاً مؤكداً، ظهرت من جديد. لكنها، وهي تظهر، بدت بحالة صحية ونفسية أقوى بكثير من قبل، كانت أكثر مرحاً وكبرياء وسخرية. حتى تهاني التي تغيرت خلال الشهور السابقة، فأصبحت أكثر استعداداً ورغبة لإقامة علاقات طبيعية مع الأخريات، وفي أن تزورهن، ما لبثت أن تحولت مرة أخرى، بل وبلغ الأمر أن رفضت السلام، أو رد التحية، حين وجدت في بعض المجالس، ولنساء تعرفهن، وسبق لها أن كانت لها علاقات معهن!

نعوّم، مسؤولة الحمام الكبير، أو نعيّمة، كما تسميها أمي زهوة، حين تجاهلتها تهاني، ورفضت أن تمد يدها للسلام، قالت:

- وي... وي، العنزة الجربة ما تشرب إلا من راس النبع...

وأضافت بعد قليل وبغيظ:

- ما يخالف... ونشوف، إذا ما خليت صنّتها، تذبح الخنزير وتذبحها، ما أكون نعوم.

أما وريدة التي كانت على علاقة وثيقة بأمي زهوة، ولا تطيق، بنفس الوقت، تهاني، كما لا تعرف كيف تتعامل معها، وكانت وريدة تبلغ الشيخة بكثير من المعلومات الخاصة عن نساء السلطان، وتهاني تحاول أن تكون الوسيلة المباشرة، أو ربما الوحيدة لهذه المعلومات، ولم تستطع المرأتان أن تتوصلا إلى صيغة، فقد قالت وريدة تعليقاً على ما سمعته من النسوة عن تغير تهاني:

- المرّية اذا ما خلّفت ورضّعت، واذا مرّ العمر وما شافت بين رجليها شي يلعب ويتحرك تبغض كل الناس، وتصير غضب وما تنحمل.

شمران العتيبي الذي تصله الاخبار إلى سوق الحلال، وتصل غامضة، متداخلة، وقد عرف ان السلطان «تسودن» وهرب من موران، وهمس في

اذنه اثنان من خدم القصر، ان ذلك كان نتيجة كيد النساء، فقد تساءل عن العجرمي. وحين قيل له أنه في عين دامة، وهناك يعاجلونه ويعطونه المقويات، وقيل انه عاد شاباً وقوياً، فقد قال كلمة تناقلها الكثيرون وضحكوا. قال في سوق الحلال:

- إذا عين دامة، رجّعته شاب ما يرجع، ولا تصدقون اخباره، ومثل ما قالوا: حزموني ولزموني وعلى العودة مالي نيّة.

أما حين بلغه أن في العوالي ساحراً تفوق كثيراً على العجرمي، وقد زار السلطان، وقرأ له طالعه، وقيل أنه أبلغه بأمور كثيرة، ثم طلب منه المغادرة، وأن لا يبقى في موران، فقد قال:

- من يوم موسى وكل انبياء بني اسرائيل: ما يرد السحر الا السحر، وما يقدر على الساحر الا ساحر أقوى منه، وما لنا هالحين الا العجرمي، فإذا ما جاء هو وحيّاته من عين دامة، ترى أبو منصور مخوطر، وما ينعرف شنهو اللي يصير!

وفي سوق التجار، وفي الحارات والأزقة، وبين الحرس والخدم، ظلت القصص تتزايد وتتناقض حول سفرة السلطان: أتطول أم تقصر؟ وهل حدث شيء لا يعرفونه؟ وهل أن السحر الذي تهمس به الألسن هو ما دفع السلطان الى السفر أم أن هناك أشياء أخرى؟

قال ناهي الفرحان لطالع:

- ترى يا أبو جازي سفرة طويل العمر، هذي المرة، ما تعجب، والناس يسولفون!
- الناس، يا ناهي، ما عندها غير السوالف.
- لكنهم، هذي المرة، غير شكل.

- انت بس راقب: إذا ابن البخيت والعجرمي بخير، الدنيا بخير، ولا تسمع غيرَ سوالف، لأن الواحد منهم، بيرَ ، ويعرف كل شيء، وغير هذا لا تصدق.



- إذا على هذول تبني آمالك فالعجرمي بعده بعين دامة، وابن البخيت كل يوم يفتر بالسوق، ولسانه ما يفوت حلقه: سوالف وأخبار، وما يهدا ولا يترك احد من شره، وبعدها ما يندري: قمحة أم شعيرة!

- خلنا نشوف يا ابن الحلال، وعسى ولعل، ومثل ما قالوا: اللهم حسن الختام.

. . . وطالت غيبة السلطان؛ ومن جديد اضطرب قصر الروض.

راكان الذي شعر بالثقة والقوة، خلال الفترة الأولى، وتصور أنه سيد القصر، ويستطيع ان يفرض ما يريد، اكتشف، بمرور الوقت، ان الأمور اخذت تفلت منه أو تتحداه. إذ بالإضافة إلى معارضة عدد من الأخوة، وجميع نساء السلطان، فقد قلّ المال بين يديه فاضطربت الخطط، واصبحت الوعود والآمال التي منّى بها الكثيرين، لاسترضائهم أو لكسبهم، مثاراً للسخرية والتعليقات. أما الصمت أو التجاهل الذي ظهر واضحاً على الكثيرين من الخدم والحرس والموظفين، فقد ساهم في زيادة توقعات ومخاوف غيرهم، فبدا وكأن يداً خفية تدبر كل شيء. صحيح أن الأمور لم تأخذ هذا الشكل الحاد أو العلني منذ البداية، لكن غياب الأخوة الكبار، ثم عدم امتثالهم لما يريد راكان، وقد ترافق ذلك مع تعليقات الاستهزاء الاقرب الى الاهانة، شجع الصغار والكبار ودفعهم لاظهار عواطفهم، ثم المساهمة في خلق جو مشحون بالقلق والخوف والانتظار.

بدأت المواجهة بتحريض العبيد والخصيان، وهؤلاء لا يحتاجون الى الكثير لكي يجندوا انفسهم، ثم لكي يبالغوا فيما طلب منهم، وأخيراً ليفعلوا ما يرونه ضرورياً ومناسباً. ترافق ذلك مع التعديات والتحرش، والتحدي ثم افساد جميع الترتيبات والصيغ التي أرادها راكان للقصر في المرحلة الجديدة.

ونساء السلطان، ثم الخدم والمربيات والمرضعات، والمئات غيرهن المقيمات في القصر، لم ينتظرن الاذن، أو كلمات التحريض لكي يشتركن في المعركة، اذ كانت معاركهن قد بدأت منذ وقت مبكر، أو على التحديد منذ الأيام الأولى لسفر السلطان، وان أخذت شكل الاشاعات والقصص، ثم المؤامرات الصغيرة، بحيث تحول القصر خلال فترة قصيرة الى خليّة من الدوي



والاضطراب لم يعرف لها مثيلاً في أي وقت سابق. وكانت معظم الاشاعات والاخبار تتناول فضة وراكان، فإذا قلّت الاسباب لخصومات جديدة، أو لم تعد كافية لاشعال القصر، فلا بد من ايقاظ الخصومات القديمة، والتذكير بالاساءات من أجل التحريض والزج بكل الخصوم.

وأخيراً جاءت تحديات موظفي القصر ورجال السلطان.

فبعد أسابيع من الهدوء المريب، والتحضيرات الخفية، اضافة إلى اتخاذ عدد من الخطوات لمواجهة أي رد فعل، امتلأ قصر الروض بالفوضى.

أصبح لكل أخ من الأخوة، وحسب الأمهات، حرسه الخاص، بعد أن تم الاستيلاء على اعداد متزايدة من خيول السلطان، سواء بالحيلة والمكر، أو بالقوة؛ وبعد أن تم أيضاً فتح مخازن السلاح، ووضع اليد على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة.

أما مباريات الرماية والفروسية، والتي تعوّد عليها القصر منذ وقت مبكر، وكانت للرياضة أو للتفاخر، وقد تصل الى المراهنات في بعض الحالات، فقد أصبحت في المرحلة الجديدة استعراضاً للقوة، ثم تأكيداً للأهمية والاستقلال، إلى أن تحولت الى المشاحنات والتحدي، ولم تبق الا الخطوة الأخيرة لتصل إلى المجابهة.

موران لم تتوقف عن التساؤل بفضول، ثم بخوف، عن غياب السلطان. كانت تفسيراتها تتغير حول أسباب هذا الغياب، نتيجة التقدير، أو الاخبار التي تصلها، وتبعاً للرياح التي تهب من هنا وهناك حاملة معها المسافرين من الأماكن البعيدة، وما يرافقهم من القصص الغريبة التي سمعوها في محطات الطريق. كانت هذه القصص تشغل موران، فتقلق وتتحسب، لكن لا تلبث اخبار قصر الروض أن تطغى على كل ما عداها. حتى المسافرون الذين غابوا فترات طويلة، ونظروا الى قصص موران باستخفاف رافقه الاستغراب أن الناس انشغلوا بهذه الأمور الصغيرة، فما لبثوا هم أن تغيروا أيضاً، اذ اخذوا يسمعون باهتمام، ويتساءلون، ثم بدأوا يشاركون، مع ما يرافق ذلك من الاخطاء والتحريفات في رواية القصص، أو في تسمية «أبطالها» أو من هم وراءها.

أما السلطان فقد تعود أن يبعث برسول أو اثنين كل أسبوع إلى موران، لكي ينقل الأوامر والرغبات، أو ليطلب موافاته بعض الحاجات، وبالاخبار والرسائل التي تصل، أو ليطلب التحاق عدد من «الربع»، وغالباً ما تكون التسمية دقيقة، والطلب محدداً بالاسم، بحيث أن الرسول يقابل، أول الأمر، ابن العليان، ثم طالع العريفان، ويقابل من يسميهم له السلطان، وفيما بقي من وقت قد يقابل أيضاً عدداً من الأمراء، أو بعض نساء السلطان، لكن دون أن تعني المقابلات الأخيرة شيئاً، ودائماً بناء لطلبهم والحاحهم.

ما لفت نظر الكثيرين، في هذه الفترة، أن الرسل يرفضون حمل أية رسائل بعودتهم، عدا المكلفين بها، مما اضطر أغلب الذين يريدون موافاة السلطان بالرسائل والأخبار الى البحث عن أشخاص أو وسائل تمكنهم من ذلك. وقد ادى الأمر إلى أن يتكاثر الرسل والرسائل لدرجة أثارت السلطان وجعلته شديد الحنق. فالرسل الذين يُهؤون جيداً في قصر الروض ويشحنون بالعواطف والاخبار، لا يلبثون أن ينسوا أو يترددوا حالما يصلون إلى حيث يكون السلطان، أو حين يسألهم. أما الرسائل المكتوبة التي ترسل معهم فقد كانت تثير السخرية والضحك، اذ لا تتعدى بضعة أبيات من الشعر، أو توسلات ورجاء أن يعود، وبسرعة. المرات القليلة التي كانت الرسائل أوضح، وغالباً ما تتعلق بشكوى ضد راكان، فقد سمع الكثيرون السلطان يقول بغضب:

- إذا الرّجال وقع بين الحريمات والعجيان أكلوه مثل ما العقارب تاكل كبارها، واذا خلصنا من العجيان، وقلنا لهم انشّبوا واسكتوا، فامهاتهم يأكلن القلب مثل ما انثى العنكبوت تأكل الذكر، وتعال اخلص.

ويفتل يده بغيظ وسخرية ويقول بلهجة جديدة:

- وأحسن شي ان الواحد يبعد، لأنه إذا أبعد بشلوا بأرواحهم!

لم يكن من الصعب أن تبقى الأمور في القصر تراوح هكذا، فهي، بالنتيجة، خصومات وخلافات تعوّد عليها منذ وقت طويل، وكانت تهب وتتزايد، أو تتراجع، تبعاً لقرب السلطان ومزاجه، وتبعاً لاعتبارات متعلقة بموران المدينة والناس.



لكن حين جرح مجلّي، أحد عبيد السلطان المقربين، أثناء مسابقة رماية، واقترح الدكتور رأفت شيخ الصاغة، ضرورة نقله إلى موران، وبعد أن قضى في المستشفى اسبوعين، وبدا أنه تماثل للشفاء، وبدل أن يلتحق بالسلطان، فقد بقي في قصر الروض.

ومنذ ذلك الوقت أخذت الأمور مجرى جديداً.

أما التاريخ الذي طلب فيه السلطان أن ترسل إليه فرسه الكحلة، وكان قد استولى عليها راكان، هل كان أثناء وجود مجلّي في المستشفى أم بعد ان خرج منه، فإن الأمور غير واضحة بدقة، لكن ما حصل ان الفرس لم تُرسل، رغم أن الرسول بقي في انتظارها ثلاثة أيام، وكان يبلّغ كل يوم انها ستصل. وحين عاد الرسول، ولم تعد الكحلة، فقد استاء السلطان. وبعث برسول آخر يطلبها، ولم ترسل أيضاً. أما الرسول الثالث فقد أبلغ أن الكحلة نفقت.

شمران العتيبي الذي يعتبر أن خيول موران كلها خيوله الخاصة، ولا يسمح بأن تُمّس أو تساء معاملتها، وحين عرف أن الكحلة قضت أثناء رهان بين راكان وأخيه مقرن، وكان إثنان من العبيد يتباريان على فرسين، أيهما يستطيع أن يطلق ويصيب هدفاً من تحت فرس الآخر، وكانت الكحلة هي ضحية هذا الرهان، فقد ظل شمران مرابطاً ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في سوق الحلال، وكان خلال هذه المدة صامتاً، حزيناً، غاضباً، ولا يفعل سيئاً سوى ايقاد نار كبيرة، تعبيراً عن الحزن والغضب لغياب الكحلة. أولاً لأنه الذي باعها للسلطان، وثانياً لأن فرساً مثل الكحلة لا يمكن أن تذهب هدراً هكذا.

أما بعد أن انتهت الأيام والليالي الثلاثة، فقد دوى صوته في سوق الحلال:

- خيلنا وحريمنا صارن للعب...

يتلفت إلى الذين حوله بلوعة، ثم يتابع:

- وتعرفون، يا جماعة الخير، إذا الواحد لعب بالنعمة، بما حرمه الله، تراها

الدنيا بآخرها، مصبحة مسيّة:

ويضرب على ساقه بقوة:

- آه ثم آه، على اللي يرجّع الكحلة ويأخذ ولد من أولادي. وآه ثم آه على اللي يراويني لمعة عينها ويأخذ نور عيني. وآخ ثم آخ على من يقدر يعيش بهذي الأيام الكشرة!

وحين يخيم الصمت، وتمتلىء القلوب بالحزن، نتيجة حزنه، يهدر صوته متسائلاً:

- الدنيا صارت لعب كعاب؟ الأولاد صاروا يحكمون ويرسمون؟ وحنا، حنا رجال موران، صرنا سوالف وأخبار؟

وفي فترة مقاربة، يوم وصول مجلي أو بعد وصوله ببضعة أيام، وبالتأكيد قبل مقتل الكحلة، ربما بأسبوعين كاملين، غابت الشيخة فجأة. وغابت تهاني. وإذا كانت العادة أن لا يعرف أحد بدقة مكان الشيخة، فمن المؤكد أن لا أحد يعرف كيف تفكر أو ماذا تدبر وماذا تريد. ونساء السلطان اللواتي تعودن أن يعرفن، بوسائلهن الخاصة، شيئاً من أخبارها، عن طريق رشوة الخدم، أو بإظهار فيض من العواطف المفاجئة، على شكل أطباق من الحلوى ترسل إلى جناحها، أو كميات من التمر الجيد أو الصابون الذي تفضله، بهدف التأكد من وجودها، أو معرفة بعض ما يدور حولها، فهذه المرة لم يستطع أحد أن يصل إلى قناعة أو نتيجة يطمأن إليها. لأن كل من سئل لم يجب اجابة واضحة، ثم اختلطت الإجابات بالرغبات والتوقعات، ومما زاد في تعقيد الأمور أكثر أن حسيبة البصرية، التي كانت تصنع الشاي للشيخة، كانت تجيب كل من يسألها أن «الشيخة شربت الشاي من يدي هذا الصباح». وإذا أرادت أن تمكر أكثر تستأذن لأنها بعد قليل ستهيء الشاي، «فهذا هو الوقت الذي تفضله الشيخة للشاي».

ان غياب أمي زهوة، أو توهم غيابها، له علاقة مؤكدة بالتغير الذي حصل. ومما عزّز هذه القناعة ما قيل عن استدعائها لراكان حين طلب من سكينة أن تخلي



الجناح الذي تسكنه، فكان الجواب الذي قاله لسرور لما طلب منه الحضور:

- . . . وتسلم عليها وتقول: هالحين يصل، وإذا ما هو على رجليه، على رأسه!

وضرب ثلاث مرات على رأسه، دلالة الامتثال والسخرية. والشيخة التي انتظرت وانتظرت، وحين بعثت بسرور مرة أخرى، قيل له أن راكان ذهب إلى البادية، ولن يعود قبل ثلاثة أو أربعة أيام، وأُبلغ سرور أيضاً، وبطريقة لا تخلو من تحدٍ، أن من الأفضل أن ترفع الشيخة يدها، وأن لا تتدخل، إذ أن ضرورات الأمن والسلامة فوق كل اعتبار!

الشيخة التي أبلغت بكل هذه التفاصيل، صمتت، لكن تولت تهاني الكلام نيابة عنها.

قالت تهاني لموزة:

- وتقولين لعمتك: هذا قصر أبو منصور، وأبو منصور بعده حيّ، وبعد قوي.

قالت الكلمة الأخيرة بطريقة خاصة تماماً، ويمكن أن تفهم منها عدة معاني معاً. وأكد عدد من الخدم أن الشيخة لازمت جناحها لم تتركه، ثم بعد ذلك غاب أثرها، فلا يعرف ما إذا كانت لا تزال موجودة أم غادرت، وإن دلت الوقائع، أو معظمها، على سفرها. وبعد أيام أصبح التساؤل هل أن هذا الغياب في موران ذاتها، أم غادرت إلى حيث تعودت أن تذهب خلال فصل الشتاء؟ وجاء من قال أنها واصلت رحلتها إلى حيث يقيم السلطان.

وعبد الله البخيت أيضاً ليس بعيداً عما جرى. إذ بعد أن أكد عدد من الذين يعرفون أن السلطان طلب منه البقاء في موران، وان هذا الطلب نتيجة الضرورة القصوى، ليكون عينه واذنه، ولئلا يحصل مثلما حصل في مرة سابقة، خاصة أثناء حملة العوالي، فقد أكد آخرون أن البخيت سيسافر ويلتحق بالسلطان بين يوم وآخر. وأكد غير هؤلاء ان بقاء ابن البخيت في موران دليل لا يقبل الشك أن عودة السلطان متوقعة اليوم أو غداً، وهذا ما جعل عبد الله يبقى، لأن أياً من الاثنين لا يقوى على فراق الآخر!

عثمان العليان لديه من المشاكل والهموم ما يجعله بعيداً، أو غير مستعد لأن

يخوض مع الآخرين في موضوعات القصر، والخلافات التي تنشب فيه، رغم قناعة الكثيرين أنه الوحيد الذي يقرر كل شيء، وأن رأيه وحده الذي يمكن أن يفرض، دون قدرة على المناقشة أو الاعتراض. وهذه القناعة نتيجة علاقاته الخاصة مع السلطان، أولاً، ولأنه الذي يملك «الدهن»، كما كان يقول ابن البخيت مازحاً، اشارة إلى أنه يملك المال.

وإذا كانت عادة ابن العليان أن يبدو مرحاً محباً للحديث، ولا يخلو من سخرية، فإنه يصبح انساناً آخر حين يطلب منه المال. فجأة تتغير ملامحه وتصرفاته. وفجأة يختفي الإنسان الذي كانه، ليولد آخر مكانه، وهذا الجديد لا يعرف الابتسامة، ولا يعرف الصداقة، إلا بمقدار «الشرع»، وهو يحب هذه الكلمة، ويعتبرها سيفاً بينه وبين الآخرين، عدا السلطان. لا يتعب من المساومة، وفي عصر أية مطالبة، فإذا اقتنع، أو رأى ضرورة، فإنه لا يتردد في الأمر بالصرف، عكس غيره من المحاسبين.

قيل أن راكان اصطدم، أول ما اصطدم، بعثمان العليان. كان السلطان يطلب، أو يبعث بورقة صغيرة عليها خاتمه، وعثمان العليان يمهرها بتوقيعه، مع كلمة صغيرة: «تصرف». جرب راكان الوسيلتين معاً: أن يطلب من عثمان العليان، وأن يبعث اليه بالأوراق، ولم يتأخر عثمان لكي يضع حداً: فحين طلب منه صرف مبالغ من أجل انشاء الحرس وشراء الأسلحة، كان رده مختصراً: «قدّم لنا القوائم، وبعدها نشوف شنهو اللي الله يقدرنا عليه»! ولما بعث إليه بأوراق عليها خاتم القصر وتوقيعه، قال ساخراً لعبد الله البخيت:

- سبحان الله، يا عبد الله: أولاد الملوك يصيرون ملوك قبل آبائهم؛ مستعجلين والأرض ما تحملهم!

وحين ظهر التساؤل، وعدم الفهم، على وجه ابن البخيت، اضاف موضحاً بسخرية:

- ابن فضة صار وتصور! يظن أن ختم القصر، وتوقيعه، اللي طوله طول حية، مثل عصاة موسى، يسوي كل شيء، لكن يخسا.



ابتسم ابن البخيت، وقال:

- عجيان، الله يسلمك، ويلزم تأخذهم على قدر عقولهم!

- العجي تضحك بوجهه، تربرب على كتفه، تقول له: عفارم، اما ان يقول: اصرفوا لأمر فلان، فهذا حدنا وياه، تقول له: دوك التعريفة، اشربيها قصب المصّ، وما عليك بغيرها.

- لا تروح بعيد يا أبو عزيّز، خلك خد وعين، لأن هذي دنيا وما تعرف شنهو اللي يصير بيها... وضحك، وخرجت الكلمات متداخلة:

- وهذا، بالاول والتالي، ابن فضة، وانت تعرف منزلتها عنده!
- خلنا، يا عبد الله، من هذي السوالف.

هز عبد الله البخيت رأسه وهو يبتسم، وقال كأنه يخاطب نفسه:

- ظني ما له غنى عنها. رابطته. ومهما راح لا بد يرجع لها، وبقلبها تقول مثل ما قال صاحبنا القديم: ايتها السحابة اذهبي أنّا شئتي فإن خراجك راجع إليّ، فاخاف يروح يوم ويجي الثاني وننكس على روسنا يا أبو عزيّز، ونضيّع الدنيا والآخرة. وترنم:

يستغفر الناس بأيديهم     وهن يستغفرن بالأرجل

- لا تخف يا رجّال، مثلها آلاف!
- زين... زين يا أبو عزيّز، بس هذي دنيا وما ينحزر عليها!
- وكلّ الله يا عبد الله، وهالحين همّ العود اكبر من همّ العجيان، فخلنا نستغفر رب العالمين ونشوف شلون ندبر روسنا...

وبعد قليل وبقلق:

- وأنا، خوفي، يا عبد الله، من خويّك، هذا اللي سولفت لي عنّه، مشرف البكيري، فيلزم نفّك رباطه ونلعن والد والديه، وكل ما عداه سوالف ليل!

- اللي تقوله يا أبو عزيّز، وما لي الا اسرى عليه، او نسري جميع، ومني كلمة ومنك كلمة وعسى أن الله يفرجها.

طالع العريفان كان الضحية، خلال الأسابيع الأولى، بل خلال الشهرين

الأولين، لغياب السلطان، اذ حاول راكان ارهابه، وحمله على أن ينفذ كل ما يريد، وطالع استجاب وحاول كل جهده، لتجنب الشر، ولرغبة في أن تسير الأمور بأقل ما ينبغي من الازعاجات، لكنه لم يتوقع أن تطول غيبة السلطان هكذا، ولا يعرف أيضاً متى يعود، ولذلك استيقظ فيه، يوماً بعد آخر، الشعور الحاد بالرفض والتحدي. وقد ترافق ذلك مع التغيرات التي طرأت على قصر الروض، اذ ما كاد يكتشف تمرد الأخوة، ويتأكد من صلابة ابن العليان، حتى أصبح اكثر الناس حزماً وعناداً. وراكان الذي افترض أنه قادر على ترويضه، أو يمكن تجاوزه، اكتشف أن لا شيء في القصر يمكن أن يمر دون موافقته، فهو يعرف الرجال، يعرف كيف يتعامل معهم، وكيف يحملهم على طاعته، كما أنهم يفهمون عليه بأقل الكلمات، وبعض الأحيان بمجرد الاشارة. ورغم التعليمات العديدة التي أصدرها راكان، اضافة إلى الأوامر المشددة، وتكون الإجابة عليها غالباً هزات الرؤوس بالموافقة، إلا أن لا شيء يتم، أو يسير بشكل طبيعي، الأمر الذي اضطره مرة بعد أخرى إلى الرجوع لطالع العريفان والاستعانة به، وما يرافق ذلك من محاولات استرضائه وسماع رأيه.

وطالع الذي بدا، خلال الفترة الأولى، منكسراً، أقرب إلى الحزن والحيرة، لا يعرف كيف يواجه هذه الصعوبات، أو كيف يتعامل مع سادة القصر الجدد، وكان يحس بنظرات ناهي المليئة بالتشفي والسخرية، فقد أصبح خلال الفترة الأخيرة أكثر حيوية واستعداداً للمقاومة. قال له ناهي، ذات ليلة، بعد أن غادرت الشيخة:

- شلون تريدنا نحمل، يا أبو جازي، إذا الجمال هجّت والجبال ارتجّت؟

وحين التفت طالع وتساءلت عيناه، تابع:

- الشيوخ شيّلوا، وآخرهم الشيخة، يا بو جازي، فالى متى تريدنا نصبر ونحمل؟

رد طالع بحزن مشوب بالاسف:

- إذا عاد العود، وحال الحول، يا ناهي، ما اظلّ لو يرتمي وردهن على رجليّ حجول.



- من هو اللي يقول الشعر هالحين، انا أم أنت يا أبو جازي؟

ولم يتوقف الا قليلاً، ليضيف بنبرة ساخرة وهو يعني راكان:

- له هدّة ما قيل أبا زيد هدها      ولا عنتر المشهور ما قيل نالها
- وعيب على مثلي ان هد ينثني      ان شاف نيران الحرب كبار

وقال ناهي وهو يضحك:

- يا ما ذكّرته ان كثرت نوايبي      والكبد كنه على كير يهاج بها

وضحك طالع العريفان بحزن، اسيان، وقال:

- اسمع يا ناهي، ومن قبل قالوا:

يا طالبين الحكم مهلاً ترفقوا      رويدا ترى قضب النجوم عسار

وبعد أن صمتا، وتذكرا، وامتلأ بأحاسيس كثيرة متناقضة، وكانا متأكدين أيضاً انهما لا يستطيعان أن يتركا في هذه الفترة، وقبل عودة السلطان، فقد قال طالع العريفان، وخرج صوته مديداً، وكأنه آتٍ من بعيد:

- ما لنا، يا ناهي، الا نومة أهل الكهف: لا عين شافت ولا قلب يحزن، إلى أن يبدل الله حالاً بحال.

رد ناهي، وكان صوته بعيداً أيضاً، كأنه خارج من مغارة:

- مشينا خطا كتبت علينا      ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومن كانت منيّته بارض      فليس يموت في أرض سواها.

لم يكن الاثنان بحاجة لمن يعلمهما كيف يقاومان أو كيف يحرضان الآخرين. إذ لم تمض فترة، ونتيجة لاتفاق ضمني، ترك بموجبه طالع العريفان لمساعده أن يتصرف، أن يفعل ما يراه ضرورياً، حتى امتلأ جو القصر بالصمت، فإذا تجاوزه فإلى تلك الابتسامات الصغيرة المتحفظة، رداً على أي طلب. أما مسألة التنفيذ، أما مسألة الفهم والإستجابة، فإن كل واحد من الرجال الذين يعملون معهما كان يفهمها بالطريقة التي تروقه. وناهي الفنان، لم يقل، مرة واحدة، كلمة لا، حين يطلب راكان أو أحد رجاله. كان يبدي تفهمه الكامل، وبعض

الأحيان حماسته، لكن لا ينفذ إلا ما يريد، ما يراه ضرورياً.

إنها الحرب الحقيقية، رغم الصمت والدماثة، والمليئة بالابتسامات.

قال طالع بعد ثلاثة أسابيع من الشعر والاتفاق:

- تراك، يا ناهي، مخبا بثيابك!
- عساني ما أخطيت، الله يسلمك، وسويت اللي ما يتسوى؟
- المهم، يا ناهي، نعلّمهم شنهو اللي يقدرون عليه بليانا.

- هذي خلها عليّ، يا أبو جازي، ونم مرتاح، وابن فضة عجي، كلمة تأخذه، وكلمة ترده. قل له تؤمر، وسوي اللي تريده!
- بس احرص يا ناهي، ترى اخواله عيونهم حمرا، وأشوفهم يلوبون.

رد ناهي الفرحان بصخب:

- انت حط بظهر ابن العليان، وابن العليان ظهره قوي ويحمل، وطويل العمر ما يرد كلمته، وخلي الكبار يتبالشون، وحنا نتفرج.

كان المال الحائط الذي اصطدم به راكان، واحتج به طالع العريفان، وأمور القصر دون المال متعثرة، مرتبكة، وعرضة لتقلبات ليس لها نهاية. وعثمان العليان الذي كانت له تجربة قاسية مع خزعل، وقد تعلم منها الكثير، فضل أن يعطي بمقدار، وان يوازن أموراً كثيرة، فالمصروفات المقررة للنساء والأولاد السلطان يصرفها دون ضجة وبمواعيدها، فإذا أراد أن يزيد، أن ينوّع، لكي يكسر هيبة راكان، فكان يفعل ذلك بكثير من الحذر وبسرية مطلقة، ويوصي من يعطيه انه يفعل ذلك بناء لأوامر السلطان، ولمرة واحدة فقط. لقد كان ضد العادة، وضد أن تصبح العطايا واجباً الزامياً. حتى ما صرفه لراكان، فوق ما يستحقه، لم يدفعه هكذا، ولم يفعل إلا بعد انتظار. وهذه الحالة خلقت جواً من القلق ومن الارتباط به. وقد استند إليها طالع العريفان واعتبرها حجة كافية لكي يؤجل تنفيذ الكثير من الطلبات، وبدا أن الرجلين، يفهمان على بعضهما، أو أنهما متفقان.

وخصومات النساء لا تقل عن خصومات الرجال. صحيح أنها اتخذت، في المرحلة الأولى، شكل الإشاعات والمؤامرات الصغيرة، إضافة إلى التحريض،



ولم تتجاوز ذلك، خشية أن يتصرف راكان بطريقة قاسية، كما تصرف تجاه بعض النساء، خلال الفترة الأولى، خاصة وأن السلطان لم يستجب للرسائل التي بُعثت إليه، ولم يكلف نفسه عناء الرد، حتى بكلمات قليلة، مع الذين حملوا تلك الرسائل. الآن وقد تغيرت الظروف، وبدأت تصل إلى الجناح الغربي أخبار الرجال، وكلمات الاستهزاء التي تنال راكان، ثم ما نقله الخصيان والعبيد، فقد اختلفت الأمور كثيراً عن السابق.

العنود التي عادت، ولا يعرف ان كانت عودتها نتيجة تقديرها ان السلطان لا يمكن أن يغيب أكثر مما فعل، ولا بد أن يعود، أو نتيجة الرسالة التي وصلتها من قصر الروض، حول ما جرى.

كانت عودة العنود صاخبة مليئة بالتحدي. فالجناح الذي كان لها، والذي هدمت الجدران التي تفصله عن جناح فضة، عادت إليه. وضعت نفسها وأولادها، وحولهم الخدم والحرس، وأيضاً ما وجدته من أثاث، أو ما حصلت عليه، وقد ساعدها طالع العريفان، في نفس الحجرات التي كانت لها، أو ما تعتبره جناحها. وفضة وراكان اللذان قاوما بحدة وخشونة، ما لبثا أن وقعا في حيرة كبيرة، خاصة وأن العنود كانت من الحدة والعناد إلى درجة تحدّت الاثنين، وجمعت حولها الكثيرين. ورغم المحاولات والجهود التي بذلت لتسوية الأمر، بتقديم اقتراحات بديلة، كأن تنتقل العنود إلى جناح جديد، أو أن تنتظر عودة السلطان، فإنها رفضت كل العروض.

ما كادت تستقر، وبعد بضعة أيام، وبمساعدة الكثيرين في القصر، حتى أعادت بناء الجدران، وأعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

هذه الضربة، زعزعت راكان، وجعلت فضة في حالة عصبية لم يشهدها أحد هكذا من قبل.

لم تكتف العنود بذلك، فقد بدأت تطالب أن تعود لها أشياؤها التي كانت في الجناح. كانت تريدها بالذات، ولا تريد بديلاً عنها، حتى لو كان أفضل منها.

صحيح أن راكان بعث عدداً من حرسه لخلق مضايقات كثيرة للعنود،

وللتحرش بعبيدها وعدد من أقربائها، لكن انتهى الأمر بأن بعث بطالع العريفان لكي يسترضيها، أو يحاول شراء سكوتها. وبعد الكثير من الجهد والوقت، أمكن الوصول إلى صيغة اعتبرت مقبولة مؤقتاً: وهي أن تفتح لها مخازن القصر لتختار ما تريد بدلاً عن الأثاث الذي احترق أو الذي غرق، كما قال طالع، في محاولة لاقناعها.

هذه الخطوة لم تترك أحداً يسكت أو ينتظر. كانت سابقة شجّعت الجميع، وهزت قصر الروض، وجعلت راكان وأمه يتبادلان اللوم والعتاب، وفي تحميل كل منها الآخر مسؤولية هذه الأخطاء.

في يوم من أواخر أيام الشتاء، وصل مهيوب فجأة إلى القصر.

وصل عند الضحى، وفي ساحة القصر الأمامية، كان ثلاثة من خدم وطفة يجلدون، بناء لأمر من راكان. الذين رأوا مهيوب يصل القصر، في سيارة سوداء، ظنوا أول الأمر أن السلطان هو الذي وصل. أما حين ترجّل واتجه فوراً إلى الساحة، وصرخ، بحدة، طالباً وقف الجلد، ثم تناول بنفسه خيزرانة وضرب بها أحد رجال راكان، فقد توقع الكثيرون أن القصر سوف ينقلب رأساً، لأن أحداً لا يجرؤ، غير السلطان، على التصرف بهذا الشكل، خاصة وأن عدداً من رجال راكان تراكضوا ليبلغوه. الذين كانوا مع راكان، وحين بلغه وصول مهيوب، ثم ما فعله، نقلوا ان حالة من الخوف سيطرت عليه، جعلته صامتاً لفترة غير قصيرة، ثم بدأ يتصبب منه العرق، وحين أراد أن يتكلم قال كلمات مرتبكة غير مفهومة. أما بعد ذلك، وحين فُتح الديوان، وجلس مهيوب في الغرفة الأمامية المطلة على المجلس، ثم بعث أحد رجاله يبلغ راكان بضرورة المجيء، ليتلقى رسالة من السلطان، فقد بدا واضحاً أن الرجلين إذا تقابلا، وهما في هذه الحالة من الانفعال، لا بد أن يقتل أحدهما الآخر.

لا يُعرف من أشار على راكان ان يصمت، ثم أن يعتكف في جناحه بالقصر. ولا يُدرى أيضاً لماذا لم يلحّ مهيوب على ضرورة حضوره. فالزمن الذي انقضى بين الوصول واللقاء، جعل الكثيرين يتحركون بين الاثنين، ويتدبرون الكثير من الأمور وسوء التفاهم، وبالتالي احتمال الصدام. وحين حصل اللقاء عصر اليوم



التالي، وقد حضره العم ضاري، وابن العريفان، وعدد من الأمراء، اضافة إلى ثلاثة من أقرباء راكان من ناحية الأم، فقد بدا هذا اللقاء شكلياً، ولا يتعدى قراءة رسالة السلطان القصيرة، والتي تطلب من راكان أن يوافيه الى العوالي؛ ولم تخل الرسالة من الجفاف وعبارات غامضة فهمت وفسرت بأشكال مختلفة.

العم ضاري، أكبر أفراد العائلة، والذي حضر الاجتماع، لم يكن في عمر أو حالة صحية تمكنه من المشاركة، أو حتى إبداء الرأي، فقد تراجع نظره، وخف سمعه، وأصبح يقاد إلى المكان الذي يجب أن يذهب اليه. أما الآخرون الذين حضروا الاجتماع، فقد ظلوا صامتين أيضاً، لأنهم فرحوا بقرار السلطان، وكانوا يريدون نهاية لهذا الذي حصل في القصر. حتى رجال راكان لم يستطيعوا أن يقولوا الا بضع كلمات، وكلها تتعلق بتوضيح بعض المسائل التي حصلت، خاصة موت الكحلة، ثم التساؤل عن الموعد الذي يجب أن يكون فيه راكان في العوالي، وما إذا يحتمل الموقف تأجيل السفر إلى أواسط الربيع. قال مهيوب ليحسم الموقف:

- ... وطويل العمر طلب مني ابات ليلة وأرجع الليلة الثانية، ويلزم يكون أمره تنفذ، وما احد يعاوده، ولو بكلمة.

وحين بدا الضيق على وجه راكان، أضاف مهيوب:

- واذا تلاقت العيون، وقال كل واحد اللي بقلبه، يصير خير!

وبعد الكثير من الجهد أمكن تأجيل السفر إلى ظهر اليوم التالي، وبدا لكل من سمع أو عرف ان قصر الروض، وربما موران، أو حتى السلطنة الهديبية كلها، تبدأ عهداً مختلفاً.

شمران العتيبي الذي بلغته الاخبار، وكان يستعد للسفر الى الزرنوق، لكي يبقى هناك فترة يستريح خلالها، ويعيد التفكير، ليقرر بعد ذلك هل يعود إلى موران أم لا يعود. قال أمام عدد من أصدقائه:

- والحر اذا شاف الجفا عاف، يا جماعة الخير، وانا كبدي ورم، وما احمل، فخلني اغيب هالحين، فإذا جاء الصفري الله كريم.

رغم محاولات التكتم والنفي، ورغم الاحتفال الرصين الذي جرى للسلطان حين عاد إلى موران، لم يتوقف الناس عن الهمس، أو حتى الحديث العلني الصريح، حول محاولة الاغتيال التي تعرّض لها جلالته في أحد مساجد العوالي. كادت المحاولة تقضي عليه، لولا خزعل الذي ارتمى فوقه، وحال بينه وبين القتلة. أما الجروح التي أصابته، وأصابت خزعل، فلم يستطع أحد أن يحدد عددها أو طبيعتها، إذ جاءت الاخبار متناقضة الى أقصى حد، وزادها غموضاً أن السلطان لم يغادر سيارته اثناء استعراض الجنود في الاحتفال. صحيح أن الاحتفال كان قصيراً، لكنه كان وقوراً ـ أما استقباله للوجهاء والشيوخ، بعد ثلاثة أيام من وصوله، وما دار من أحاديث أثناء الاستقبال، أو ما نقله الذين حضروا، فإن كل إنسان فهمه بالشكل الذي يروق له، وتبعاً لعواطفه أو مواقفه من السلطان. ومما زاد في التناقض والغموض غياب السلطان أو احتجابه بعد ذلك.

موران التي نسيت الحملات العسكرية السابقة، أو انشغلت بالهموم التي جاءت بعدها، نسيت اعداء السلطان السابقين، وبغيابهم غابت أيضاً أسماؤهم وملامحهم. وهذا ما أفسح مجالاً كبيراً لأن يتعدد القتلة بتعدد الاعداء. بل وبلغ الأمر، في بعض المجالس، ان سُمّي أعداء لم يسمع بهم أحد من قبل. ولتأكيد مثل هذا الافتراض ذكر الذين تبنّوه أحداثاً جرت قبل خمسين أو سبعين سنة، وحاولوا أن يذّكروا المسنين، لكي يستعيدوا وقائع جرت في ذلك التاريخ، لكن الذين أشاروا إلى مثل هذا الاحتمال لم يصروا عليه، ولم يستطع المسنون أن يسعفوهم في تذكر الاحداث والعداوات التي جرت زمن جد خريبط أو قبل جده.

ولأن الأمور تزداد تناقضاً وتشابكاً، فقد وجد من قال أن المؤامرة من بدايتها



الى نهايتها من داخل الأسرة. اذ بعد أن جرت عدة محاولات في السابق، وأخذت أشكالاً مختلفة، وفشلت، فإن المحاولة الجديدة امتداد لما سبقها، وكأن الذين قاموا بها يريدون أن يقولوا: «حتى لو لم نستطع قتل السلطان، فقد جرحناه، وأمام جميع الناس»، لكي يدللوا على عدائهم له واختلافهم معه.

ولئلا يترك أصحاب هذه الرواية مجالاً للشك يروون قصص الخلافات التي وقعت داخل الأسرة، وكيف أصبح القتل القانوني الذي يحكم بين أفرادها، إلى أن تعبوا، فاستراحوا خلال الفترة السابقة، وها هم يعودون إلى نفس القانون من جديد! ولكي يقنعوا أنفسهم، وهم يقنعون الآخرين، يوردون خلافات خريبط مع عمير، ومقتل مشاري قبل سنين، ثم محاولات الاغتيال التي جرت داخل القصر، ولم يتسرب الا قسم يسير منها، بل وجرت عمليات نفي لها، كما يفعل هذه الأيام.

فإذا اختلطت الوقائع أو تداخلت، أو إذا نُسيت التفاصيل، في مجالس الرجال، فإن لدى نساء موران الكثير الكثير ليقلنه، وليقسمن الإيمان الغليظة على صحته، وبلغ الأمر ببعض النساء أن كن شهوداً عليه! وهنا تبدأ مجموعة لا نهاية لها من الوقائع والأسماء، وهي من الدقة والتشابك الى درجة يضيع فيها أي رجل، لكن غالباً ما تنتهي مثل هذه الروايات عند مجموعة من أسماء زوجات السلطان، وعدد من أبنائه.

أما لماذا تصدى خزعل للذين حاولوا اغتيال أبيه، ولماذا لم يتصد فنر؛ ولماذا كان راكان بعيداً في زاوية المسجد، وقيل أنه غادر فور وقوع المحاولة، ولم يعد الا بعد أن ذهب اثنان من أخواله وجاءوا به؛ ولماذا اختار رأفت شيخ الصاغة ذلك اليوم بالذات ليمرض فيه، ولا يشارك السلطان الصلاة في المسجد، وبالتالي ليحاول اسعافه في الوقت المناسب، بدل أن يُترك فترة طويلة ينزف، وينهكه ذلك النزيف؛ ولماذا يقتل فوراً الذين قاموا بالمحاولة، بدلاً من القاء القبض عليهم ومعرفة الذين وراءهم، فإن مثل هذه الأسئلة، وغيرها أكثر منها، ظلت تدور من مجلس لآخر، ومن لسان إلى لسان، دون أن تلقى اجابة مقنعة، أو دليلاً ينفيها.

وفي المقاهي والدكاكين، وفي سوق الحلال، وفي مضارب البدو، كان الحديث يدور حول اغتيال السلطان.

وأن يكون الانسان قريباً من القصر، أو يعرف بعض العاملين فيه، لا يعني، حكماً، انه يعرف احسن من غيره أو أكثر من غيره. صحيح أن البدو في المضارب، حين وصلت إليهم الأخبار، بعد أن قطعت مسافات طويلة، وانتظرت فترات أطول في محطات الطريق، وصلت قصيرة، محددة، وأغلب الأحيان تخلو من أية تفاصيل، ولا تتعدى بضع كلمات: «حاولوا ذبح خريبط لكن لا أحد يدري شلون نجا». أمّا بعض الرعاة، وهم يتبادلون الأخبار، عن بعد، وسط الفلاة، فكانت الكلمات أقصر: «ذبحوا العود» وحين لا تفهم الكلمات من هذه المسافات، أو حين تبعثرها الريح، فإن الذي يعرف يبلغ من لم تصله الأخبار بعد بحركة اليد، مع كلمة واحدة: العود ـ خريبط، ويشير بيده الى الرقبة، دلالة الذبح.

قال شمران العتيبي، حين وصله، إلى الزرنوق، خبر الاغتيال:

ـ ان الله، يا جماعة الخير، يمهل ولا يهمل، فإذا فاتت هذي النوبة ما أظنه يفلت منها النوبة الثانية، وتشوفون وتسمعون!

صالح الرشدان في سوق الحلال، حين بلغه الخبر، وكان يحذي حماراً، قال، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هالابن الحرام يلزم يذبحونه ألف مرة.

والتفت قليلاً ليرى ان فهمت كلماته، فلما لمح التساؤل في عيون الذين يتابعونه أضاف:

ـ ما دام نوى، ويعرف انهم راح يذبحونه بأولها أو بتاليها، فكان يلزم أن خريبط ما يفلت منه. كان يلزم يوكد وين يضرب، وشلون يضرب، حتى ما يخلي واحد مثلي يقول: بومة، والله لا يبارك فيه.

وأخذ يضرب بقوة حذوة الحمار، وكان المسمار الكبير ينزلق بعد كل ضربة، وهو يردد:



ـ هالشكل يكون الضرب. اي نعم، هالشكل، والا . . .

في مقهى زيدان، في مقاهي موران الأخرى، وفي دكاكين القصابين بشكل خاص، حين يجري الحديث عن المحاولة، وكيف فشلت، كان الكثيرون يستعملون قبضاتهم، أو السكاكين التي في أيديهم، ليعبروا بشكل ما عن الطريقة التي كان يجب أن تتبع من أجل الوصول إلى النتائج المطلوبة. كانوا يفعلون ذلك دون حقد، وكأن الأمر لا يعني خريبط. ان ما يزعجهم، بالدرجة الأساسية، أن لا يكون الانسان ماهراً وقوياً. كان ذلك يثير حنقهم، ويجعلهم يتكلمون بطريقة غير مألوفة. فليس العيب أن يفشل الانسان، العيب أن يخطىء، الخطأ غير مسموح به، تماماً كما لو تكلمت المرأة أمام الرجال كلاماً غير لائق. أما أن يفشل الانسان، كأن ينكشف أمره في اللحظة الأخيرة، ان تستعصي البندقية، ولا تخرج الرصاصة، فإن ذلك خارج عن الارادة أو الرغبة.

هكذا كان يجري قسم كبير من الاحاديث، رغم أن السلطان مادة هذه الأحاديث! وكان المسنون يطلبون من الشباب أن يحرصوا ويتوازنوا، اذ لا يجب أن تصدر عنهم كلمات أو تصرفات يمكن أن يساءفهمها، أو قد تسبب متاعب مع جماعة السلطان. وكان الرجال يحرّصون النساء، لكنهم، في نفس الوقت، يستمعون إلى ما يقلنه باهتمام بالغ، وإن تظاهروا بغير ذلك، لأنهم يعتبرون ما يجري على ألسنة النساء يعكس ما يفكر فيه الرجال، وإن ترددوا في التعبير عنه، أو إعلانه.

والسلطان. . . اين هو الآن، ولماذا لا يظهر ويبدد كل الشائعات التي تملأ البيوت والأسواق؟

فإذا كانت محاولة الاغتيال قد شغلت موران والعوالي والحويزة، ثم انتقلت الى ما وراء «الحدود» وأصبحت الأمور أوضح بمقدار البعد عن المركز، وليس القرب منه، فإن ما شغل قصر الروض، وشغل الخدم والعبيد والخصيان والنساء والأطفال في المرحلة الجديدة: احتجاب السلطان.

قال عرفان الهجرس لعثمان العليان برجاء:

- . . . وأريدك، طال عمرك، ما دام تشوفه، ويسمع منك، تقول له: البريد، وما أريد بعد هذا اي شي.

أما العجرمي، الذي وصل إلى المسجد قبل السلطان بدقائق، وشهد المحاولة، فكان على ثقة أن الاغتيال لم يكن يستهدف السلطان وحده، وانما يطال الآخرين أيضاً. وقد أكّد لابن العليان، بعد أسابيع، أنه رأى اثنين عند باب المسجد لم يرتح لهما، وقد نظرا إليه «بعيون شر»، لكنهما لم يقدما على عمل شيء ضده لأنهما يريدان اكتمال الشمل، ولو أن محاولتهم نجحت ضد السلطان، لكان هو الأول بعده.

ابن العليان الذي اعتبر الأمر عارضاً، ويعني السلطان، ولا أحد غيره، حاول أن يخفف أو ينفي احتمال أن يكون غيره مقصوداً، لكنه سمع كلاماً قاسياً:

- اسمع يا عثمان، وأريد غيرك يسمع: الناس فسدت، ما هو بس كذا، وفسقت، أي نعم فسقت، صار الواحد، بدل ما يقول: ربي لك الحمد والشكر، صار يتلفت ويقول: منين لفلان، وشلون بس فلان؟ وصار الناس، يا عثمان، لا يصلّون ولا يستغفرون، قتلهم الطمع والحسد، عيونهم مثل الفناجيل، وحلوقهم مفتوحة. وما احد يفتح الله عليه، ويقول له: خذ يا عبدي، حتى تشوفهم يدبون حوله مثل الجراد: مين لك؟ شلون؟ شكثر؟ وتعال اخلص من حلوق الناس، أو ارضيهم.

تنفس بعمق، تنفس أكثر من مرة، وكأنه يحاول تذكر ما يجب أن يقوله، ويواصل ما بدأ فيه، إلى أن تذكر ما اعتبره استمراراً:

- وحنا، يا عثمان، اللي نقول: هذا مع الشرع، وهذا اللي يخالف الشرع، والناس، يا عثمان، مع مصالحها، مع اللي يفيدها، وتزعل وتنتفخ، إذا قلت هذا ما يصير، هذا ما يجوز. فالله العليم، بعدما سولفنا مع شيوخ العوالي، وعلمناهم اللي يصير واللي ما يصير، وهم رادوا الشرع يمشي، وهو فوق الصغير والكبير، من كل بدّ ولازم أن جماعة تضرروا، تلفتوا هنا هنا، وقالوا: الشيخ العجرمي.



تنفس بحزن مرة أخرى، وسأل:

- فهمت شنو هي السالفة يا عثمان؟

عثمان العليان فهم الأمور بشكل آخر، لكنه لا يروق له النقاش، بعض الأحيان، قال بطريقة مسالمة:

- الصحيح اللي تقوله يا شيخنا!

بعد قليل، وبسخرية:

- وإيمان أهل العوالي، يا شيخنا، ضعيف ومزعزع، وما هم مثل أهل موران!

الشيخة عادت مع السلطان، بنفس الموكب وبنفس اليوم. وقد بالغ اثنان من خدم فضة، وأكدا أنهما شاهداها أثناء الاحتفال الكبير، خاصة حين مرت الخيول، وسمعا أيضاً زغردة من المكان الذي كانت فيه، ولم يعرف هل اطلقتها هي أم احدى خادماتها. المهم: أصبحت عودتها مؤكدة، وأصبح وجودها قوياً ومؤثراً، خاصة حين غاب السلطان أو حين احتجب. فقد ذُكر أن السور الذي تعب راكان في اقامته، والذي أدى إلى ترحيل وهيبة وزينة، وثلاث من محظيات السلطان، من أجل تشييده، قد هدم. وصدف أن مرت الشيخة لما بدأ هدم السور، وحين أزيل آخر أثر من آثاره. أما الذين رأوا السلطان ذاته، بعد ذلك بشهور، يزور وهيبة في الجناح الجديد الذي بني لها مكان الجناح الذي هدم من قبل، فقد تأكدوا أن الشيخة، قبل أي إنسان آخر، عرفت كيف تنتقم من راكان. ومما عزّز هذه القناعة أن سرور، زلمة الشيخة، هو الذي تولى نقل الأثاث، والإشراف على الانتقال، ثم الاحتفال الذي حضره السلطان.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فتهاني التي لا يُعرف من يحبها ومن يكرهها في قصر الروض، والتي تُحب أو تعادي دون أسباب واضحة، بالنسبة للآخرين، وربما الأمر ليس كذلك بالنسبة لها، فقد بدت في المرحلة الجديدة كالطاووس، وتجرأت أيضاً على وريدة، الأمر الذي أزعج الشيخة.

فبعد غيابها شهوراً طويلة عن قصر الروض، وعن موران، عادت واثقة متحدية، بل أقرب إلى الاستفزاز. فما لا تحصل عليه من معلومات واخبار

بأسئلة مباشرة، تلجأ إلى الاغراء أو التهديد. فهي تريد أن تبقى عين الشيخة وأذنها، ولذلك يجب أن تحصل على كل ما فاتها من معلومات، وأن تنقلها بطريقتها الخاصة.

الصدام الأول، أو الحقيقي، كان مع وريدة. إذ رغم التحفظ، الأقرب إلى البغض، بين المرأتين، فقد قامت تهاني بالزيارة أولاً، وخلال هذه الزيارة بالغت في إظهار المودة، لكن وريدة ظلت متحفظة: تبتسم، تتطلع باهتمام، تسمع، لكنها لا تتكلم الا بمقدار، وأغلب الأحيان جواباً على سؤال. وحتى الجواب يكون قابلاً للتأويل أو لعدة تفسيرات، الأمر الذي أزعج تهاني تماماً. قالت لها قبل أن تبدأ الردح والكلمات الكبيرة:

- أنا والشيخة امّنا بكِ واعتمدنا عليكِ، فيلزم تقولي لي كل اللي حصل بغيبتنا.

وحين ابتسمت وريدة، وقالت بهدوء، أقرب إلى الرخاوة:

- وبغيبتكم ما حصل الا الخير والسلامة.

ردت تهاني، التي شعرت بالتعريض:

- من أمّنك لا تخونه ولو كنت خاين!

وفجأة تحولت المرأتان إلى قطتين، كل واحدة تريد أن تنهش الأخرى، أن تمزقها، لكن بعد قليل انتبهت وريدة أن تهاني جاءت لزيارتها، فاحتملت، ثم حاولت أن تتراجع، لكي تمر الأمور، وأن تجعل الزيارة تنتهي على خير. فلما تحققت لها هذه النتيجة، وقبل أن ينقضي يوم واحد، لم تتأخر عن زيارة الشيخة، وأن تحكي لها كل شيء، لكنها أضافت، قبل أن تتكلم عما حصل بينها وبين تهاني، ثم بعد أن انتهت من ذلك، مجموعة كبيرة، وهامة، من الأخبار المتعلقة بقصر الروض، الأمر الذي جعل الشيخة تغضب على تهاني، وأن تؤنبها، ليس أمام وريدة، وإنما أمام اثنتين من النسوة، احداهما صديقة وريدة!

ابن العريفان المشغول بهموم قصر الروض، ولا يعرف ماذا حصل بالعوالي، وحائر بين أن يصدق أو لا يصدق ما ينقل اليه، والذي راقب الأمور بكثير من



الحرص والدقة، يشعر، لأول مرة، انه لا يفهم السلطان، أو كيف يفسر تصرفاته.

قال لمهيوب، بعد أن انقضت اسابيع لم يرَ السلطان خلالها:

- التليفون، يا مهيوب، ما يغني ولا يسد مسدّ العين. العين هي اللي تاكل وتشرب، ومن بد ولازم اشوف طويل العمر.

- مشغول، هالحين، يا أبو جازي، وما يقدر يشوف احد.

- بس مسائلنا ما تنتظر، الله يسلّمك.

- اللي نقدر عليه، انا وانت، نسويه، واللي ما نقدر عليه خلّه، فاذا خلص شغل طويل العمر وتعافي، انت أول من يشوفه.

ولناهي الفرحان، وهما يستعرضان المشاكل الكثيرة التي تراكمت خلال فترة احتجاب السلطان، قال وهو يبتسم:

- اسخنا الماء طار الديك...

وبعد قليل:

- كنا نريده يجي حتى نفضّ شغيلاتنا، وبعدها ننفض ايدينا، ونقول له: اعتقنا يا طويل العمر، فحنا من يوم ما خلق الله الخلق ناس دراويش، على باب الله، وهالحين يلزم نسعى في مناكب الأرض ندوّر رزقنا، وغيرنا آلاف، أخير منا، يخدمونك، يا طويل العمر، وغمشي. لكن، مثل ما تشوف عينك، صار من أهل الكهف، وهذا الماخوذ، التليفون، بدل ما يفرّج عنا الهم صار لنا هم: الو: سووا فلان شي، اعطوا، استعجلوا. ويسدّه. وما تعرف شنهو اللي تقوله، ومع من!

قال ناهي:

- الملوك والسلاطين، يا أبو جازي، وانت اعرف مني، ما يتأمنون، وما يتذكرون الا اللي يريدونه، واللي ينفعهم. وحنا، الناس ضاربينا بحجر كبير. كل كلمة والثانية: «الله ربكم، ما احد مثلكم، اللي تريدونه يصير،

واقعين بالرز واللحم، تاكلون وتتسوكون، والناس ما تلقى خبز الشعير. ما يدرون ان كل لقمة سودا، وكل نظرة تحرق. وما عاجبين احد، لا حنا مع سيدي بخير ولا مع ستي بخير. الضرب فوق روسنا، وما يكفي، يلزم من حدر، وتعال احمل وتحمّل!

ابن العليان حاول أن يساعد الآخرين، ان يتحمل الاعباء نيابة عنهم. لكنه في داخله غير مقتنع، ولا يقوى على تغيير الامور، لذلك وصل، في وقت مبكر، الى معادلة مريحة: اتركهم يقولوا ما يريدون، واعمل ما تريد. هذه المعادلة وجدت كل تطبيقاتها في المرحلة الجديدة: فما دام السلطان يعيش في ظل تلك الهواجس التي فجرها البكيري، ولم يخلقها، وبعد تلك الجروح التي جعلته في حالة صحية أقرب إلى نفسية المرأة الحامل، التي تخاف من كل شيء، وباعتبار ان المال أصبح العصب الوحيد، بعد ان انتهت الحروب، لذلك يجب على الانسان أن يكون ذكياً وماهراً، لأن فرصة مثل هذه لن تتكرر مرة أخرى.

قال لابن البخيت ذات ليلة:

- . . . أريدك تسمعني زين يا عبد الله . . .

وعبد الله البخيت الذي تعوّد أن يسمع بين فترة وأخرى من نسيبه كلاماً غير عادي، أو أسئلة غير عادية، وكان يفاجأ، بعض الاحيان، كيف تخطر مثل هذه الأفكار أو الأسئلة له، اصبح لا يستغرب. بل اكثر من ذلك بدا له الامر طريفاً، وكان في حالات كثيرة لا يتردد ان يقول له بمداعبة:

- والله لو كنا، انا وانت، بغير هذا المكان، وبغير هذا الوقت، لكنا حملنا ربابة ودشينا على العربان، انا اغني وانت تسولف، ومني عتابة ومنك سالفة عن الهند أو السند، وعشنا، وربي لك الحمد والشكر!

وبعد أن يضحك ابن العليان بصخب يرد:

- الله يخزيك، الواحد يشتهي يصير ملك أو وزير. ما اشتهيت لنا الا نصير قرباط؟

ويضحك من جديد، وبعد قليل:



- قرباط وجواعا، ووين؟ عند هذول الظلّام، البدو، اللي ما يعرفون ربهم. لا يا ابن آخي، اريد اوقف على تل من مال، والناس تجيني، وما اروح لأي بني آدم، واقول له: عطني مما عطاك الله!

الآن، وعثمان العليان يطلب من ابن البخيت أن يستمع اليه، قدّر ان في الأمر شيئاً غير عادي، قال وقد جمّع نفسه وتحفز:

- كلي، اذان، يا ابو عزيز. . .

وبعد ان هزّ ابن العليان رأسه عدة مرات، وكأنه متردد، قال له عبد الله:

- هات، يا محروس السلامة، وخلنا نشوف شنو هي بضاعتك اليوم!

- مية مرة، الف مرة، قلت لك يا عبد الله: اليوم اللي يروح منك راح عليك. وإذا كنت قبل كم سنة زكرتي، والفلوس، مثل ما كنت تقول: وسخ دنيا، وما تسوى ان البني آدم يتعب حتى يحصلها، لأن كل واحد لاقي خبزته، فاريدك، من اليوم، تصير غير شكل، اريدك تأمّن روحك، تضم تحت وسادتك قرشين، لأن هذي دنيا، وغدارة، ومثل ما شافت عينك بالشهور الماضية، طويل العمر عنفص، وحتى أنا وأنت ما يريدنا، ولا يريد يشوف وجوهنا، وتذكر لما وصلناه بغدير الفارعة: اصفّر، وقال: شنهو اللي جابكم؟ ولما قلنا: الشوق، وما لنا غنى، انفرد، وقال: ابن الحلال عند طاريه، ومن توّي اسولف عنكم للربع، واقول: من بد ولازم نطرّش واحد من الخويا حتى تجوّنا.

توقف عثمان، وهو يهز رأسه بحزن، وبعد لحظات صمت طويلة، تابع بلهجة جديدة:

- وانت ادرى بالسوالف التالية، يا عبد الله.

رد ابن البخيت بنزق:

- ما عرفت شنهو اللي تريد تقوله، يا ابو عزيِّز.

- تذكر شلون صار لما قلنا له: سفرة العوالي مالها لزوم، يا طويل العمر؟ وتذكر

شلون تغير وتنكد لما قلنا كلمة والثانية عن مشرف البكيري؟

- اذكر، يا أبو عزيّز، وبعدها؟

- اريد اقول لك، يا عبد الله، ان المال، بهذي الدنيا، كل شي. اذا معك قرش تسوى قرش، أما إذا كنت مفلس فما يناظرك احد، ولا أحد يقول لك مرحبا يا ولد.

قال ابن البخيت بيأس وألم:

- المال ما هو كل شي بهذي الدنيا، يا أبو عزيّز.

- لكن الدنيا بليّا مال ما تسوى يا عبد الله. البني آدم ينذّل، يتعب. والناس تهرب منه. وهو، نفسه، يخجل ويهرب، وبعدها ما يدري يروح لمن أو شنهو اللي يسوّيه.

تنفس عبد الله البخيت من رئتيه، وصمت طويلاً، ثم قال بحزن:

- خلنا من هذي السالفة يا عمّ، لان هذي السالفة، مثل اغنية الشيطان ما لها تالي.

- خليناها، وسولف انت هالحين.

تلفت عبد الله البخيت اكثر من مرة، وكأنه يخاف أن يسمعه احد، أو يحاول أن يكسب وقتاً، لكن حين لابت في رأسه، وتذكر أموراً كثيرة، احتقن وجهه فجأة، وقال بحدة:

- واريدك تعرفني زين، يا أبو عزيّز...

شعر عثمان العليان، من الصمت، من اللهجة، ثم احتقان الوجه، ان عبد الله البخيت سيقول كلاماً خطيراً. ولكي يقطع الطريق عليه، ابتسم، لكن ابن البخيت تابع:

- إذا جيتك محتاج، يوم من الأيام، يا أبوعزيّز، اذا قلت لك عطني، فكل ما أريده أن تقول: الله يعطيك. وإذا متّ، وأولادي احتاجوا، فانت خلك



بعيد، لا من شاف ولا من سمع.

ضحك عثمان بصخب ليمتص هذا الاحتقان، ولكي يعيد الحديث إلى مجراه، وبعد فترة صمت، قال:

- الله منك يا عبد الله، نفسك حامضة، وكل شي تحسبه عليك...

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

- اللي اريده لك، يا ابو بادي، فوق اللي تتصوره. أريدك تتحرر حتى من السلطان. عندك قريشاتك وتقدر تروح للمكان اللي تريده، واذا رحت ما تخاف وما تحسب؛ أما هالحين فاشوفك مربوط، وطويل العمر إذا زعل أو رضي تصير فوق الريح أو تنزل اسفل السافلين.

ولم تنته المناقشة بين الاثنين، لكن تركتْ الأسئلة والقلق!

خزعل الذي عاد مع أبيه الى موران، وكان بادي النشاط والمرح، رغم الجروح التي أصابته في كتفه الأيمن، وفوق الساعد، وفي راحة يده اليسار، وقد ظلت اليد مربوطة لعدة أسابيع، لأن نزاً أصاب الجرح، وجعله متقيحاً فترة طويلة، وقيل أن رأفت شيخ الصاغة أخطأ أو أهمل في تضميده، وفي فترة لاحقة أصبح الجرح رمزاً يفاخر به كعنوان لبسالته؛ استطاع خزعل أن يفرض وجوده وهيبته على القصر، سواء في استقبال الوفود، أو في تثبيت صيغة جديدة، ومختلفة للقصر عن السابق، أثناء غياب السلطان. ورغم محاولاته أن يكون ودوداً مع أخوته، بمن فيهم راكان، الا أن الاستجابة، من راكان بالذات، أو الذين كانوا إلى جانبه، بدت محدودة، بل وأخذت في بعض الحالات، مظاهر العداء والتحدي، خاصة أثناء اعادة تنظيم مخازن الاسلحة واسطبل الخيول.

ورغم الكثير من الود الذي ميز تصرفات خزعل، وقيامه بكل الواجبات، بما في ذلك زيارة المسنين في العائلة، وتقديم الهدايا، والسؤال عن النساء، فإن العداء الذي قوبل به لم يكن يخفى.

قالت تهاني لثلاث من نساء السلطان، جئن لزيارة الشيخة، قبل أن تدخل عليهن الشيخة:

- الحمد لله، خلصنا من راكان وأمه...

وبعد قليل:

- وخزعل، الله يسلمه، ما مثله

أما الشيخة، فقد كانت أوضح:

- ... ويا بعد عيني خزعل: قوي وقلبه جَسر. ما جا الأول إلا ورماه؛ ولما جا الثاني لطمه ودفره؛ ولما جا الثالث، وغدْر، ومن وراه، ما شافه، فطعنه أول طعنة، وطعنه الثانية، لكن ابد، ما قال: آخ. وظل يضرب بيده اليمنى ويحمي أبوه باليسار. ولولا أنه خشن، وقوته، الله يسلمه، مثل الجمل، والا راح وراح معه طويل العمر. تحمل، صبر، والجرح، وهو حامي، ما يحس به البني آدم. بس الله نجاه. الملائكة حمته، كانت تتلقى عنه خناجرهم وسمومهم. كانت الخناجر مسمومة، يا جماعة الخير، لكن الله هو الحامي.

ونساء السلطان اللواتي يسمعن هذه التفاصيل، كانت تتقلص وجوههن، وتنقبض اجسادهن، وتصدر عنهن أصوات صغيرة، هي بين اللذة والخوف، وكأنهن يشهدن الخناجر وهي تهوي مرة أخرى من جديد.

قالت الشيخة، لكي تختم هذا المشهد، ولكي تعرف الجديد الذي يجري في قصر الروض:

- أولاد الحرام كثر. وهذه السالفة تنذكر ما تنعاد...

وابتسمت ابتسامة واسعة، وهي تمرر اصابعها حول فمها، وتسأل:

- يا الله... صارت تواريخ وأمثال؛ وانتن، انشاء الله ما وراكن خلاف، بعدما راح اللي تحكمه مرية؟

قالت سكينة، وهي تنظر، بسرعة:



- ما دمت انت بخير، يا أمي زهوة، حنا بخير، وما دام طويل العمر سالم ودايم، وفوق روسنا، الدنيا بألف بخير.

قالت امي زهوة بثقة:

- وكلّن الله، يا جماعة، فابو منصور خيّال الشقرا، وخيّال الكحلة...

وغصّت بالكلمة الأخيرة، وبدا انها أخطأت، قالت بحدة:

- كانت الكَحلة، عند طويل العمر، تسوى الدنيا، لكن ابن فضة، الأرعن، كيس الشحم، تصور نفسه رجّال، وبدل ما يحطها بعينه، لأنها فرس أبوه، واللي لها الفضل في الحويزة والعوالي، كدّشها، وبعدين قتلها، لكن لكل ظالم يوم...

قالت تهاني، بانفعال، وليس من عادتها ان تتكلم:

- لكن مثل ما قالوا، يا عمتي: غاب البس العب يا فار.

قال فنر:

- أهل العوالي اخبث من الحيات، سوالفهم زينة لكن افعالهم شينة، وابد ما يتأمنون...

قال ذلك لثروت، وقد عاد لتوه من عين دامة، حيث ودع أباه هناك. كان متعباً، بادي الشحوب، وكان منفعلاً أيضاً. وفي مثل هذه الحالات، فإن دواء هاملتون وحده يجعله في حالة أفضل. بعد أن تناول جرعات، قال بمرح:

- ومن اليوم يلزم أن الواحد يكون معهم العن من ابليس، يضحك بوجوههم، يقول لهم: ما يخالف، بس ما يسوى الا اللي بباله.

قالت ثروت بحنان:

- كنت خايفة، وكنت أريدك تكون قريب!

- كنت أريد أصل معه الى موران، لكن ابد، رفض، قال: حدك عين دامة وترجع، ورجعت.

ضحكت بفرح، اقتربت منه، قالت بهمس:

- ومن اليوم لازم تحرص، وتدير بالك زين، لان أولاد الحرام ما يتركون احد يرتاح!

هز رأسه، نظر بتحديد، لكن لم يكن يرى ما حوله، كان يفكر بما يجب أن يفعله. لأول مرة يحس أنه أهين، فكل ما افترضه ذكاء وقدرة على السيطرة، تكشّف، في لحظة، عن هشاشة كادت تهدم ما بني خلال سنوات طويلة. ليس ذلك فقط، كان أبوه، خلافاً لفترات سابقة، صامتاً، أقرب إلى التحفظ. حتى طريقة الطلب إليه ان يبقى في العوالي، والا يرافقه الى موران، بدت جافة، وتشبه الرفض. نظر إلى القلعة، حين كان يكلمه، وقال:

- بعد ورانا سوالف كثيرة، يا فنر، ويلزم نفتح قلوبنا قبل عيونّا.

وتمثلت له صورة خزعل: لأول مرة يراه واثقاً هكذا. وكان أبوه ينظر اليه بمحبة أقرب إلى الإعجاب. استرق النظر عدة مرات، وفي كل المرات كان أبوه يتابع خزعل، يتملاه. الصدفة وحدها جعلت خزعل قريباً منه، وبالتالي لان يبذل كل قوته من أجل حماية نفسه وحماية ابيه. وما ذنبه إذا كان ضعيفاً هكذا؟ إنه لم يختر هذا الجسد، لقد ورثه كله، فإذا كان خزعل قد ورث جسده من أبيه، وجزءاً من أخواله، فليس ذنبه أن يرث جسده هو من اخواله وحدهم. انهم أقرب إلى الضمور، لأنهم بذروا حياتهم من أجل اقناع الناس، لحملهم على أن يكونوا شيئاً مختلفاً. لم يعرفوا الراحة يوماً واحداً، ولا عرفوا الاستقرار. ولذلك أكلت الصحراء أرجلهم وهم يركضون، لم يكونوا مثل غيرهم، كان لديهم هم يعذبهم، وهذا ما جعل أجسادهم تضمر، مقابل تفتح عقولهم ونموها.

وامتلأ بمشاعر متناقضة، هي مزيج من الفخر والحقد. كان يتمنى لو أنه ورث من أبيه جزءاً من هذه القوة. وتساءل ماذا لو أنه كان الأقرب إلى أبيه، أو لو كان بدل خزعل؟ هل يستطيع أن يرد القتلة؟ أن يمنعهم من اتمام جريمتهم؟ والا يكون هو الضحية الأولى قبل أبيه؟



قالت ثروت، وهي تستعيده من المكان البعيد:

- أمي تقول أن الأطفال والحكام تحميهم الملائكة، ولولا ذلك لما بقي طفل سليماً أو حاكم حياً. قلت لها: الملائكة تحمي الأطفال، أما الحكام فيجب أن يعرفوا كيف يحمون أنفسهم!

ضحك، وقال بمداعبة:

- أنت وامك تعرفن كل شيء!
- لا. صحيح، يجب أن يكون الحاكم في هذه البلاد غير ما هو عليه الآن.

نظر إليها بود، سأل والابتسامة تملأ وجهه:

- شلون يلزم يكون؟
- لا أدري، ولكن طريقتكم غير معقولة.

فتح عينيه جيداً، تابعت بحدة:

- بيوتكم مفتوحة، والناس تدخل وتخرج، وكأنها داخلة إلى بيوتها، وأنتم بين الناس دون حساب، ودون حراسة.

وكادت تسترسل، لو أنه هز يده بطريقة أصبحت تعرف معناها، وبعد قليل قال كأنه يخاطب نفسه:

- وكلي الله يا بنت الحلال، وما يصير الا اللي كاتبه الله.

موضي كانت «المشرفة» الطبية طوال الفترة التي قضاها السلطان في العوالي. إلى ما قبل هذه الحادثة، لم تتصور نفسها أنها قادرة على رؤية دم ينزف، أو إنسان يتألم. بل أكثر من ذلك كانت تصاب بالغثيان، وتمتنع عن الأكل، إذا صدف أن عرفت بوفاة أحد تعرفه. وكان معظم الذين حولها يعرفون هذه الصفة فيها. أما بعد محاولة الاغتيال، فقد أصبحت امرأة أخرى. إذا تركت غرفة أبيها في القصر، فإلى الغرفة المجاورة، لأن أحداً من الرجال جاء. والسلطان الذي لاطفها كثيراً، اكتشف أنه يحبها أكثر من بنات أخريات له، وأنه يريدها أن تكون قريبة. أما حين طلب منها أن ترافقه إلى موران، لكي تواصل العناية به،

فقد قالت، وخرجت كلماتها متلعثمة:

- أرافقك لأي مكان تريده، بس ما اريد ازعّل فنر!

رد وهو يقهقه:

- خلي فنر عليّ.

ولم يستأذن السلطان فنر، قال يبلغه:

- موضي رايحة معانا!

سأل فنربخوف، اذ خشي أنها قد تتزوج، وأن أباه وعد أحداً:

- وسفرتها، طال عمرك، طويلة؟

وضحك السلطان، وترك الأمر غامضاً، حين قال:

- إذا ملّتنا أو ملت موران، نلقى لها مكان ثاني!

وسافرت موضي إلى موران.

قال هاملتون بعد أسابيع من سفر السلطان:

- . . . وذكرت للسلطان، أكثر من مرة، أن اتخاذ الاحتياطات ضروري، خاصة في بلد تعود الناس ألا يشعروا بفرق بينهم وبين الحاكم. لقد صلى جلالته في الجامع نفسه ثلاثة أيام متوالية، وكان رأيي الا تصبح الصلاة أو أي شي غيرها عادة أبداً، سواء في المكان أو الوقت. وقلت له: إن الحراسة ضرورية، خاصة في الأماكن التي يدخلها الناس دون استئذان. غضب جلالته، وقال: وتريدنا نحطّ الحراسة على بيوت الله؟

وابتسم هاملتون، كأنه كان يتوقع ما حصل:

- بعد المحاولة ذكّرته، قلت له: لقد صحّت مخاوفي. رد: الله، سبحانه وتعالى، كاتب كل شيء باللوح المحفوظ، والإنسان، مهما حرص، ما يعرف تجيه منين. قلت له: ولكن الرسول، عليه الصلاة والسلام قال: اعقلها وتوكل،



وهذا معناه أن يحتاط الإنسان، أن ينتبه، لكن. . .

وفي مذكراته كتب هاملتون: «البدائية حالة متكاملة، ولا يمكن أن تتجزأ. وهذه الصفة تنطبق على الصغير والكبير، الحاكم والمحكوم. السلطان يعتبر الحديث مع الناس، أياً كانوا، ومهما قضى معهم من الوقت، الصيغة التي تجعله قريباً ومحبوباً. بل ويبالغ، في أحيان كثيرة، فيقضي الساعات الطويلة مع أناس عاديين تماماً، يسأل عن المطر، وعن الأماكن، ويتوقف، ويستعيد، وهؤلاء البدو إذا كانوا ماهرين بشيء فان يتكلموا الساعات الطوال دون أن يعنوا شيئاً، ودون أن يقولوا فكرة هامة. ان الزمن بالنسبة لهم يشبه الصحراء، ويشبه الريح، ولذلك تراهم، أغلب الأحيان، يتأملون أو يكررون ما سمعوه، وهم بذلك يشبهون ذرات الرمل أو هبات الهواء.

أما محاولة الاغتيال فإنها إنذار خطير. لا تزال الاحقاد تملأ الصدور، ولا يزال الناس قادرين على تذكر الاشياء التي تزعجهم، وقادرين أيضاً على الانتقام. طبيعي كل ذلك يجري بأسلوب بدائي أيضاً، والا، لماذا لم يحاول القتلة، استعمال السلاح المتطور بدل اللجوء إلى هذه الوسيلة البدائية؟

قالوا لي، في تفسير هذه الظاهرة، أن البدو، رغم محبتهم للسلاح، فإنهم يعتبرون السكين، أو ما يشبهها من الأدوات، الوسيلة الأفضل للانتقام. يحس الواحد وهو يغرز السكين في صدر عدوه أنه ينتقم فعلاً، اذ يقبض على الضحية، ويتفنن في انهاء الحياة، كعلامة للنشوة والامتلاء. أما من بعيد، فإنهم إذا اعترفوا، فيعزون الأمر للمهارة، أكثر مما هو للقوة أو الشجاعة. ويبدو لي أن هذا ما دفع الذين قاموا بالمحاولة لاستعمال هذه الوسيلة. وفي ذلك دليل على عمق الكراهية، ورغبة الثأر الحقيقية، واستعداد للموت من أجل ذلك!

إن قوة الجسد، في أحيان كثيرة ميزة في هذه البلاد. لأول مرة أشعر أن فنر يخجل بجسده. ولأول مرة يبدو لي خزعل قادراً على أن لا يكون مجرد وعاء للجنس أو الأكل. ذكروا لي أنه كان يهزج ويده مرفوعة ومليئة بالدماء!

ان الشعوب البدائية جديرة بالدراسة، لأنها لا تعكس الصفات الأولى، وربما الأساسية، في الانسان فقط، وانما تحدد أيضاً نمطاً من العلاقات والصيغ اصبحنا

نجهلها، لأننا ابتعدنا عنها كثيراً، ومن هنا ضرورة أن ينخرط الإنسان في هذا المجتمع أكثر فأكثر من أجل أن يصل إلى أعماقه، وأن يفهمه بدقة، لكي يتوقع ويستنتج ما يمكن أن يتمخض عنه.

عادت موضي بعد أن قضت ثلاثة شهور في موران. قالت لفنر أن اباها شفي، وأنه ينوي أن يتزوج من جديد، وقالت أن خزعل في الحويزة، كما أشارت إلى أن أباها لا يكف عن ذكره وامتداحه، ويبعث اليه بتحياته الحارة وأشواقه الكثيرة.

وحين سألها من جديد وبالحاح عن صحته وحرجه، أجابت من بين الدموع التي سقطت فجأة:

- يعجب وما يعجب، يوم زين ويوم ما هو زين، وما أدري.

وساد الصمت، وبدأ فنر بالتفكير!



محاولة اغتيال الشلطان، التي شغلت الكثيرين، وكانت حديث الناس في الأسواق والمضافات، وسبباً لتساؤلات لا نهاية لها، ما لبثت أن تراجعت، أو تباعد الحديث عنها، خاصة بعد أن احتجب السلطان ولم تعد تسمع أخباره.

شمران العتيبي، الذي رجع من الزرنوق لم يكتف بالأخبار التي وصلت إلى سوق الحلال عن المحاولة، ذهب إلى الكثيرين، بمن فيهم عدد من خدم القصر وحراسه، وسألهم، قارن بين الروايات فداخله القلق والشك. أما حين غاب السلطان، وقال صالح الرشدان «رجعت حليمة لعادتها القديمة»، فقد رد عليه شمران بحدة:

- اسكت يا معوّد، لأن غيبته هذه المرة أكبر من عرس وأكثر من حصرة صدر.

وحين تطلعت إليه العيون بتساؤل، هز رأسه وخفّض صوته:

- مخوطرة يا جماعة الخير، لأنه حتى ابن البخيت نشف ريقه يريد يقابله... وابد، لا اي ولا لا، وهذا أنا سامعه منه.

- وبعد يا ابو نمر؟
- اذا بعده حيّ وعدل نسمع اخباره، واذا لا والله نسمع خبره.
- والى ذاك الوقت نضرب اخماس بأسداس يا أبو نمر؟

هكذا سأل مغامس الحصيني، فرد صالح الرشدان، وهو ينهض ليواصل حذو حمار:

- يلزمنا نبيّت خيرة، او نطّرش الحريمات ينشدن جماعة القصر، واذا ما فاد لا هذا ولا ذاك، فما لنا الا نحذي خيلنا زين، لأن ورانا مشي ليل.

قال شمران بثقة، وهو يحرك رأسه، وكأنه يشير نحو القصر:

- الاخبار الزينة بهذي الأيان تنضمّ يا صالح، والشينة ما احد يقدر يضمّها، فسدّ خشمك احسن ما تذبحك رياح مغرّب!

وانشغل الناس، من جديد، بتدبير أمورهم، ولم يحفلوا كثيراً بالخصومة الجديدة التي دبت فجأة بين العجرمي وابن شاهين، ومعها القصص والنكات تنتقل بين حي سبيع والقلعة. واذا كانت العادة في خصومات مشابهة ألا يكون السلطان بعيداً، وقيل انه كان يحرّض عليها، من خلال الاستفسار والأسئلة، وبعض الأحيان بتعليقات ساخرة، فاذا وصلت حد الخطر، أو طغت على ما عداها من القضايا والاخبار، فلا بد أن يتدخل، عن طريق رجاله ورسله أول الأمر، ثم بالهدايا، حتى اذا أوشك الاثنان على الرضا، يدعوهما الى وليمة ويدعو اليها الكثيرين، وفي هذه الوليمة يتصالح الرجلان ويتعانقان، تحت أنظار الجميع، ووسط كلمات الاشادة والثناء، ويكون السلطان، دائماً، القمر الذي يسطع ويضيء، وموضع التقدير.

هذه المرة، حين دبت الخصومة، وتجاوزت ما كان مقدراً لها، وتوقع الذين يعرفون ان يظهر السلطان ويضع حداً لها، أخذت توقعات شمران تجد ما يؤيدها، فالأخبار التي تسربت عن طريق الخدم، أو عادت بها النسوة، رغم غموضها وتناقضها، بدأت تنتشر وتولد الخوف. وحين تساءل مغامس الحصيني في سوق الحلال عن أخبار العجرمي وابن شاهين، أيهما المصيب وأيهما المخطىء، وما اذا سيتدخل السلطان، فقد رد شمران بسخرية:

- طوشة خرسان وعزيمة عميان، يا ابن الحلال. أما من هو أحسن من الثاني فالكلب اخو السلوقي، فلا تدوخ روحك يا مغامس، ولا تقرب بلشتهم!
- والعود يا ابو نمر؟

- العود اذا عاد راح يخرب البلاد ويفني العباد!

وأشار شمران للذين حوله ان يقتربوا أكثر، وأخذ يروي، بغموض، ما سمعه عن حالة السلطان:



- ... وقالوا: يسهر الليل بطوله، ما تغمض له عين، ويدربس البيبان بيده، وما يريد يشوف احد، واذا سمع حركة او صوت عمّر سلاحه وصاح ذاك الصوت: قف. ويقول غيرهم: من يوم ما انصاب مسدوح، وبين الموت والحياة، واللي شافوه يقولون ما منه أمل، اذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، وما يندري!

بالاضافة إلى هذه الأخبار عادت النسوة بأخبار من نوع آخر: «بعد يوم الغدر تاهت عليه، ما يعرف حريمه من حريم غيره، وكل ليلة، من بد ولازم، زواج جديد، بنت بكر، بعمر بنات أولاده، يقصّ ويمشي، وهاتوا غيرها، وما ينعرف سوالف صدق أو سوالف عدى وحاسدين».

وحين تُسمع في السوق العتيق مثل هذه الأخبار يصيح حائك مسن:

- ما لنا الا شيخنا، العدوي، فهو يقول: «وأن أُخذ قضيب الذئب بحيث لا تراه الشمس، بل يكون ذلك قبل طلوعها أو بعد غروبها ثم جفف في الظل وسحق وشرب منه فإنه يذهب شهوة الجماع» «وإذا أُخذتَ من شجرة مريم وسحقتها وعجنتها بماء النعنع وجبّتها مثل دانق وسقيت منها حبة انقطعت الشهوة لسنة وحبتين لسنتين».

رد عليه حائك في مثل سنه:

- اسقيه مية حبة، خلنا نخلص منه!

قال بائع البسط الذي يتعامل معهما:

- أو ندوّر على شهرزاد عساها تخلصنا من هذا الغضب!

انتهت الخصومة بين العجرمي وابن شاهين، أو على الأقل علقت لفترة، لما توفي أحد أولاد ابن شاهين. مات فجأة، فتوقفت الشتائم والنكات، ولم ينتظر العجرمي، بادر بحمية، لفتت نظر الكثيرين، بزيارة دار المتوفى أولاً، ثم في

الصلاة على الميت وتلقينه، وأخيراً بالوقوف الى جانب غريمه والناس يعزونه. وفي اليوم التالي، قبل غروب الشمس بقليل، شوهد، وكان الى جانبه، ناحية اليسار، في السيارة السوداء، معتمدي، يغادر موران باتجاه العوالي. وبعد أكثر من أسبوع عُرف أنه سافر الى عين دامة.

قبل أن ينقضي شهر على سفر العجرمي بدأت تخرج من قصر الروض أخبار مقلقة، لكنها أكثر وضوحاً.

قال مهيوب لعرفان الهجرس:

- اللي أصعب من الموت، يا عرفان: خوف الموت.

وتغيرت لهجته تماماً، بدا وكأنه يحدّث نفسه:

- . . . الشي اللي يدوخني ويحيرني: اني من يوم ما عرفته، قبل عشرين ثلاثين سنة، وبمعاركنا كلها، بالحويزة والجمرة، بالرحيبة والعوالي، وقبلها وبعدها، ما هجست يوم من الأيام أنه يهاب الموت، وكان الموت أقرب له من حبل الوريد. ما هو بس كذا، كم مرة تعرّض للذبح، للاغتيال؛ كم مرة انجرح، وكم مرة قلنا خلص، لكن ابد، ينفض الموت وهو ينفض عباته، ويقول: يا الله يا جماعة الخير. . .

توقف. هز رأسه عدة مرات. صفن، وبعد وقت غير قصير:

- والجرح اللي صابه، يا عرفان، ما يبيّن هالحين، لكن الظاهر انه غار بالقلب، وهناك يدبي، وظني انه ما له منه شفا.

كتب رأفت شيخ الصاغة في مذكراته ما يلي:

« . . . البناء القديم، الذي كان يبدو قوياً راسخاً، أخذ يتصدع، ولن يطول به الأمر، كما أقدر، الا وينهار. لقد كان مثل الصخرة الكبيرة يسندها حجر صغير، فلما أزيح هذا الحجر اهتزت ولا تلبث أن تتهاوى، هكذا هو وضع السلطان الآن. فالثقة التي كانت تملؤه طوال السنوات السابقة، أصبحت شكاً قاتلاً، والشجاعة التي كانت تفيض منه على كل من حوله، ويعرفها خصومه،



تحولت إلى حذر أقرب إلى الخوف. أما مظاهر القوة والجبروت، وكان يدلّ بها على أعدائه وأصدقائه معاً، فإنها الآن تثير الحزن والرثاء.

«ما أرجّحه أن الإصابة ليس من شأنها أن تؤدي إلى هذه النتائج والمضاعفات. صحيح أنه لم يلتزم التعليمات بدقة، وامتنع، خلال فترة، عن تناول أدوية الالتهابات، مما أدى إلى تقيح الجرح مرة وثانية، لكن الأكثر أهمية من الاصابة، أن هذا الجسد المكابر، والذي يبدو قوياً في الظاهر، كان مليئاً بالأمراض المزمنة، وبعضها وراثي، مثل العقد السلّية في الكليتين وفي الرقبة، وقد أخذت تتحرك بسرعة الآن، وربما يكون لها مضاعفات، قد تظهر خلال فترة غير بعيدة.

«مع ذلك، وبالرغم من عناده، ورفضه للأدوية، مثل أي بدوي جاهل، وعدم تقيده بالنظام الغذائي الملائم، اضافة إلى إرهاق جسده بالممارسة الجنسية، لا بد من عمل شيء من أجل وقف التدهور، حتى لو اقتضى الأمر ارغامه على دخول المستشفى».

وقصر الروض، بعد الخوف والصمت اللذين استمرا شهوراً عديدة، أخذ يتململ. بدأت المناوشات بينه وبين القصور الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، في موران وما جاورها، والتي تسكنها، في الغالب، الزوجات الجديدات. ومناوشات أخرى بدأت أيضاً بين هذه القصور مجتمعة وقصر الغدير. صحيح أن خزعل يبدو ودوداً متواضعاً، ولا يكاد يفارق قصر الروض، وأصبح، خلافاً لفترات سابقة، لا يسافر، أو لا تطول سفراته إذا اضطر للسفر، إلا أن ما يدور داخل هذه القصور، وما ينتقل إلى موران من الأخبار والاشاعات، جعل الكثيرين في حالة من الترقب والخوف.

قال عبد الله البخيت لطالع العريفان الذي جاءه راجياً أن يعمل شيئاً لكي يحمل السلطان على وضع حد لخصومات النساء:

- وتكتب معروض، يا أبو جازي، وتوقعه وتندندشه بالاختام الحمرا والخضرا ولا تنسى الزرقا، وتبيّته تحت السما ليلة والثانية، وباليوم الثالث تنقعه وتشرب مياه، وبعدها يصير خير: اما يقابلنا السلطان أو نقابله، وإذا لا

هذا ولا ذاك، ندوّر على مشرف البكيري عسى أن يفتح لنا على الجنة باب.

وحين بدا الضيق على طالع العريفان من هذه السخرية، قال ابن البخيت بيأس:

- يا طالع، وانت أدرى الناس، طلعت أرواحنا وحنا ندقّ بابه، لكن لا حياة لمن تنادي.
- والحلّ يا أبو بادي؟
- لا أمر لمن لا يطاع...

وبعد قليل:

- تسودن يا أبو جازي، وفوقها الفزع والمرض وما تدري بعد شنهو، وما دمت صبرت كل هذي الشهور، فبعد اصبر، وعسى أن الله يفرجها، وتنتهي على خير!
- ما أظن يا أبو بادي، لأن المكتوب يبيّن من عنوانه، ولأن السودا هذي النوبة غير عن كل نوبة.

ومثلما غاب السلطان غابت بعض نسوة القصر. قيل: فضة عند أهلها، وكذلك العنود. ولم يعرف ما إذا سافرت نتيجة غضب السلطان عليها أم لا لأسباب أخرى. وقيل إن فضة لم تفارق قصر الروض ليلة واحدة، وبالغت واحدة من خادماتها، وردت عندما سئلت: «ستي ابد ما تركت حجرة السلطان»، وضحكت! أما أمي زهوة فهي الغائبة الحاضرة أبداً. تغيب أياماً، تمتد لأسابيع، ولا يعرف إن كانت موجودة أم مسافرة، لأنها في كل المرات تترك ما يدل على وجودها بشكل أو آخر. فإذا لم يبق سرور، فلا بد أن تبقى تهاني، وحين يغيب الاثنان وتغيب، فحسيبة البصرية، التي تصنع القهوة والشاي لأمي زهوة، لا بد أن تدور في قصر الروض، متعمدة أن يراها الكثيرون، ولا ترضى بأية دعوة توجه إليها للبقاء، أو لاطالة الجلوس في مكان، «لأن الشيخة اذا ما طلبت الشاي هالحين لا بد تريد القهوة» وتسرع في سيرها، أو تنهض باستعجاب، لئلا تتأخر وتعرّض نفسها لغضب الشيخة! وحول حضور الشيخة



أو غيابها يمتلىء قصر الروض بالهمس عن البخور الذي أمرت باشعاله، أو أشعلته بنفسها، مع الأدعية بأصوات عالية، ترددها نساء سوداوات، والتي ملأت القصر كله، وأخذ هذا يتكرر مرتين، على الأقل، كل أسبوع، ليلة الاثنين وليلة الجمعة. وأكد عدد من الحرس والخدم أن الشيخة كانت تحرص على دعوة عدد من الفقراء مطلع كل شهر، وأكد غيرهم أن هؤلاء ليسوا فقراء، أو لم يدعوا لأنهم فقراء، وإنما لمعرفتهم بالسحر والتنجيم، إذ حالما يفرغون من الأكل، تبدأ الطّبول والابتهالات والقاء الملح والبخور في النار، وقيل انهم في الليل المتأخر يدورون سبع مرات حول القسم الأوسط من القصر، حيث يقيم السلطان، حاملين أكياساً من الملح، وربما أشياء أخرى، ينثرونه في الزوايا بعد أن يقرأوا عليه.

المرات القليلة التي شاهد الكثيرون أمي زهوة تنتقل من مكان إلى آخر، كانت مسرعة، وكانت ساهمة أقرب إلى الحزن، وربما هذا ما دعاها لعدم الرد على التحيات التي كانت توجه اليها، وقيل لأنها تكون صائمة عن الكلام، فقد نذرت الا تكلم أحداً قبل أن يشفى أبو منصور!

وأبناء السلطان يتحركون، لكنهم، هذه الفترة، مع أقربائهم لأمهاتهم أغلب الأحيان، متجنبين زيارة بعضهم، وإذا اضطروا للزيارة، فإنها تتم ضمن حشد من المرافقين والحرس، ولا تدوم طويلاً، كما تخلو من أي ود، وكأنها استعراض للقوة والأهمية، اضافة إلى عدم الرغبة في أي حديث طويل أو جدي، لئلا تشي الكلمات بما وراءها من مواقف ونوايا.

قال ابن العليان لعبد الله البخيت، بعد زيارة قصيرة للسلطان:

- ابد ما يعجب يا أبو بادي...

صمت قليلاً، وكأنه يستعيد صورته، ثم تابع:

- أفكاره تايهة وعيونه شايحة، وضيّع الأول والتالي...

ضحك بحزن وأضاف:

- قلت لروحي اذا قعدنا وتواجهنا لا بد تنحلّ المشاكل، لكن تعيش، طلعت لنا

هالحين مشاكل جديدة.

- خير يا أبو عزيّز؟

- «تدزون على منجمي المشرق والمغرب، على منجمي الهند والسند، تجمعوهم هنا، بموران، يوم، اثنين، أسبوع أسبوعين، وأريد جواب على سؤال واحد: أموت موت الله أو بيد العبد؟ ومتى؟

يزفر ألماً ويضيف:

- وكل ما أريد اطمنه وأغيّر الموضوع، يرجع من جديد: «يا عباد الله سويت لهم اللي ما يتسوى، اللي ما يسويه بشر، وبعدها يريدون يذبحوني؟ يريدون أموت موتة كلب؟ لكن يخسون، أنا ما أحد يقدر عليّ، وما أموت» ومن جديد نطيب خاطره، نطمنه، لكن أبد ما يفيد: «أنا أعرف كل شي يا ابن العليان، وقبل ما أذبحهم، وقبل ما يذبحوني، أريد أتأكد» ولم يترك أحداً من أولاده أو أهله الا وسماه، واعتبره غريماً. ولو أخذت وأعطيت معاه يجوز اعتبرني أريد أذبحه، وبعدها ما تدري شنهو يطلع منه!

ظل القلق والتساؤلات، ثم الخوف، هكذا، بضعة شهور. الناس الذين انشغلوا بأخبار قصر الروض والسلطان، وبتحركات أبنائه ونسائه، أو بخصوماتهم، ولأن لا جديد هام وكبير، فقد ملّوا. تراجعت أسئلتهم، ثم مخاوفهم، إلى أن نسوا أو تناسوا. حتى شمران الذي اهتمّ وتوقع ما لبث أن تراخى إلى أن نسي الأمر تماماً. قال لمغامس الحصيني حين جاء يسأله عن صحة السلطان:

- لا حي فيرجى ولا ميت فينسى!
- وقريشاتنا، يا أبو نمر؟

- الداخل مفقود، والخارج مولود!
- ولكن الحي يلزمه يدفع يا شمران، والميت، قبل القسمة، تتوفى ديونه.

- سل ابن شيخ الصاغة ان كان بعده حي، أو سل العجرمي ان كان صلى عليه.



- يعني خيلنا راحت وقريشاتنا ماتت يا أبو نمر؟
- هذا ابن عليان، هو أمين الصندوق، هو اللي يقبض واللي يدفع.
- قال لي: المعاملة خالصة، بس ورقة من يد طويل العمر، وحنا جاهزين!

- دوّر اهلك يا ابن الحلال، غب شهر اثنين، وبعدها تعال، عساه يكون انصمد أو انلحد، عندها يجوز تحصّل فلوسك، لأن الخيل راحت عليك.

هذا الاهتمام الذي كان يبديه مغامس الحصيني، لأنه باع ثلاثة رؤوس من الخيل الى لقصر، ووعد أن يسدّد له ثمنها بعد عودة السلطان في العوالي، أما بعد محاولة الاغتيال، وبعد ما جرى، فلم يجرو أحد على اعادة الخيل أو دفع ثمنها، وهكذا ظل الأمر معلقاً.

ظل الأمر معلقاً بضعة شهور، إلى أن جاء فجأة هاملتون.

ما كانت زيارة هاملتون الى موران لتلفت النظر، أو لتثير كل هذا الاهتمام، لولا النتائج والأحداث التي أعقبتها. صحيح أن الزيارة كانت قصيرة جداً، إذ لم تتجاوز ليلة وجزءاً يسيراً من اليوم التالي، ولم يرافقها احتفال أو ضجة، كما لم تتسرب عنها أخبار هامة، لكن، مع ذلك، لم يبق أحد، تقريباً، في موران، ثم في انحاء عديدة من السلطنة، الا وعرف أو سمع بها، خلافاً لزياراته الكثيرة التي سبقتها، وتلك التي أعقبتها أيضاً.

إذ ما كاد هاملتون يصل قصر الروض، وقد وصل عند الغروب، أو قبله بقليل، في يوم دافىء من أيام الربيع المبكرة، وكان مرهقاً بادي التعب، ولا تخلو ملابسه من بقايا الغبار، وبعد فترة استراحة قصيرة في غرفة عرفان الهجرس، حتى تراهن عدد من موظفي القصر: هل يستقبله جلالة السلطان أم لا؟ الذين قالوا نعم، وكسبوا الرهان، اعتمدوا على العلاقة التي تربط الرجلين، ولم يخطر ببالهم، أو لم يفترضوا أن الزيارة تمت اعتياداً على اتصالات سبقتها. أما الذين كانوا متأكدين أنه لن يُستقبل، فقد قاسوا الأمر على ما رأوه من عزلة السلطان، ورفضه باصرار لقاء أحد.

لمداراة الخطأ، برر الذين لم يتوقعوا استقباله «انه من غير اللائق، وغير



الجائز، بعد أن قطع الرجل ما يزيد على الألف كيلومتر، أن يعود هكذا» ثم أضافوا بصراحة بلغت درجة الوثوق الكامل «زيارة مجاملة ولن تطول». أما حين طالت وامتدت إلى ساعة متأخرة من الليل، وتخللها العشاء أيضاً، فقد أصبحوا على يقين «أن الرجل يحمل أخباراً هامة» ومما رجح هذا الاحتمال، إلى أن أصبح حقيقة مؤكدة، استدعاء مهيوب، ثم عرفان الهجرس، وأخيراً رأفت شيخ الصاغة. صحيح أن أياً منهم لم يمكث فترة طويلة، واستدعى كل واحد على انفراد، لكن بدا واضحاً أن اللقاء يتجاوز السمر والأحاديث العامة إلى أمور محددة وجدية، بما في ذلك التأكد من صحة جلالته.

في الليل المتأخر، أثناء وداع هاملتون، بدا المنظر مثيراً للاستغراب والدهشة، للحرس، للخدم، للسواق، ولكل من كان موجوداً أيضاً. فالسلطان الذي اعتزل الناس، ولم يره أحد، تقريباً، خلال الفترة الماضية، والذي كان يتباهى بقوته وقامته المديدة، لم يعرفه الكثيرون، بل وأنكره معظم الذين رأوه. كان ضعيفاً شاحباً، وقد تقلص تماماً. ليس هذا فقط، ما أثار الاستغراب أكثر من أي شيء آخر، إنهم رأوه وكان يدرج على كرسي متحرك، ووراءه اثنان من حرسه الخاص، وهاملتون يسير إلى جانبه. بعد صدمة المفاجأة لكل من رآه هكذا، بدا وكأن الثلاثة: السلطان والحارسين، يتعاملون مع الكرسي بمعرفة وألفة.

صحيح أن السلطان أخذ يستعمل عصا في السنوات الأخيرة، وكانت تلك العصا للغواية أول الأمر، ثم أصبحت تساعده أثناء الحديث، إذ كثيراً ما شعر بالقوة والثقة وهو يستند اليها، إلى أن تحولت في وقت متأخر إلى حاجة ضرورية، أو لا غنى عنها، للمشي أو في التعبير.

قال بعض الحرس: «هاملتون حمل اليه هذا الكرسي». صحح آخرون: «أن الكرسي وصل قبل أسابيع، مع الأثاث الجديد الذي جاء عن طريق الطريفة». رفض اثنان أو ثلاثة مثل هذا التفسير، وأصروا أنه وصل هذه الليلة بالذات، والدليل أنه تجري تجربته الآن أمام هاملتون ليتأكد. أما حين استدار السلطان عائداً إلى الداخل، فقد أصبح الجميع على يقين أن استعماله بدأ قبل فترة، وربما

بعد المحاولة مباشرة، لأنه لم يبق أحد آنذاك الا وراه يعرج وينقل خطواته بصعوبة، قاطعاً الأمتار القليلة بين مكان وقوف السيارة والأدراج، وقد لفت النظر تماماً، وإن عزاه البعض إلى مرض النقرس الذي يشكو منه.

ظل المشهد كحلم، وظل يثير التساؤل والدهشة. أما في اليوم التالي، عند الضحى، فقد دبت حركة غير عادية في جناح السلطان، ثم في أنحاء متعددة من القصر، وأصبح من المؤكد أن شيئاً ما يجري ترتيبه، لكن لم يجرؤ أحد على السؤال. وحين اصطفت مجموعة من السيارات، وفيها حرس السلطان، وبعض رجاله، وتحركت سيارات أخرى، وهي في العادة ترافق جلالته في رحلاته إلى البادية، فإن التقدير تحول إلى يقين ـ خاصة حين هبّت نسمات الربيع الدافئة وملأت الجو ـ بعزم السلطان على أن يضع حلاً لعزلته واحتجابه، وباعتباره لا يزال تحت وطأة الحالة السابقة، فليس كالبادية مكان يعيد إليه الصفاء.

تذكر الذين يشهدون الاستعدادات والحركة النشيطة، الرحلة الأولى لفنر مع أبيه، وكيف أنه كان من نتائجها موافقة هاملتون على البقاء في موران، وأن يكون من رجال السلطان المقربين. لقد مضت سنوات طويلة، وربما طويلة جداً، على تلك الرحلة، لكنها، وحدها، لمعت الآن في أذهان الكثيرين، وكأنها حصلت البارحة. هزوا رؤوسهم وابتسموا، قال واحد منهم: «كان يلزم يجينا الصاحب قبل أيام وأيام». قال غيره: «ما أحد يقدر على القوي الا الأقوى منه، وهذا الصاحب طلّع، هالحين، الحية من جحرها». قال آخر: «الانكريز رب الدهاء والمكر، والصاحب لا أسلم ولا صار ابن عرب، وابد لا يغرّكم، لأن الدم ما يصير ماي».

لم يكن الكرسي المتحرك وحده، ما فاجأ الذين يتابعون المشهد، إذ ما كاد يصل السلطان على كرسيه الى بداية الشرفة حتى حُمل والكرسي معاً إلى نهاية الادراج. ولما كان باب السيارة مفتوحاً، فقد امتد المقعد الخلفي، بكامله، تقريباً، كلسان طويل، ليلاصق الكرسي تماماً، وبعد أن تحرك السلطان، بمساعدة حارسيه الاثنين اللذين حملاه، واستوى على اللسان الممدود، انزلق المقعد الى داخل السيارة واستقر. ركض هاملتون، كقط بري، ليركب الى جانب السلطان من الجهة الثانية.



جرى كل ذلك بسرعة ومهارة، مما أكد أن تدريبات مبكرة وعديدة قد حصلت من قبل. وبين الاستغراب، والمتابعة النشيطة والدهشة وعدم التصديق، ثم السرعة في انطلاق الموكب، حار الكثيرون في فهم أو تفسير ما يرونه يجري أمامهم، وفات بعضهم أن يتملى السلطان، أو يقدر وضعه الصحي، كما فاتهم أن يعرفوا المرافقين على وجه الدقة والحصر.

واذا لم يفت أحد، بعد ذلك، التساؤل أو السؤال عن كل ما رأى، فما لبثت التساؤلات، بعد أن انطلق الموكب وغاب، ان اخذت شكلاً آخر: أين وجهة سفر السلطان؟ والى متى سيغيب؟ ولماذا لم يصطحب معه أياً من نسائه هذه المرة؟ ولماذا لم تطلب النساء أو لم تحاول، كما هي عادتهن دائماً؟ ولماذا تجاوز السلطان معظم رجاله المقربين، لم يصطحب أي واحد منهم، واصطحب ناهي الفرحان بالذات؟

وعشرات الأسئلة الأخرى أثيرت، أو طرأت فجأة على البال أو على اللسان، لكن لم يكن هناك من يجيب، أو من ينتظر الإجابة.

ناهي الفرحان الذي لم يصدق أذنيه، حين أبلغه طالع أنه سيرافق السلطان، وعليه بعد لحظات أن يتوجه الى السيارة الرابعة في الموكب السلطاني، تساءل بخوف، بعد أن استوعب كلمات طالع:

- واترك الشقا على من بقى، يا أبو جازي؟

وحين لم تستطع عينا طالع، أو كلماته المتلعثمة، أن تجيب، تابع ناهي:

- راح تصير بغيبتي، يا أبو جازي، أذلّ من ابليس يوم عرفه.
- عساها ما تطول!

انقضى أسبوعان قبل أن تعرف اخبار السلطان الأولية. قيل أنه ذهب، خلافاً لعادته، إلى حومة الوادي، ورغم أن الكثيرين لم يصدقوا أن يختار هذا المكان البعيد، والأكثر برودة من غيره في هذا الوقت من السنة، فقد ذهبت الظنون بغيرهم أن شيئاً كبيراً وخطيراً يدبر هناك، وربما تكون الدواحس الهدف الجديد للسلطان. وقال غير هؤلاء: رحلة قنص، وليس مثل حومة الوادي مكاناً ملائماً.

وقالت نسوة القصر: ما اختار ذلك المكان الا وبباله الوطفانيات، وهالحين يتزوج وحدة ويطلق الثانية، فإذا ملّ منهن، العوالي كلها على مرمى حجر، وحواليه المرابيع والحواتمة وأهل السوافي.

عبد الله البخيت لم يسمع بخبر سفر السلطان، وبزيارة هاملتون، الا في اليوم التالي للسفر. بعد أن تأكد من التفاصيل، قال، بنغم، لعثمان العليان ولاثنين كانا معه:

- . . . وسافر هو والصاحب جميع، ما هو كذا؟

حين اهتزت الرؤوس بالايجاب، زفر وقال بسخرية:

- اي نعم، الفرنجي برنجي، وابن العرب اكنجي . . . أو كرخنجي!

وبعد قليل وهو يدق على ساقه بايقاع:

- أنا صاحبت صاحب، أتاري صاحبي مصاحب، وصاحب الاثنين ما لهوش صاحب، فاشكي لمين الهوى يا أهل الهوى؟

رد ابن العليان بدعابة:

- مالك يا أبو بادي الا تصاحب الصاحب، لأنه وحده يعطيك مفتاح الجنة.
- نارك ولا جنة الصاحب!

وغرقوا بعد ذلك في أحاديث أخرى!

خزعل ولأول مرة في حياته يصبح سيد القصرين، اذ رغم الكراهية، والتي تصل إلى حد العداء في راكان واخوته، فإن الخوف، منذ «يوم الغدر»، مثل الجميع، خاصة وأن الشيخة لعبت دوراً بارزاً في الاشادة بخزعل، كيف دافع عن أبيه وكيف حماه. وإذا كانت مواقف راكان قد خفيت خلال الفترة الأولى، فما لبثت أن أصبحت مثار السخرية والتندر في موران كلها، فقد اسرّ اثنان من حرس السلطان، وكانت مهمتها البوابة الشمالية، إن «راكان أصيب بالاسهال» عندما سمع أو عرف أن أباه قد قتل. وأكد هذان الحارسان أنهما ساعداه في الخروج من المسجد، وأوصلاه إلى بيت موزة بنت دحيان، لكي يغير ملابسه!



لا يعرف على وجه التثبت ما إذا كان شيء مثل هذا قد حصل أم لا، ولكنه راج وانتشر، ثم أهمل أو نسي بعد عزلة السلطان، وما قيل عن طلاقه فضة، ثم ما تلا ذلك من أحداث.

ولا يعرف أيضاً ما إذا كان خزعل قد استغل هذه الأمور واستفاد منها، لكن المؤكد أنه أصبح سيد القصرين أثناء غياب أبيه. ولتعزيز هذه الصفة فقد طلب من زيد الهريدي ان يعيد تنظيم حرس القصر، وأن يلغي جميع الاجراءات، بما فيها ضربَ البوق، والملابس المزركشة للحرس، وقد سنّها راكان خلال فترة غياب السلطان في العوالي.

قال ابن شاهين لعدد من أقربائه، بعد أن عرف بما حصل، وكان غاضباً من السلطان لأنه لم يوفد أحداً للعزاء:

- . . . وكان سليم الفاتح يكسّر بيبانهم ويعتلي حيطانهم، وهم يتصايحون ويسألون: هل الملائكة كلهم ذكور أم فيهم الإناث؟ والجمل إذا كان يعبر سُمّ الخِياط، فهل يا ترى يصغر الجمل أم تتوسع الابرة؟ وبين الأخذ والعطاء، وهم متبالشين، ما شافوا الا وهو بينهم، وسمعوه يقول: الملائكة ذكور، والجمال نسور، وراح العن والد والديكم!

بعد أن ترك هذه القصة تستقر في عقولهم ووجدانهم، أضاف:

- وحنا هالحين بدل ما ندوّر على الشي اللي يفيدنا، ونعرف عدونا من صديقنا، دوخونا وتوهّونا بين حومة الوادي وعين دامة، بين خزعل وراكان، بين البيادا والسواري، وتعال بعد كل هذه الدوخة افتي وقول!

قال أحد الذين يستمعون:

- كنا من قبل بهمّ واحد، هالحين صرنا بهمين. كنا بسوالف عين دامة، شنهو اللي صار أو اللي جرى، هالحين فوق عين دامة حومة الوادي، وما ينعرف باكر من هو بعد، وشنهو!

قال آخر:

- من دليله البقر طاح بالحفر، فما دام العجرمي هو اللي يفتي ويقول، ترى حنا بألف خير!

رد ابن شاهين بسخرية:

- اذا كان رب الدار بالدف ناقراً     فشيمة أهل الدار كلِّهم الرقص

قال آخر ينهي المناقشة:

- اذكروا الله يا جماعة الخير، لأن من عرف الله هانت مصيبته.

الشيخة التي لم تتأخر لتظهر في قصر الروض قوية متجبرة، ودقات عصاها تسبقها وتعلن قدومها، لم تلبث أن اختفت من جديد. لم تعد ترى أو تسمع أخبارها، حتى حسيبة البصرية اختفت أيضاً. قيل أنها انتقلت إلى قصر الغدير، لأنها لم تقو على البقاء بعد أن سافر السلطان، ولأن سفره هذه المرة يختلف عن المرات السابقة. وقيل أنها التحقت بالسلطان في حومة الوادي. وأكد عدد من خدم وطفة أنها تعمدت أن تختفي، أو تتظاهر بالغياب، لأنها ترتب للإيقاع بعدد من نساء السلطان، بعد أن سمعت أخباراً لم ترتح لها.

وإذا كان احتمال سفر الشيخة الى حومة الوادي ضعيف أو مشكوك فيه، لأن أحداً لم يؤكده، فإن وصولها إلى الحوطة أمر أقرب إلى الصحة والاحتمال، إذ بالإضافة إلى الدريبي، وهو أحد حراس مهيوب، وقد نقل خبر وصول الشيخة، فإن سرور، حين زار شداد المطوع وفاوضه بشأن الحصان الذي يريد أن يبيعه، ذكر أنه اشتراه من الحوطة، وفي نفس الفترة التي كان خلالها السلطان، مما اضطره لأن يدفع مبلغاً كبيراً ثمناً له.

ان سفر الشيخة الى حومة الوادي أو إلى الحوطة ليس مهماً بحد ذاته، لكن أن يترافق ذلك مع مقتل ناهي الفرحان، ثم عودة السلطان المفاجئة والسريعة إلى موران، والاجراءات اللاحقة التي اتخذها، فكل هذه الأمور تثير تساؤلات وشكوكاً يتعذر معها معرفة حقيقة ما جرى، أو معرفة الأسباب التي أدت إلى تلك النتائج.

ليس ذلك فقط، إن سفرة السلطان المفاجئة، وعودته المفاجئة، ونوع



المباحثات التي جرت بينه وهاملتون، ولماذا اختار هذا المكان بالذات، ولماذا اختار ناهي الفرحان لكي يرافقه في السفر، وعشرات الأسئلة الأخرى سوف لن تجد، حالياً، من يجيب عليها، لأنها حملت معها أسرارها وابتعدت أو توارت، أو لأن الذين يعرفون لا يجرأون، على الأقل الآن، وربما بعد وقت طويل، على أن يتكلموا.

من الطبيعي، والمفهوم أيضاً، أن يقول رجال السلطان، خاصة بعد أن نبّه عليهم مهيوب وحذرهم، أن ناهيَ سقط في الجب ومات. وأن يشير واحد منهم، في محاولة لاقناع الذين يسألونه، إلى المرض الذي أصاب عيني ناهي، الأمر الذي جعله لا يرى البئر التي أمامه ويسقط فيها. ورغم أن أحد رجال السلطان أخطأ، لكن بعد مرور بضعة شهور، وذكر أن الرصاصتين اللتين أصابتا ناهي لم تقتلاه، مما اضطر مهيوب لأن يسحب مسدسه ويطلق على رأسه رصاصة أصابته في الصدغ الأيمن وفجرت جمجمته.

أما حول الأسباب فهناك روايات لا حصر لها، لكن أقواها، أو الأكثر رواجاً، واحدة تشير إلى أن شيئاً ما حصل في القصر، وكان طالع طرفاً فيه، أما الطرف الآخر، فإنه يبدأ باسم امرأة ثم يمتد ليطال أسماء أخرى، وهذا ما دعا السلطان لاصطحابه من أجل التحقيق معه، أو لاستدراجه، لكي يعرف الحقيقة منه مباشرة، قبل أن يقدم على اتخاذ الاجراءات وانزال العقوبة. قيل أن ناهي لم يعترف بشيء، لكن ذكر، وبمرح، أن ما رآه يشيب له الأطفال!

ورواية ثانية، وربما كانت أقوى واحتمالها أكبر، أن ناهي طلب الزواج من موضي ابنة السلطان، وكلف عرفان الهجرس أن يفاتح جلالته بالأمر، وهذا هو سبب الغضب، ثم القتل!

الذين لم يقبلوا أياً من الروايتين تساءلوا عن علاقة هاملتون. وغيرهم أشاروا إلى أن قرار السلطان كان مبيتاً وسابقاً على زيارة هاملتون، والدليل أن ناهي قدّم طلباً خطياً بنقله إلى العوالي، أو الحويزة، وأن عرفان لم يرفعه وإنما كتب عليه: يحفظ. لقد فعل ذلك بعد أن زادت مشاكل القصر، وعجز عن حلها، وبعد أن رفض السلطان استقباله، أو حتى الحديث معه بالهاتف.

وهناك رواية ذُكرت بحذر، وعلى نطاق محدود، وقيل أن هاملتون وراءها، تؤكد أن ناهي، ومنذ وقت طويل، يعمل لحساب ابن ماضي، وكان ينقل إليه كل ما يجري في القصر.

الذين يرفضون مثل هذه الروايات يشيرون إلى أن مقتل ناهي، أو موته، حصل بعد وصول الشيخة، وليس خلال الفترة الأولى، وفي ذلك دليل أن الأمر متعلق بقضية نسائية، ومتعلق بالشيخة شخصياً، وإلا كيف يفسر أن يقتل في الفترة الأخيرة، وأن يعود السلطان بسرعة إلى موران؟

لكن رواية مثل هذه تبقى مليئة بالثغرات، إذ لم تعقبها أية نتائج أو تغييرات بالنسبة لنساء السلطان أو محظياته.

الشيء الذي حصل، وقد حصل بعد أسبوعين من عودة السلطان، أن سُمي خزعل ولياً للعهد، خلافاً لتوقعات الكثيرين، ولرغبات هاملتون، كما قيل. بل أكثر من ذلك، هناك من يؤكد، وإن يكن بتكتم شديدٍ، أن هاملتون لم يأت موران الا بهدف اقناع السلطان بتسمية فنر ولياً للعهد، خاصة بعد أن بدأت تتسرب أخبار مرض السلطان، وما قد يترتب عليه من عجز أو وفاة.

أما وصول الشيخة السريع وغير المتوقع الى الحوطة، فقد كان نتيجة ما بلغها من أخبار حول ما يجري ترتيبه بالنسبة لولاية العهد، وهذا ما حملها، وبالاتفاق مع خزعل، على أن تلتحق بالسلطان، وأن تمنع أو تؤخر ما يحاوله هاملتون. وقيل أنه كان ضمن رجال السلطان من يبعث الاخبار الى الشيخة وإلى خزعل، وهذا ما دعاهما الى التحرك بسرعة. ومما يؤيد مثل هذا الاحتمال أن هاملتون عاد مباشرة إلى العوالي، عاد غاضباً، وقيل أنه لم يستأذن بالسفر.

في وقت لاحق قيل أن ناهي الفرحان هو من أبلغ الشيخة أو خزعل، وهذا ما أغضب السلطان فأمر بقتله في لحظة غضب، خاصة بعد أن أعطى هاملتون كلمة بالموافقة، إذا لم يكن بتسمية فنر ولياً للعهد، فلا أقل من أن يكون شريكاً في جميع الأمور، بحيث لا يفعل خزعل شيئاً دون استشارة فنر وموافقته.

إن هذه الأمور من التداخل والتعقيد إلى درجة يمكن معها لأية رواية أن تجد ما يؤيدها.



لم تكد تنقضي فترة اسبوعين على عودة هاملتون إلى موران، وثلاثة أيام على عودة موضي، حتى وصلت من السلطان لبرقية التالية:

«ولدنا فنر. بعد الاتكال على الله، قررنا تسمية الأمير خزعل ولياً للعهد، فيلزكم أن تأخذوا البيعة له، ونكلفكم بذلك نيابة عنا».

وفي الجامع الكبير، الذي جرت فيه محاولة الاغتيال، استقبل الأمير فنر وجوه وشيوخ العوالي، وأخذ البيعة لأخيه خزعل، كوَلي للعهد!

كتب هاملتون في يومياته: «تسمية الأمير خزعل ولياً للعهد تعني مرحلة جديدة وشاقة، ويجب أن يعيد الانسان حساباته، وأن يتوقع الكثير».

الخاتم الفضي، المائل الى السواد، بحجر العقيق، الكامد، هو الارث الوحيد الـذي تركه الشيخ عوض لحفيده فنر، حين قدمته اليه الجدة، فعلت ذلك بكثير من الحفاوة والاهتمام، وقالت ان الجد أوصاها أن تبلغ فنر «من الجد الى الحفيد، ومنه الى ولد الولد، ومعه العز وطول العمر والسعد». وقامت الجدة بوضعه في بنصره الأيسر، بعد أن بخرّته، وقرأت عليه آية الكرسي تسعاً وتسعين مرة، وكانت قد دفنته في تراب طاهر سبعة أيام، وفي اليوم الثامن، توضأت وصلّت ركعتين، وقرأت تبارك، ثم استخرجته، وذبحت ديكاً أسود. أما وهي تضعه في بنصر فنر، فقد اسبلت أجفانها، لكي تخفي الدمعتين اللتين انحدرتا، الى جانب الصوت الخافت المتضرع ان يقوّي الله فنر وينصره على أعدائه ويرد كيد حساده.

وفنر الذي كان بعيداً أثناء وفاة الجد، اعتبر ذلك الارث، مع الأدعية، حرزاً فتقبله بكثير من الامتنان والتذكر، وقال لجدته.

- الامانة وصلت، وراح تتسلم لراعيها، ومنه لولد الولد.

ثروت كانت أول من لاحظ انتقال الخاتم، بعد تلك السنوات، من بنصر اليد اليسرى الى بنصر اليمين. وحين نظرت إلى عينيه متسائلة، وقبل أن تقول كلمة، خرج صوته حازماً:

- ما أريد اسها أو أنسى يوم من الأيام... والى حين ترجع الحقوق لاصحابها!

وقد فهمت كلماته فابتسمت، وهزت رأسها علامة التأييد.

أما ماذا حصل منذ «يوم الغدر»، كما أصبح يطلق على محاولة الاغتيال، والى



أن سمي خزعل ولياً للعهد، ولماذا أخذت الأمور هذا المجرى، وخلافاً لما كان متوقعاً، فإن الروايات تتداخل وتتناقض الى درجة تجعل كل شيء ممكناً، وكل تفسير له مبرراته. بل أكثر من ذلك، إن الأسباب الخفية، والتي أخذ الكثيرون يرددونها، بدت، في أغلب الاحيان، أشد قوة واقناعاً من تلك التي كانت متداولة من قبل.

فزواج فنر من ثروت، وقد ولّد، في حينه، فرحاً عم قصر الروض، وكان مناسبة للتعبير عن المودة، من خلال الهدايا الثمينة التي قدمت، ولم تبدر ملاحظة حتى من نساء القصر على هذا الزواج، بدا في هذه الفترة وكأنه السبب الذي دفع السلطان الى تسمية خزعل ولياً للعهد، اذ وجد من همس أن التسامح الذي أظهره السلطان في البداية شكلياً وظاهرياً. فقد حقد في أعماقه على فنر، «لأنه خان الامانة». ويؤكد هؤلاء أن ندم السلطان تجلى أثناء فترة العلاج، إذ لأول مرة يرى ثروت من هذا القرب، ويتملى منها، وأحس أنه خُدع!

الذي سمعوا هذه الرواية سخروا كثيراً، لأن ثروت، التي بدت جميلة باعين الذين رأوها لأول مرة، فقد كان هذا الانطباع نتيجة بياض البشرة وصغر السن، اكثر من أي شيء آخر، أما بعد أن مرت سنوات، ومثلما يحصل لمعظم التركيات والشركسيات، فقد خبت، وتراجع جمالها، بل ودب اليها الهرم مبكراً، ولن تلبث أن تصبح، بعد بضع سنين، مثل أمها. ولذلك لا يعقل أن يكون سبب مثل هذا وراء التغير الذي حصل، خاصة وان لدى السلطان من النساء من هن أجمل وأكثر فتوة وأشد بياضاً!

ولأن التغير، كما يؤكد عدد من الحرس والخدم ظهر على السلطان في العوالي، وحتى قبل «يوم الغدر»، فقد تكونت قناعة لدى الكثيرين ان فريزة خانم تتحمل المسؤولية، إذ بالإضافة إلى المكان الزري الذي خصصته للشيخة، وكان عبارة عن غرفتين في منتصف المسافة بين القصر وقسم الخدم، وكانتا في وقت سابق مستودعاً، ثم أصبحتا المطبخ الخارجي للقصر، فإن طريقة التعامل، ثم العلاقة التي قامت بين المرأتين، ولدت النفور فالكراهية، وحين أوعز فر لزوجته اصلاح الموقف، ونقل الشيخة الى الطابق العلوي من القصر، فقد كان الوقت متأخراً،

وأصبحت العداوة مستحكمة. خاصة وأن الشيخة، كما أكد أكثر من واحد، عبرت عن رغبتها باستدعاء مبروكة العمياء، لتقرأ لها طالعها، إلا أن فريزة خانم أرجأت الموضوع مرة بعد أخرى ثم تظاهرت بالنسيان إلى أن تم تجاوزه.

بعد عدة سنين، حين أشار فنر، عرضاً، وهو يتذكر، الى غضب الشيخة، ونظر الى فريزة خانم، وكانت قد سمعت في حينه لوماً مماثلاً من ثروت، فقد ردت بسخرية.

- يشهد الله اني ما عاملت امرأة مثلما عاملت الشيخة. عرضت عليها القصر كله، قلت لها اختاري. قالت: ابعديني عن الزلم وعن الهرجة ابعدك الله عن نار جهنم. قلت لها: الطابق الثاني لفنر وأولاده، قالت: كل شيء إلا الصغار، لأن صدري ضيق وما أحمل. قلت لها: بمكاني، في الطابق الأخير، وتكون فرصة نسولف ونتسلى، قالت: ما بي حيل للسلم، وهذا ينراد له شباب. ما تركت مكان الا وعرضته قالت: أريد الفلا، وأريد أكون وحدي، ولو بخيمة. قلت لها، وأنا خائفة: هنا، بالحديقة وبعيد عن مدخل الرجال، غريفة، وثانية ببطنها، قالت: اي، راويني الله يروّي عليك، ولما شافتها قالت: هذا مكاني وما أريد غيره!

تهاني قالت لوهيبة لما جاءت مبروكة إلى قصر الروض، بعد شهور من زيارة العوالي:

- ولما شافتها الشيخة بالطريقة انشرح صدرها، وقالت: الله سبحانه وتعالى نور عيونها بقلبها، ومن الصوت، ومن لمسة اليد، تعرف كل شي.

وهذا ما تأكد أيضاً حين التقت المرأتان، فقد ظهر، لكل من رآهما، انهما تعرفان بعضهما من قبل، من طريقة السلام والمودة، وقد عبرت الشيخة عن ذلك بوضوح، وقلما تفعل ذلك، أما مبروكة فانها دست في يد الشيخة، خلال الدقائق الأولى، شيئاً، ثم أغلقت اليد. لقد فعلت ذلك حين خيم الصمت للحظات، وحين ضربت الشيخة كتفها دلالة المودة!

رغم كل ذلك ظلت القناعة تزداد رسوخاً ان الشيخة ليست بعيدة عما



حصل، لكن اختلف تفسير دوافعها. فالأمر ليس له علاقة بفريزة أو مبروكة، وإنما له علاقة براكان، فتلك المودة التي أبداها فنر تجاهه، وطريقته في معاملته، أوغرا صدر الشيخة، وحملاها على مقاطعة الاماكن التي يكون موجوداً فيها، وحدد بالتالي موقفها من فنر.

وإذا كانت مثل هذه التفسيرات راجت ولقت قبولاً في الجناح الغربي من القصر، وفي موران، فإن في قصر البحر، الذي انتقل إليه فنر مؤخراً، وفي العوالي كلها، تفسيرات أخرى مغايرة. فالتجار والوجهاء الذين أبدوا رضي عن وجود فنر في العوالي، وكانوا قادرين على التفاهم معه، وهيأوا جواً لتسهيل مهمته، لأنهم خافوا أن ينتقل اليهم جو موران، أو أن يأتي ليحكمهم من لا يعرفونه، أو من لا يستطيعون التفاهم معه، فقد سرت في السوق اشاعات قوية أن محاولة الاغتيال من تدبير أهل موران، وتجرأ بعضهم وقال ان خزعل وراء المحاولة، بدليل أنه كان قريباً جداً من السلطان، وكان متنبهاً وجاهزاً، بحيث «حمى» أباه من المحاولة، وتلقى الطعنات في مكان غير خطر، وهو الذي صاح على الحرس لكي يبطشوا بالقتلة، كما أنه قام بالاجهاز على واحد منهم بنفسه، لأنه لا يريد أن يبقى أي واحد منهم حياً. وهذا ما يفسر سرعة التخلص منهم، ثم الأهازيج التي أخذ يرددها!

أما لماذا اختار هذه الصيغة، وهذا المكان للمحاولة، فلكي يدلل لأبيه أنه الوحيد الذي أنقذه من موت محقق، وأنه عرّض نفسه للقتل بدلاً عنه. وليثبت أيضاً أن الطريقة التي تدار بها العوالي، أي طريقة فنر بالذات، تخلق مكاناً أو مناخاً للمؤامرات التي تهدد السلطنة والسلطان، ولذلك يجب أن يتغير كل شيء، وأن يُعطى درس لفنر.

خارج الأسواق، في البيوت الفقيرة، وفي الأرياف والجبال، أحس الناس أن الأمور تزداد صعوبة كل يوم، ولذلك لم يفرقوا بين فنر وغيره، ولم يستغربوا أن تجري محاولات لاغتيال السلطان أو أحد أبنائه، كرسالة أو كإنذار، ان الأمور لم تعد تحتمل، ولا بد أن تتغير بعد هذا العذاب الطويل.

اثنان من المنجمين قالا، امام عدد كبير من الناس، في سوق الخميس، أن

مشرف البكيري له علاقة بالمحاولة، وقد غادر الطريفة قبل ثلاثة أيام من وقوعها. وحين بعث ورائها مهيوب ليسمع منها، وبعث أيضاً ليستدعي مشرف البكيري، دون سؤال السلطان، ودون علمه، فقد ثبت له من الأقوال التي سمعها أن مشرف تصله أموال من عدة جهات، وأن رجال ابن ماضي يزورونه، وأنهم لم يتركوه خلال الفترة الماضية. أما مشرف نفسه فلم تجده المفرزة التي أرسلها مهيوب، وتضاربت الأقوال حول المكان الموجود فيه. وبلغ الأمر ببعض مريده أن أكد سفره للهند، لكي يكشف جريمة وقعت هناك!

وأكد أحد هذين المنجمين أنه قادر على معرفة الذين وراء المجرمين، إذا استطاع مهيوب أن يؤمن له خصلات من شعر وقطعاً من ثياب القتلة. لم يعرف ما إذا كان شيء من هذا قد جرى أم لا، لأن تقصي هذه المعلومات تم في جو من الكتمان الشديد، ومن قبل مهيوب بالذات. أما حين سافر مع السلطان فقد انقطع الحديث، ولم يعرف ما تم بعد ذلك.

ومما يعزز عدداً آخر من التفسيرات، ويعطيها أهمية، خاصة في الأوساط القريبة من السلطان، ثم يجعلها بمنزلة الحقائق الذي لا تقبل الشك أو النقاش، ان تغييرات عديدة أخذت تحصل. فإن يعود السلطان الى قصر الروض، وأن يقلّ خوفه من موران، بعد تلك الهواجس التي ركبته خلال الشهور الماضية، وأن يقرّب خزعل، ويبعد الآخرين، فإن الذين يراقبون بصمت، ويرون ذلك يجري أمام أعينهم، وقد يسمعون، بعض الأحيان، كلمات لا تصل إلى الآخرين، فإن هذا جعل القلق يدخل إلى نفوسهم، وفي حالات معينة، يطلق ألسنتهم، خاصة أمام الأهل والاصدقاء، وقد زاد ذلك في بلبلة الأمور، لأن القصص، وهي تروى، يحرص الذين يروونها على اخفاء أسماء الذين سمعوها منهم، أو تمويهها، زيادة في الحذر، ولئلا يخلقوا احراجات جديدة، خاصة وأن مهيوب، في هذه الفترة، أصبح لا يترك أحداً أو خبراً دون أن يتحقق منه ويتابعه بنفسه. ولا يعرف ما إذا كان هذا الاجراء بمبادرة شخصية منه، لرغبة في متابعة الجريمة، أو بناء لتعليمات من السلطان، لأن أحداً لم يعد يرى السلطان، أو يسمع أخباره، وأصبح مهيوب، تقريباً، وحده، أو أحد اشخاص قلائل، الذي ينقل أوامره ورغباته.



أما حين وصل الى العوالي، بعد اسبوعين من تسمية خزعل ولياً للعهد، وقيل أنه يحمل صدقات السلطان الى الفقراء هناك، فقد بقي ثلاثة أيام في الطريفة، غاب بعدها. وظل الدافع لمجيئه غامضاً، ثم اختفت آثاره، رغم أن فنر أوعز لعدد من رجاله بمرافقته، وأن يلازموه تماماً، لكنه، في مرحلة معينة، استطاع أن يتخلص منهم، بحجة الاستراحة في عين دامة، ومقابلة عمير.

وفي هذه الزيارة انتشرت اشاعات كثيرة أيضاً. فالذين اتصل بهم من الوجهاء والشيوخ، وقدم إليهم هدايا السلطان، سألهم، بشكل غير مباشر، عن البيعة، كيف تمت، ومن بايع ومن لم يبايع، ورأي الناس، وكان السؤال يتضمن، بمكر ومداعبة رأيهم بفنر، وقد فسر الكثيرون دافع الزيارة بهذا الموضوع بالذات، ولا شيء غيره. وآخرون قالوا ان ابن ماضي يحاول العودة مرة أخرى، وانه جدد اتصالاته بعدد من الشيوخ، وقيل انه التقى ببعضهم في عرض البحر، وقد عزز مثل هذه الشكوك سؤال مهيوب عن المواني الصغيرة، بما فيها مواني الصيد، وقد دوّنها، بالأسماء، مرافقه، شكري الروماني، وسأل عن اسماء أصحاب المراكب والوجهاء والأقوياء، ولم ينس مواعيد الصيد أيضاً!

أما الذين يعرفون، أو سمعوا، عن علاقة مشرف البكيري بالسلطان، فكانوا على يقين أن زيارة مهيوب تتعلق بهذا الموضوع وحده، ولا شيء غيره. ولما كان مشرف خلال هذه الفترة غائباً، فقد تعززت شكوك سابقة، وهذا ما يفسر أيضاً الهدايا السخية التي أعطيت لبعض منجمي العوالي، فقد أعطيت لسبعة منهم كسوة كاملة، وقيل أن الذي طلب من مهيوب شعر القتلة أو أجزاء من الملابس، رافقه الى موران.

وأكد مساعد حفار القبور في مقهى الحويلة بالطريفة انه وجد عدة قبور منبوشة. الأمر الذي أثار شكوكه ومخاوفه أن تكون الحيوانات الجائعة قد فعلت ذلك، خاصة وأن المقبرة تعرضت لحالة مماثلة قبل سنين، مما استدعى شراء سلاح لقتل الغريريات والكلاب السائبة التي تشاهد في المقبرة، لكن ظل السلاح دون استعمال، إلى أن سرق!

العجرمي الذي لم ير مشرف البكيري، ولم يعرف بعلاقته بالسلطان الا

متأخراً، والذي قضى في عين دامة شهوراً، وظل ينتظر القمر ليصير بدراً سبع دورات، وقد ثبت له بالدليل الحسي أن صحته تحسنت أكثر مما قدر في البداية؛ تعرض العجرمي لانتكاسة حيّن وصلته رسالة مشتركة من ابن العليان وعبد الله البخيت، يطلبان فيها ان يلتحق بالسلطان، في الطريفة، لأن المسألة مسألة موت، أو حياة، بعد ان وصل السحرة والمنجمون إلى السلطان، وأصبحوا وحدهم الذين يحكمون ويرسمون. وذكر عبد الله البخيت في الرسالة أموراً مفزعة، وقد صاغها بطريقته. وطلب من ابن السويد الذي حمل الرسالة أن يروي له غيرها، ودربه خلال ليلتين كيف يجب أن ينقل الأمور الى الشيخ، وأن يستعمل كل الوسائل لاقناعه بخطورة الوضع. ويبدو أن كلام الرسول أثّر أكثر من الرسالة، وبدا لابن السّويد، وكان يطمح أن يكون وكيلاً لابن العليان في العوالي، الأمر طريفاً، فأضاف من عنده الكثير، ليحمل العجرمي على أن يلتحق بالسلطان فوراً. لم يكن العجرمي بحاجة إلى هذا التحريض كله، فقد حنّ أيضاً للأهل والدار والاصدقاء، وكان متأكداً أن السلطان لن يطيل الاقامة في العوالي، وقرر، في نفسه، الموافقة على أن يعود معه بالسيارة!

بعد شهور، وبعد أن سمع العجرمي الكثير، عن مشرف وغيره من المنجمين، وبعد أن شهد محاولة الاغتيال، وقد تأثر من ذلك إلى درجة أن طلب من مهيوب اعادة الحرس، بعد أن كان قد صرفه منذ شهور طويلة، وقبل اقامته في عين دامة، فقد تبين له أن المخاطر لا تزال كبيرة، ولام نفسه أنه ترك السلطان وحده. فريسة لهؤلاء «الذين لا يخافون الله». أما بعد عودته الى موران فقد طلب من عبد الله البخيت مساعدته في كتابة رسالة إلى علماء العوالي، لكي يبصرّهم أن السحر حرام، وأن لديهم ساحراً افاقاً لا بد من محاربته، لأنه تأكد من كفره. وابن البخيت الذي وجد الأمر طريفاً، فتح أحد الكتب التي أحضرها معه من مصر، وكتب في الرسالة ما يلي: «. . . ما يقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم وأرضاهم في رجل يرى أنه من أئمة الشرع، ومن أرباب الاصل والفرع؛ ويعتقد أن له الدرجة المنيفة في مذهب أبي حنيفة؛ ويقول لو جادلت مالكاً لكنت له مالكاً، ولو لقيت ابن ادريس لسلم لي التدريس؛ ولو أدركت ابن حنبل لكنت أتقى منه وأنبل، وسره وفقكم الله بخلاف نجواه، وفعله يكذب دعواه،



وذلك يبيح أنه يبيح الفروج بفروج، ويستحيل سفك الدما على البيض الدمى، ويأخذ بارخص الأقوال في استباحة الأموال. أن ولي المدارس صيّر العلم كالطلل الدارس، وان دخل الجامع صانع فيه وجامع، وان سكن المساجد طلب الرقص والشاهد، وان صعد للوعظ على الاعواد حث الحرم على الوفاء بالميعاد، ومزج لهم الهزل بالجد فاخرجهم في الحال إلى البد، ثم انه لركاكة دينه، وضعف يقينه، يصلي قاعداً من غير ألم، ويبول قائماً على فرد قدم، وتراه يسهر على التمام والورد، وينام عن ليلة القدر؛ يحلل بيع القبلة بقبلة، ومكة بصكة، ولا يشترى حجة بعجة، ولا عمرة بتمرة، قد أخرج مال الفتوح والصدقات، في وزن المهور والصُدقات، وصير مال الحبس والأوقاف، لربات الشنوف والأرداف. وقد أفرخ في الوطء قواه، واتخذ الهه وهواه، فغدا بلا عقل ولا حلم، وأضله الله على علم، وختم سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فبينوا لنا، وفقكم الله، هل يجب أن يضرب السلطان على يديه أو يقره على ما هو عليه؟ مأجورين مثابين، إن شاء الله تعالى»(*).

لقد سرت الرسالة العجرمي الى أقصى حد، ولام نفسه أن بخس ابن البخيت حقه، حين عنّفه اكثر من مرة لتركه الصلاة. وطلب منه أن يستنسخ له صورة منها ليحتفظ بها، ويحاول أن يحفظها، إذ قد يحتاج إليها في المستقبل!

لم يكتف بذلك، طلب من ابن البخيت وابن العليان معاً، أن يعملا ما بوسعهما من أجل الحصول له على كتب من مصر والمغرب لابطال السحر، ورد كيد السحرة، لأن مشرف البكيري طالما ظل مختفياً أو غائباً لا بد أن يستمر مؤثراً، «ولا بد محاربته بسلاحه».

راكان الذي رافق أباه، وأبدى ندمه، وحاول أن يصحح مواقفه وسلوكه، تأخر ثلاثة أيام في الطريفة، بحجة المرض، وقيل أن خلوات طويلة جرت بينه وبين فنر. أثناء عودته الى موران توقف أياماً عند أخواله، كانت فضة هناك،

(*) من منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نفش ـ مراجعة عبد العزيز الاهواني ـ القاهرة ١٩٦٨.

وقد استطاع أن يقنعها بضرورة العودة معه إلى موران، وان تتناسى الكثير مما حصل. «لأن هذي فرصتنا، فإذا ضاعت منا ضاعت علينا». وفضة التي غضبت من طريقة استدعاء راكان، واقسمت الا تعود الا إذا جاء مهيوب وقبّل قدمها، وعند ذاك فقط قد تفكر بالعودة، وقد تكون لها مطالب أخرى!

الآن، وقد جاء راكان، وزعم ان استدعاء السلطان له كان بدافع الشوق، أكثر من أي دافع آخر، وأورد الكثير من التفاصيل حول محاولة الاغتيال، كيف جرت، وكيف أغلق الباب بنفسه ليمنع هرب المجرمين، ثم كيف أوعز لرجاله أن يحيطوا بالسلطان، وقد وضع رأسه على ساعده طوال الفترة التي استغرقها اسعافه، وكان أبوه ينظر إليه بكثير من الحنان والامتنان. . . بعدما أورد راكان هذه التفاصيل، رقّ قلب فضة، وقررت أن تعود. بل وبلغ الأمر أن انحدرت دموعها، ثم أجهشت بالبكاء، وفي احدى اللحظات طلبت أن تسافر على الفور، وأصرت، لكن اخوتها وعدداً من الأقارب تدخلوا لثنيها عن السفر وتأجيله يوماً أو اثنين، ليأنسوا بوجود راكان، ولأنهم يريدون أن يتحدثوا بأمور كثيرة، وحين أصرت على السفر، قالوا أن السفر ليلاً مليء بالمخاطر، ولا بد من الانتظار إلى الصباح. في اليوم التالي وافقت على إرجاء السفر يوماً آخر، لكن بكت أكثر من مرة، ورفضت تناول الطعام مع الآخرين، وقيل انها لم تتناول الطعام أبداً!.

أما حين وصلت قصر الروض وكان الوقت بعد الغروب، فقد دخلت بصمت، كما يدخل اللصوص، وقيل أن الكثيرين لم يعرفوا بوصولها الا في الضحى العالي لليوم التالي، أما حين أبلغت الشيخة، فقد ردت بسخرية:

- والطقعة!

هاملتون اعتبر تسمية خزعل ولياً للعهد، ضربة قاسية. لكن بعد أن زالت المفاجأة، بدأ يخطط إلى ما بعدها. قال لفنر، في احدى الليالي، وكان يتمشى في شرفة القصر الجديد المطلة على البحر:

- الضربة التي لا تقتلني تقويني وتفيدني.

وفنر الذي فهم أي شيء يعني، وكان الحوار، أغلب الأحيان، يستمر من



حيث توقف في وقت سابق، وأصبح الاثنان يفهمان بعضهما دون مقدمات، فقد آثر هذه المرة الصمت. كان حائراً ومملوءاً بالمرارة، وسيطرت عليه، خلال فترة طويلة، حالة سوداوية أقرب إلى التشاؤم، ليس لأن الفرصة فاتته فقط، وإنما لأن الأمور اخذت هذا السياق، وتوقع أن تتلوها أمور أسوأ. وهاملتون الذي لاحظ، وقدر أيضاً، كيف يفكر فنر، كان يريد أن يخرجه، وبسرعة، من هذا التخبط.

تابع بنفس النبرة:

- ثم ان بناء الدول ليس عملاً مزاجياً، أو شيئاً يتم بين يوم وآخر. انه يحتاج الى الكثير من الجهد والذكاء، اضافة إلى الاستفادة من الظروف. . .

وضحك وهو يضيف:

- والظروف تتغير كثيراً، خاصة في هذا الشرق!

ورغم أن الرجلين يتحاوران، إلا أن جزءاً من الحوار، يتم، في بعض الحالات، من خلال الصمت، أو بنظرة عابرة. ويكون الصمت، أو تكون النظرة، كافياً للتعبير. وفنر الذي يتلحف الصمت، كما يتلحف عباءته، تستبد به، أحياناً، رغبة المشاكسة، فيلجأ إلى التعليقات القصيرة الساخرة. وهاملتون الذي يعرف هذه الصفة يحتال عليها بالابتسام، بتغيير الموضوع، لكنه يرجع إليه المرة بعد الأخرى.

في هذه الليل، وقد تحصن فنر بصمته، قال هاملتون وهو يذرع الشرفة:

- ثم ان الدول ليست فقط الملوك. انها أكثر من ذلك وأهم. . .

وفجأة استدار وأسرع بخطواته، أمسك الكرسي المقابل لفنر، من الخلف، استند إليه، تطلع بإمعان، فلما تأكد أنه خلق جواً، تدفقت كلماته:

- كيف يمكن أن تجعلهم ليس فقط بحاجة إليك، وإنما لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً دون الاستعانة بك؟ ان تكون عقلهم الذي يفكر، يدهم التي تضرب، عيونهم التي يرون بها، وآذانهم. . . بكلمة أخرى: يجب أن يشعروا شعوراً قوياً ومستمراً انهم غير قادرين على أن يفعلوا شيئاً دون الرجوع إليك.

هاملتون يعرف أن كلماته ليست عبثاً كلها، قد تسرق الريح قسماً منها، وربما موهتها الرغبة أو الطموح، وقد يفسدها تشاؤم فنر، لكن، مع ذلك، يبقى قسم منها، وكان يكفيه، الآن، هذا القسم. كان يقول لنفسه: يجب أن يتصف السياسي بمزايا عالم الآثار: «ان يبحث في المكان المناسب، أن يبحث بصبر، لكن بدأب، وعليه ألا يهمل أي دليل، مهما كان ثانوياً، ويجب أن يفكر بعمله حتى أثناء النوم، إذا توافرت هذه المزايا لا بد أن يصل!».

تابع دون أن ينتظر تعليقاً من فنر:

- يجب أن نعمل وأن نصبر.

رد فنر بسخرية واستفزاز:

- عش يا كديش إلى أن يجيك الربيع!

وهذا المثل الذي سمعه هاملتون مرات كثيرة، وعرف معناه، ومتى يطلق، رد بحدة:

- أنتم البدو أبناء اللحظة وأبناء المزاج. وحتى ما تدعون من أنكم قادرون على الانتظار أربعين سنة لكي تثأروا، فإن ذلك نتيجة العجز وليس نتيجة الصبر. دائماً تمتلئون بعدم الرضا والرفض، لكن دون أن تعرفوا ماذا تريدون وماذا يرضيكم!

وقف فنر، اتجه الى نهاية الشرفة، وقال بسخرية:

- وأنتم، يا الصاحب، ترون البدو الذين يمرون أمامكم، ترون أشكالهم، لكن لا تعرفون أعماقهم، لا تعرفون كيف يفكرون، وماذا يملأ عقولهم وصدورهم، ولذلك فإن الواحد منكم يتوهم، يرى ما يريد فقط، أما الأشياء الأخرى...

ظل هاملتون في مكانه، مستنداً إلى الكرسي، وقال بحدة أقرب إلى الغضب:

- يا صاحب السمو، اعتبر الأمور لا تزال في بدايتها، ولا تزال أمامنا واجبات كثيرة.

لم تعجبه هذه البداية. صمت. الصمت لا يؤذي فنر، أو بالأحرى يروق له. جلس على الكرسي. صب لنفسه قدحاً. شرب. قال بطريقة جديدة:



- لا أعرف كيف يمكن أن نطلق على الأشياء بعض الصفات دون أن نخطىء. هناك قوة مجهولة، هل هي الصدفة، أم القدر، أو ربما لها تسميات أخرى، تلعب دوراً أساسياً في كثير من الحالات؟ أن يكون خزعل أكبر سناً. أن تجري محاولة الاغتيال. أن تأخذ الأمور هذه الصيغة... ان كل هذه الاعتبارات تلعب أدواراً هامة، وبعض الأحيان حاسمة، والمهم، إزاء مثل هذه الاعتبارات، كيف يتصرف الإنسان، كيف يكون رد فعله. هذا هو التحدي الحقيقي، وهذا ما يميز انساناً عن آخر، وبالتالي يجعل هذه القوة معه أم ضده!

راق لفنر هذا الانفعال. كان شديد التنبه، ويعتبر الاستفزاز أو الصمت، أهم الوسائل من أجل الوصول إلى الحقيقة، قال بعد لحظات صمت طويلة:

- بهذي البلاد، طال عمرك، يقولون: احذر عدوك مرة واحذر خويك ألف مرة!

- الحذر ضروري في كل الأحوال، تجاه الأعداء والأصدقاء، لكن الأهم من ذلك: كيف تجعل اعداءك وأصدقاءك معاً بحاجة ماسة إليك؟ كيف ترغمهم، بغض النظر عن الحب والكراهية، على أن يعتبروك ضرورياً الى أقصى حد، وأنك الوحيد القادر أن تفعل شيئاً يناسب الحالة، وتجعلهم، أيضاً، مضطرين على الموافقة، لأن ليس هناك إلا البدائل الأسوأ؟

بعد سنوات طويلة سوف يتذكر فنر هذا الدرس مرات عديدة، لأن هاملتون لم يمل من تكراره، وبأشكال مختلفة؛ ولأن هذا الدرس، بمقدار ما يبدو بديهياً وبسيطاً، ويمكن أن يمارسه الكثيرون دون وعي، وربما بحكم الغريزة، فإنه يبقى أهم الدروس وأصعبها، وقد يحتاج إلى مراجعة يومية.

قال لثروت في الليل المتأخر:

- أحد عيوب السلطنة انها تبدأ بشخص قوي وذكي، لكنها عندما تستقر تستغني عن القوة والذكاء، وتستبدلها بعيوب الدولة التي جاءت بدلاً عنها.

وثروت التي لم تفهم ما يريد قوله، قدّرت أنه يعني أباه وخزعل، قالت لتغير الحديث:

- الرجال يخافون من الأشياء التي لن تحصل أبداً، أما النساء فعندهن مشكلة واحدة: المشكلة القائمة، وهذه وحدها هي التي تحتاج إلى الحل، وعندما تأتي المشكلة الأخرى، يجب أن يفكر بحلها، أما قبل أن تقع تلك المشكلة فإن من العبث التفكير بحلول لمشاكل وهمية!

وحين اقتربت منه، ابتعد قليلاً، لينظر إلى عينيها، ولما ابتسمت بسخرية، قال وهو يضمها:

- بسيطة، وتشوفين!



فنر الذي سافر ورأى العالم، وعرف الكثير من أسراره وخباياه، والذي التقى بالكثيرين وتعلم منهم، كان يوماً بعد آخر يزداد خوفه من العالم ومن الناس، وكان يزداد شكه أيضاً. يعتبر الشر قوة مسيطرة، والخير اذا لم تكن له أنياب لا يمكن أن ينتصر، أما أفكار أبيه وقناعاته وطريقته في ادارة السلطة، فان استطاعت أن تقنع أهل موران، أو ترغمهم على الطاعة، فانها الآن اضعف من أن تواجه التغيرات التي حصلت، لذلك لا بد أن يهيء نفسه، اذا أراد أن يكون كل شيء في السلطنة.

لكن ما هو العالم أو من هو العالم؟

كان أبوه في كل سفرة يسافرها يوصيه وصية واحدة: «اسمع من كل واحد تشوفه، وشاور كل من تلقاه، لكن لا تعط سرك لأحد، ومثل ما الصلاة غير جايزة الا اذا توجهت نحو القبلة، فيلزم ما نخطي خطوة الا اذا تشاورنا مع الخويا، لأن الانكريز، يا وليدي، آفة، ما ينقدر عليهم، والاحسن أن يكون الواحد معهم صاحب».

ولأن الوصية تكررت، فقد حفظ فنر الدرس جيداً، وجاء الذين اختارهم له ابوه ليكرروا الدرس ذاته. اكد له النويعري «ان الانكليز سادة البحر والأرض، وانهم، مثل الموت، في كل مكان وكل زمان» وجاء بعده الدوسري ليكرر نفس الافكار وليضيف «عادَ كل الناس وصادق الانكليز، وانت الرابح». أما عماد فوزي الذي رافقه في أول زيارة الى نيويورك، فقد همس باذنه كلاماً مختلفاً. قال له:

- بريطانيا كانت قوية في القرن الماضي، وظلت تحتفظ بهذه القوة حتى الحرب

العالمية الاولى، أما بعد ذلك، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، فأصبحت أثراً بعد عين. ونكون مجانين اذا راهنّا على بريطانيا.

وأضاف عماد فوزي وهو يلقي نظرة من نافذة الفندق على ناطحات السحاب:

- الآن تحكم العالم قوتان: اميركا وروسيا. والذي يفكر في المستقبل ليس أمامه الا هاتان القوتان، وما دامت روسيا كافرة ملحدة، وما دامت ضد الدين فنحن مع اميركا!

لم يكن فنر بحاجة الى الكثير ليقتنع، لقد لمس الأمور بنفسه، وان ادركها من قبل بالحدس والتقدير. فبريطانيا، رغم الضجة والمظاهر، تتراجع وتنسحب، رأى ذلك بعينه، لم يقل له أحد. رآه في أماكن كثيرة بعد انتهاء الحرب. وحتى الحرب ذاتها لم تكن لتكسب لولا الروس والاميركيين. الروس قدموا الرجال، والاميركيون قدموا الأموال. أما بريطانيا فكانت تعدّ قتلى الآخرين، وتحسب المساعدات، وتنتظر!

حتى هاملتون لم يعد كما كان. صحيح أنه لا يحمل وداً للاميركيين، لكن يقدر جرأتهم، وتلك الروح العملية التي تملي عليهم مواقفهم وعلاقاتهم. يقول هاملتون بدعابة، حين يرد ذكرهم:

- انهم بحاجة الى حضارة، الى جذور.

يهز رأسه عدة مرات ويضيف:

- لو أنهم لا يرفعون أبنيتهم بهذا المقدار، ويستعيضون عن ذلك بحفر الأرض، لعلهم يجدون آثاراً لحضارة...

ولقد تأكد فنر أن الرياح تدفع المراكب ليس نحو القارة القديمة وانما نحو القارة الجديدة من خلال ذلك النشاط المجنون لاستثمار النفط خلال الفترة الأخيرة من سني الحرب ثم بعد ذلك.

ويتذكر ذلك الوجه المستدير، الأقرب إلى رأس الملفوف، والذي أصرّ على



لقائه في سويسرا، خلال السنة الأخيرة من الحرب، وكان في اجازة. قال له ذلك الاميركي:

- الخطر الحقيقي الذي يتهدد السلطنة يأتي من الشرق، من الروس، ولا بد أن يدرك السلطان ذلك، ولا بد من الاستعداد له منذ الآن.

وكأن ذلك الاميركي قرأ ما يدور في رأس فنر، اذ أضاف بسرعة:

- والانكليز معنا في هذا التقدير، ويطلبون مساعدتنا!

لما رجع فنر حدّث أباه. قال له: كان الانكليز أسوداً، لكنهم الآن دون أنياب. لم يصدق السلطان أن الاسد يمكن أن يكون بلا أنياب. ابتسم، وربما قال في سره: أوهام شباب، والزمن هو المعلم.

لم يكن السلطان خريبط خالي البال الى الدرجة التي افترضها فنر، لذلك حين تابع بحماس وهو يحدث عن عظمة أميركا وقوتها، وان المستقبل لها، ابتسم السلطان، وعلق بود:

- أنا، يا وليدي، ما زرت لا هذول ولا هذول، ولا شفت ديرة الانكريز ولا ديرة غيرهم، بس اتذكر كلامك بعد رجعتك مرة من بلاد الانكريز، شلون كنت مدهوش ومتعجب، فخلنا نصبر ونشوف!

وحين بدا الحرج على فنر اضاف أبوه:

- هناك مسائل، يا وليدي، ما يختلف فيها اثنين: الشجاعة للالمان، والدهاء للانكريز، واللي يحبون الدنيا والكيف الفرنسيين، والطرب للاتراك، والصبر لأهل الهند والصين، واللي يرمون قروشهم بالقاع وما يخافون الاميركان...

وضحك السلطان بثقة، وهو ينهي حديثه:

- وحنا، وبتوفيق من الله، نصلي ورا علي وناكل مع معاوية، بالسياسة مع الانكريز وبالمصلحة والشغل مع الاميركان!

. . . ولم يتوقف فنر عن السفر. جال العالم من أقصاه إلى أقصاه، وتكونت له علاقات واسعة، فعرف معنى السلطة، وما يجب أن يفعل، خاصة حين أصبح نائباً لأبيه في العوالي. أما المهات التي كُلف بها داخل السلطنة وخارجها، وملازمة هاملتون له، وأيضاً الرجال الذين اختارهم لكي يكونوا إلى جانبه، فكل ذلك جعله يحس أنه اقترب من الوصول، ولا بد أن يصل، خاصة وأن موقف السلطان من خزعل شديد التقلب والخطورة. فما يكاد يرضى عنه يوماً حتى يغضب في اليوم التالي. صحيح أن هناك أسباباً للغضب، أو لفتور العلاقات، لكن ليس دائماً خزعل وحده المسؤول عن ذلك، فالأخبار التي لا تنقطع يوماً واحداً، والتي تنقلها نسوة السلطان عن البذخ والاسراف في قصر الغدير، ونزاعات النسوة هناك، اضافة الى التعريض، والذي يصل حدود الشتيمة، بقصر الروض، يدفع الدم قوياً حاراً إلى رأس السلطان فيمتلىء غيظاً ومرارة، فإذا أضيف إليها ما يصله من الحويزة، أو أخبار المناطق، ثم نقمة شيوخ القبائل واحتجاجهم، لأن أحداً لم يزرهم أو يسأل عنهم، فلا بد أن يتذكر السلطان أيضاً أخطاء خزعل مع ابن مياح، عندئذٍ يهدر صوته بالغضب:

- الى متى يظل كذا يا عباد الله؟ واذا كانت هذي سواياته وحنا بعدنا طيبين، شنهو اللي راح يسويه اذا متنا وصار هو السلطان؟

ويصل كل ذلك إلى فنر، وكان له أيضاً في موران من يهمس باذن السلطان عما فعله في العوالي، وكيف أن الأمور تسير من حسن إلى الأحسن، وأنه لا يهدأ ليل نهار، والناس راضون، فيصبح الاقتناع مرجحاً أن يسمي السلطان فنر سلطاناً بعده، وأن يجعل خزعل ناظراً، وهذه الصفة أو اللقب اخترعه الأتراك في



فترة سابقة وطبقوه في العوالي، بل أكثر من ذلك طبقه السلطان ذاته على أبيه، خلال فترة من الزمن!

وفنر الذي يعرف كل ذلك يبقى بعيداً، وغير ظاهر، وبعض الأحيان يبدو زاهداً، إلا إذا كلفه أبوه أو انتدبه لعمل، فلا يتوانى ولا يهدأ. كان يتابع وينتظر. وكان له من يتابع أثناء غيابه. فأمي زهوة التي تحظى باهتمام خاص منه، ويتذكرها في أسفاره بالهدايا التي يحملها، وباصراره أن يكون ضيفها أثناء اقامته في موران، لا بد أن تتذكره أيضاً، خاصة أمام أبيه السلطان. ولكي لا تنسى كان يبعث اليها من العوالي، بين فترة وأخرى، بالتمر والبخور والرمان، ويوفد أيضاً الاقرباء والأهل لزيارتها، ولا ينسى فتاحي الفال والمنجمين، كان يرسلهم ويرسل معهم العطرة والريحان، وأنواعاً أخرى من الحشائش التي تقوي البصر وتمنع النسيان وتطيب الأنفاس!

قالت تهاني لوطفة، ذات ليلة، بتكتم، وهي تلتفت:

- . . . بعد طول عمر، السلطان بعد السلطان فنر!

وحين حاولت وطفة أن تعرف أكثر من ذلك، فسألت، ضاحكة، ما إذا كان هذا رأي الشيخة أيضاً، تخوفت تهاني، فقالت بتلعثم:

- وتعرفين. . . كل شي بهذي الدنيا قسمة، وكل شي مكتوب على الجبين!

ولما أرادت أن تعرف بشكل محدّد، قامت تهاني معتذرة، وقالت بتحذير:

- ما اريد اوصيك، يرحم والديك:
ترى المجالس بالامانات!

ما قالته تهاني لم يكن سراً، أو لم يعد كذلك، منذ شهور طويلة. حتى خزعل كانت تصله مثل هذه الأخبار، فلا يعرف كيف يداري حرجه. وفي مرات كثيرة، إذا جاء من ينقل إليه ماذا سمع، أو ماذا قال أبوه يصبح عصبياً نزقاً، وكأنه لا يريد أن يسمع أو أن يصدق. ومما زاد في هذه القناعة أيضاً الزيارات الطويلة التي كان يقوم بها السلطان للعوالي. وبالمقابل لا يكاد يقضي بضعة أيام في الحويزة، حتى يطلب أن تُشد الرحال. لقد حال ذلك مرات عديدة. قال مهيوب في احدى زيارات السلطان للحويزة، ليبرر الموقف:

- الحويزة ديرتنا وجماعتها أهلنا، وطويل العمر خزعل يكفي ويوفي...

وبعد قليل:

- ويلزم طويل العمر، أبو منصور، يزور اللي ياخذون على خاطرهم!

استمرت الأمور هكذا فترة غير قصيرة حتى ظن الكثيرون أن الأمر حسم، ولا يحتاج إلا لظرف مناسب لكي يعلن. وبلغ الحال بثروت وموضي أن هيأتا ثياباً زاهية، موشاة بخيوط من ذهب، لهذه المناسبة. ويبدو أنهما تحدثتا في الأمر واستعدتا له تماماً، لكن فريزة خانم التي لاحظت انشغال ابنتها، والمبالغة التي ظهرت منها، خاصة أمام الخدم، فقد قالت تعنفها:

- يلزم تكوني عاقلة وحريصة، لأن ما هو كل شي ينعرف ينقال، خاصة قدام الحريمات، لأن هذولا ما عندهن شغل الا يسولفن ويبربرن، وبعدها تضيع علينا أو ما نخلص...

وبعد قليل، وقد تغير صوتها تماماً:

- كان أبوك، الله يرحمه، يقول: من طلب الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه!

لقد حفظت فريزة هذه الكلمات من بندر الرفيفان لفرط ما رددها، وهو يصف خطأه المميت تجاه خريبط، وكيف أنه أضاع كل شيء نتيجة هذا الخطأ!

ورغم أن ثروت أخفت الثياب، وبالغت في التهذيب والتواضع مع الخدم، إلا أنها كانت على يقين أن في زيارة السلطان الى العوالي سيتم اعلان النبأ. وهذا التقدير ليس تعبيراً عن رغبة أو استنتاجاً سريعاً، وانما نتيجة اشارات، شديدة الدلالة، التقطتها من فنر، خاصة بعد أن القى نظرة على الطابق الأوسط من قصر البحر، حيث سينزل السلطان. لقد ألقى بنفسه نظرة مدققة، وتأكد من كل شيء، فلما اطمأن، قال وهو يفرك يديه:

- مكان يليق بالزوار العظام والمناسبات الكبرى!

لكن الرياح، في هذه الصحراء الملعونة، لا تجري أبداً كما يريد أصحاب القوافل، أو الذين يريدون الوصول بسرعة. فتلك الحادثة المشؤومة، محاولة



اغتيال السلطان، غيّرت كل شيء!

أما كيف أخذت الأمور هذا المسار بعد ذلك، وماذا حصل في حومة الوادي، ولماذا سمى السلطان خزعل ولياً للعهد، ومن حمله على اتخاذ القرار، ولأية أسباب، فإن الأمور من التداخل والتعقيد إلى درجة لا يستطيع أحد أن يدّعي معرفة ما جرى.

ومع ذلك، فقد قرر فنر، بالاتفاق مع هاملتون، أن يصمد، أن يعتبر الأمر طبيعياً، لعل رياحاً من جهة أخرى تهبّ وتغير المعالم والتضاريس، وتجعل من الممكن أن تُنسى تلك اللحظات المجنونة التي حصلت في المسجد، وربما كانت السبب التي أعطت الأمور هذا المسار.

كانت المراهنة «أن يبقى السلطان، أن يستعيد صحته، أو أن يخطىء خزعل». «أو أن...» وابتسم هاملتون، وهو يطرح الاحتمال الثالث:

- أو أن تتغير الظروف!

أخذ فنر البيعة لأخيه، وأكد على رجاله في موران أن يتابعوا بدقة صحة السلطان ومزاجه، وأن يوافوه بأي جديد. ولقد سر إلى أقصى حد حين بلغته الأخبار أن السلطان استعاد قوته، وأصبح يشاهد يومياً في حديقة القصر، أو قرب اسطبل الخيول.

استمر الحال كذلك الى منتصف الخريف، وبعدها لم يعد يشاهد السلطان. قيل بسبب البرد. وقيل أن السودا عاودته من جديد، اذ بعد أن أمر بإطلاق عدد من المحابيس، أمر بعد ثلاثة أيام من ذلك بجلد عشرين أو ثلاثين من الخدم والحرس، ونقل عن لسانه التهديد والوعيد، والسبب ان طالع العريفان اختفى من القصر نهائياً، اختفى دون أن يحس به أحد، ولم يكتشف غيابه الا بعد يوم أو يومين.

وقيل أيضاً أن سبب غياب السلطان انهيار صحته.

ومثل أي شيء في هذه القصور، اذ يصبح ما يجري داخلها معروفاً وغير

معروف، في آن واحد، لكن بدا أن أقوى الاحتمالات انهيار صحة السلطان.

أما كيف بدأ الانهيار؟ وهل أصيب بالعمى خلال هذه الفترة، أم مجرد تقولات تصدر عن الخدم المضطربين؟ وهل أن ما حصل أمر طارىء أم له ما بعده؟ فإن الأخبار التي تخرج من القصر متعارضة متداخلة بحيث لا يمكن الجزم بصحة أي منها، لكن بدا واضحاً أن الحالة الصحية لجلالته تزداد سوءاً يوماً بعد آخر، ومما أكد ذلك وصول الأطباء المتعددي الاختصاصات، وفي فترات متقاربة. وهذا ما جعل رأفت شيخ الصاغة في حالة عصبية أقرب إلى الهياج، إذ ما يكاد يبدأ معالجة السلطان حتى يتدخل الآخرون، من الأطباء والسحرة والمنجمين، والأقرباء أيضاً. ولكل واحد من هؤلاء رأي يختلف عن الآخرين في تشخيص الحالة أو طريقة المعالجة. ونتيجة الاختلافات الكثيرة، والتدخل المستمر من هنا وهناك، تولت الشيخة الأمر خلال فترة معينة، إذ منعت الدخول عليه، وأوقفت الأدوية التي وصفت له، وأكد بعض الأقرباء أنه تحسن، واستمر كذلك لعدة أيام ثم انتكس من جديد، الأمر الذي دعا خزعل للتدخل.

وخزعل الذي كان متعجلاً وخائفاً استدعى طبيباً من حران. لقد استدعاه واوكل اليه الاشراف الكامل على صحة جلالة السلطان، وفي وقت متأخر قيل أن هذا الطبيب، الذي لا يؤمن بالأدوية الجاهزة، وقام بتركيب الأدوية التي أعطيت للسلطان، تسبب في التعجيل بالوفاة. انه مجرد ظن، أو اتهام، لأنه في ظل الاضطراب والفوضى يحق لكل انسان أن يقيّم أعمال الآخرين وحتى نواياهم! ورغم أن شيخ الصاغة ظل، نظرياً، مسؤولاً عن صحة السلطان، الا أنه رفض التدخل في أكثر من مرحلة. وفي مذكراته وردت كلمات غاضبة، لكنها غامضة أيضاً. كتب «. . . ومثل أي شيء في هذه البلاد، ولدى كل انسان، فإن العجلة والادعاء، والجهل يحكم ويسيطر، وقد لمست ذلك بنفسي، ومن خلال أدلة حسية لا يرقى اليها الشك ولا تقبل المناقشة، خاصة في طريقة معالجة السلطان.

«. . . وحتى الأطباء الاجانب، في ظل الفوضى السائدة، لا يلبثون أن يصبحوا أسرى الحالة العامة، ويبالغ بعضهم فيتجاوزها.



«. . ومن المناسب ان أهيّء نفسي لمرحلة جديدة، اذ يبدو لي أن اقامتي لن تطول هنا، أو على الأقل لن تستمر بنفس الوضعية السابقة، خاصة إذا انتهى السلطان وجاء خزعل».

ظلت الأمور هكذا طوال فصل الشتاء. وفي الأيام المبكرة من فصل الربيع، بدا لكل انسان أن النهاية أصبحت وشيكة، وتأكد هذا التقدير من وصول ابناء جلالة السلطان، والصمت الذي خيم على القصور، ومن خلال الاخبار التي تتسرب، وينقلها الكثيرون. ولم تمض أيام حتى أعلنت وفاة السلطان خريبط.

# ذاكرة الأمس القريب



بموت السلطان خريبط انتهت وانطوت صفحة كاملة في تاريخ الصحراء.

أما الصفحات التالية فانها من الاضطراب والتداخل، وعدم اليقين أيضاً، إلى درجة تختلط فيها الوقائع بالرغبات والأوهام، ورغم قربها، أو بالأحرى بسبب قربها، فإنها زلقة، رجراجة، خادعة، وشديدة التحول أيضاً. وهي بمقدار ما تبدو واضحة، مثل الكثير من وقائع التاريخ الذي يتكون تحت أبصارنا، فانها مموهة، محرفة، ان لم تكن كاذبة.

ولأن رياحاً شديدة ومستمرة ظلت تهب طوال سنين، فقد غيّرت الكثير من المعالم والاشكال، وغيّرت أيضاً أفكار الكثيرين وقناعاتهم وعلاقاتهم، أصبحوا بشراً من نمط آخر.

وإذا كانت احدى العواصف التي هبّت على هذه الصحراء قد اخذت خزعل وقسماً كبيراً من رجاله، وحملت تلك العاصفة فنر، فأصبح سلطاناً، وتوقع الكثيرون واملّوا، فإن أغلب هؤلاء خاب أملهم، ليس لأن فنر أحسن أو أسوأ من أبيه أو أخيه، وإنما لأن هؤلاء كانوا يعرفون فنر الآخر، فنر الذي كان، ولانهم ظلوا يعيشون في أوهام الأيام التي قضت.

قالت غزالة الحوشان لاختها سارة:

- هذول الرجال دينهم ومعبودهم القصر. إذا زعلوا من القصر، أو القصر زعل عليهم ما ينحملون، وإذا رضي القصر يقومون وينامون هناك، وحنا رايحة علينا، دنيا وآخرة!

سقطت من عينيها دمعتان، وخرج صوتها متكسراً:

- قلت له: يا أبو هايل، خلنا بهمومنا، وعندنا من الهموم اللي يكفينا، وفنر مثل خزعل، وما يلزمك تخطي. وابد، ومثل الولد الصغّير، عاند. كل يوم لابس العقال المقصب، وبيده السبحة الكهرب، وعيونه تشولح مثل القطاة، واذا سمع صوت: «ها، جوا جماعة القصر؟» وما أحد جاه. مر يوم، اثنين، شهر، شهرين، وكل يوم يمر يزيد عناده وتكثر شتايمه، وصار البيت نار الله الكبرى، لا ينعاش فيه ولا ينداس، ولا أحد يقدر يفتح حلقه أو يسأل ويقول!

قالت سارة بحزن:

- يلزمك تصبري يا أم هايل، وعساها عجّة، تمر وتنقضي.

- وسقم الأولاد، يضربهم ويصبح بوجوههم، وما يريد يسمع أحد، وأنا ماخلّي عليّ ستر مغطى: إذا ما عجبك ذاك بيت أبوك، وما أريد أحد يراجعني أو يقول لي شنهو اللي أسويه.

بعد شهر من هذا الحديث قالت سارة لإحدى جاراتها:

- ... وخنق روحه بعقال القصب. كان معلق بالشباك، ازرق، ولسانه شبر، وراحت عليه وعلى أهله وأولاده.

زفرت وهي تضيف:

- الله يساعدك يا غزالة، والله يجازي اللي كان السبب!

عبد الله البخيت الذي عرف بأن مطشر الغصيب قتل نفسه، لأن خصومته مع جماعة خزعل أكلت اليابس والأخضر، ولأن رجال فنر اتصلوا به ووعدوه، فظن أن هذه الصلة تقربه وتجعله واحداً من رجال العهد الجديد، لكن بعد أن انتظر طويلاً، ولم يتذكره أحد، قرر أن ينتهي هكذا. قال عبد الله البخيت:

- هايل أبو هايل، عرف شلون يسمي ابنه وشلون يخلص نفسه!

وأضاف بعد قليل بلهجة هي مزيج من الحزن والسخرية:



- صحيح أن عليه الصلاة والسلام قال: اذكروا حسنات موتاكم، وعلى الميت ما تجوز إلا الرحمة، لكن مع ذلك، كان، الله يرحمه، عقله خفيّف، كان يظن السلطان مثل الزكرتي والقصر مثل المضافة، ولما قاس الدنيا على أيام خريبط زلق، لأن كل شي تغير، وهالحين راح واستراح. وترك الهم والغم للباقي واللي يريد يناطح!

مطشر الغصيب كان واحداً من عشرات، من مئات، وهؤلاء حين تخاصموا مع رجال خزعل، أوْ بالأحرى حين انتزع منهم رجالُ خزعل أموالاً وخيولاً، أو حين حبسوهم دون وجه حق، ظنوا أن غياب خزعل سيعيد إليهم ما أخذ منهم، ويرد اعتبارهم، لكن بعد أن استقر فنر ورجاله، وغاب رجال خزعل أو تغيروا، لم تتغير الأمور.

قال عمر زيدان لرضا الجاوي لما جاءه يبلغه بما حصل في موران:

- خلنا نصبر ونشوف، يا ابن الحلال، من هو اللي صار عمنا بعد ما تزوج أمنا!

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

- العروس ما تبيّن الا ثاني يوم العرس، والمرية ما ينحزر عليها الا اذا حال الحول!

قال رضا بانفعال:

- لكن اللي جا فنر، فنرنا، اللي عاش بينا، واللي عرفناه وعرفنا.

- اللي عرفنا، يا رضا، كان صغّير وفقيّر، هالحين فنر صار سالفة ثانية، هالحين فنر سلطان، يا ابن الحلال. سلطان قد الدنيا... ولم يمهله دندن وارتفع صوته:

علمي به من ليالي الصيف     يوم البخت ناشر نوفه
دار العجب والطرب والكيف     والانس والفن ودفوفه
ايام حظي يقصّ السيف     يشرب من المي بكفوفه...

لكن هالحين فنر حاجة ثانية!

واهتز رأسه عدة مرات وتابع :

- والسلطان غير الأمير، والأمير غير الخفير، وحتى الخفير جاء يوم، يا رضا، وتذكر، كنا ناخذ له تمني، وما يتركنا ولا يحل عنا، فخلنا نصبر ونشوف، وبعدها الله كريم!

عبد الله البخيت، الذي سمع مثل الآخرين، بما حصل، قال بعد أيام، يخاطب نفسه ويريد للذين حوله أن يسمعوا:

- بهذي الدنيا الواحد ما يتكلم ولا يتعلم الا من كيسه . . .

وخفض صوته، أصبح همساً:

- ايه يا دنيا، مثل الدولاب، يوم فوق، وثاني يوم أسفل سافلين. وما تعرف متى وإلى أين، لكن، سبحانه الله، ما أحد يتعلم، وكل واحد يظن أنها له باقية ودايمة: يمشي مثل الطاووس ويقول: يا دنيا اشتدي، وما تلقي أحد قدي، لكن . . .

ضحك بصخب وظل يحرك يده حركات سفيهة، ثم أضاف:

- أين الفراعنة والأكاسرة؟ أين الملوك والأباطرة؟

وتغير صوته، أصبح طقسياً:

- من التراب وإلى التراب تعودون!

لقد قال هذا الكلام لأنه فعل مثلما فعل مطشر الغصيب، إذ كان يتوقع أن يستدعيه القصر، إذا لم يكن في الليلة الأولى، ففي اليوم التالي، لكنه انتظر أياماً ولياليا، وحين لم يصل الرسول، قال لزوجته ساخراً، وكأنه يخاطب نفسه:

- إذا قدر الواحد يبني نفسه دون مساعدة فيكون مجنون إذا قال: يا جماعة ساعدوني. وإذا الواحد قدر يكون بعيد عن السلاطين والوزراء، يكون مجنون إذا تقرب، لأن السلاطين واتباع السلاطين ياخذون قبل ما يعطون، واذا اعطوا بحساب وكتاب، وإلى حين. أما غضبهم فالله أكبر، وعن هذا لا



تسل: ولية المخانيث وجنون العبيد.

بدا له أنه يتكلم وحده. التفت بألم. تأمل الجدران، أراد أن يتابع وأراد أن يصمت، وأخيراً خرج صوته:

- وانا جرّبت وأكلت خرا!

وضحك وهو يتذكر:

- اللي سويته لخرابيط ما يسويه أخ لأخوه،والنتيجة: زق. وخزعل يناظرني كأني قاتل أبوه، وهذا، خوينا الجديد، .ما ينحزر عليه، ومن قبل قالوا: «ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي اذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج أن يلتفت: ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس، وإذا سار بين يديه أن يحيد عن سنن الريح التي تؤدي الغبار إلى وجهه» وحنا ما نقدر نمنع شمس ولا نصد ريح، فخلنا بعيدين احسن وآمن.

شداد المطوع الذي ذهب ليرى أخاه أو ابن أخيه، ولم يجد الاثنين، لكي يعرف أي شيء حصل في هذه الدنيا، وجد مفلح المطوع؛ وبعد القهوة والصمت، جاء من يبلغ شيبة آل المطوع أن حماد صار وزيراً. ولم يفهم مفلح، أو لم يكن مهتماً، عكس مرة أو مرات سابقة، حين توقع أن يصبح حماد سلطاناً. أما بعد أن هدأ الصراخ وانصرف الكثيرون، وكان الشايب يقلب الجمر ويقلب نظراته، فقد استغل شداد الظرف لكي يتكلم وحده، وإن كان يكلّم مفلح:

- . . . وكان الناس مثل الخيل: هذا ابن اصل وهذا مضرب. هذا أبوه فلان وأمه فلانة، وتسلسله لسابع جد، وتحزر عليه شلون رايح يصير. هالحين خاست وتاهت علينا يا أبو دهام . . .

وابتسم، وابتسم مفلح المطوع، كأنه فهم كل ما قاله. تابع شداد:

- هالحين إذا الواحد ابن حرام، مضرّب، يصعد ويصعد، يصير مكان النجم وازود. شلون، يا جماعة الخير؟ ليش يا جماعة الخير؟ يبّحرون بوجهك

ويضحكون. يقولـون: ما هـو صحيح أنـك ما تـدري. تقول لهم: والله مـا أدري، علمونا، يا أولاد الحلال. يقولون: ما هو بصحيح وتضحك علينـا، وأنت تعرف كل شيء. وتقول ويقولون، وما تعرف شنهو اللي يقولـونه، ومـا يسمعون اللي تقوله، وضاعت عليهم وعلينا!

قال مفلح المطوع:

- إذا الله أراد يهلك قوم امحلهم وبعث عليهم الجراد.

قال شداد ضاحكاً:

- ومع الجراد العجاج وأولاد الحرام.

قال مفلح المطوع:

- ومن سنين، وكنت صبّي، ومات الناس والحلال، وقالوا: هـذي آخـرة موران، وموران صامتة كأن فوقها حجر، لكن هذي موران ما ينحزر عليها. مثل الفقع، إذا جت سنة خير والمطر وسمي تطلّع الأرض اللي ببطنها، واذا أمحلت تسكت وتنام، لكن...

وضحك وقد تذكر أموراً كثيرة، ويبدو أنها اختلطت إلى درجة لم يعرف كيف يفصلها:

- بسنة الخير الناس بخير والدنيا بخير، وبسنة القشرة اللي عنده فلوس يخيس لا يريد يشري ولا يريد يبيع، لكن أهل موران أباليس، يعرفون شلون يطلّعون الحية من جحرها، وشلون يدبرون أمورهم، وهذا ما هو من الأمس واليوم، لا، عتيق... عتيق.

قال شداد:

- وبسنة القشرة، يا أبو دهام، يبين المعدن الزين من المعدن الردي. وإذا ابن اخوي حماد، بعد اللي سوّاه، وبعد ما خان خـويه، يصير أعلى وأعلى فعلى الدنيا السلام. ويلزم ألحق نفسي واضرّب خيلي، لأنهم باكر أو اللي عقبه يقولون: عندك خيل أصيلة، أبوها معروف وأمها معروفة، وهذا ما يصير،



ويجوز يطلع معهم أكثر!

قال مفلح المطوع:

- وكنا، يا وليدي، نعاون بعضنا، وكنا نسأل على القريب والبعيد، وكانت الناس عايشة: القهوة، الذبايح، السوالف، وما تلقى محتاج، لكن ما أدري شنهو اللي صار بهذي الأيام.

قال شدّاد:

- مالي بليلة سودا مثل هذي غير شمران. شمران مثل الذهب، شلون ما رميته يرن، ويعرف الناس والدنيا، ويعرف اللي يصير واللي يلزم.

والتفت الى مفلح الذي بدأ بدق القهوة، وقال:

- يا أبو دهام: أولاد الحرام قدروا علينا، طمّسوني بالخيل والليل، وقالوا: هـذا مكانك، وأنت طمست بليل أبيض، لأنك ما عدت تسمع، وبعدك عايش قبل ثلاثين اربعين سنة، وما تعرف شنهو اللي صار واللي جرى.

سعيد الاسطة الذي باع حصته في شركة السجاد، وقرر أن يصفي أعماله الأخرى، وقد سافر إلى الاسكندرية لكي يبدأ عملاً هناك. ما لبث أن رجع بعد أسابيع قليلة. رجع نادماً لأنه تصرف بهذه السرعة وبهذه الخفة، بعدما تزوج السلطان ابنة صبحي المحملجي. قال لشريكه السابق:

- حلال عليك يا أبو الحميدي، بس اريدك هالحين تكون معي مثل ما كنت معك.

رد أبو الحميدي بثقة:

- ابشر، يا رجل، واللي تريد يصير.

- حنا أولاد اليوم، ومثل ما اشتركنا بخير، أريدك هذه المرة تساعدني...

وبعد قليل، وبرجاء:

- إذا أحد سألك متى تفاككنا تقول قبل سنتين أو ثلاث سنين.

- كل شي. . . الا هذي. . .

وبعد قليل وبحدة:

- شفت مني شي يا رجال؟ قالوا لك عني ناهب؟ سارق؟ ليش تخجل مني؟

- والعياذ بالله يا أبو الحميدي، بس صاحب الجلالة السلطان فنر يظن، اني من جماعة خزعل، وأنا، وأنت تعرف، لا من جماعة خزعل ولا من جماعة غيره. حنا تجار، على باب الله، نبيع ونشري، ولا حنا جماعة أحد، بس أولاد الحرام، ولا أكثر منهم. فحتى الواحد ما ينحسب على هذا أو ذاك يوصي جماعته، الناس اللي اشتغل معهم.

زفر أبو الحمدي، وقال، وخرج صوته ثقيلاً:

- إذا المسألة هالشكل، ما يخالف!

عمر الطريفي الذي درس القانون في استانبول، واقسم ألا يعود إلى العوالي الا بعد زيارة باريس، لكي يقضي أياماً في بلاد الحرية والعدالة والمساواة، وقد فعل، عاد في تلك الفترة المضطربة، وظل يبشر الناس أن الغد سيكون أفضل من اليوم، إلى أن وقعت معركة الطريفة الفاصلة، وما رافقها من كلمات كبيرة، اضافة الى سيول الدماء، فالتحق، مضطراً، بابن ماضي، وظل ابن ماضي حريصاً عليه ما دامت العوالي تعني له شيئاً، ثم تخلى عنه وعن العوالي، فعاش ابن الطريفي خائباً منتظراً إلى أن جاءته الساعة التي اعتبرها مناسبة، هزيمة البداوة أمام الحضارة: ذهاب خزعل ومجيء فنر، خاصة وأن فنر، قدّم وعداً أكيداً: الدستور، والدستور يحكم بين الجميع.

عاد الطريفي. عاد إلى أرضه ووطنه، بعد أن أكله الحنين، وامتلأ بآمال انتظرها طويلاً. الآن يبدأ الدستور، ويعرف كل مواطن ما له وما عليه، هكذا قال فنر.

بدت له الطريفة مسكينة مسبّية. وبدا له الناس متعبين تائهين، لم يصدق ما رأته عيناه. هل يمكن لهذا العدد القليل من السنين أن يغيّر الناس والأشياء بهذا



المقدار؟ وإلى أين؟ إلى الوراء؟ إلى الأسوأ؟ هل يعقل هذا وهل يصدقه أحد؟

كتم غيظه وقال للكثيرين: فنر أعطى كلمة: الدستور. لنصدق. الدستور أمر كبير ويجب أن تثقوا. إذا حصلنا على الدستور حصلنا على نصف الحقوق، أما النصف الثاني فإنه يحتاج إلى الجهد والعرق. . . والعقل.

وظل ينتظر.

بعد أن مرت سنوات قال لابن أخته الذي كانْ يستعد للسفر الى باريس من أجل دراسة القانون:

- لو تفكر بدراسة غير هذه الدراسة. . .

وحين انفتحت عينا الشاب باستغراب، تابع عمر الطريفي:

- كلمة واحدة استنفذت عمري كله لكي أعرف معناها، وها أنذا أغادر الدنيا دون أعرف: الدستور.

وابتسم بحزن وأضاف كأنه يكلم نفسه:

- لكن ما يخالف لازم يبقى كم واحد من المجانين يتكلمون بلغة غير عادية، لا لكي يحققوا جنونهم، وانما ليفضحوا الآخرين الذين يقولون كلمات لا يعنونها.

زعم بعض الذين عرفوا عمر الطريفي أنه حين جاءته الوفاة، وقد حصل ذلك في عهد فنر، أنه كان يردّد، أو يهذي، بكلمة واحدة: الدستور، الأمر الذي أغضب بعض رجال الدين، فصرخ أحدهم: أذكر ربك يا ابن الحلال، واترك كلام الشياطين!

عمير الذي اطلق سراحه مُنع من الاقامة في عين فضة، ورتبت له اقامة في موران، بحجة التكريم، وان كان الواقع الحقيقي ان يكون تحت الرقابة المباشرة. قال لعدد من الذين زاروه بالعيد الصغير، وقد تطرق زواره، بشكل متعمد، إلى أن فنر غيّر الكثير، خلافاً لخزعل، وأن الناس يشعرون بالفرق بين

ما كان، وما هو قائم الآن:

- قولوا اللي تقولونه، بس يلزم تعرفون: الكلب أخو السلوقي، والعرق دساس. ووين ما راحت مردها ذاك العرق!

أما شمران الذي لم يؤمل ولم يتوقع، وبعد أن قرر العودة إلى الزرنوق، فقد قال كلمة ترددت كثيراً:

- ما ينصلح آخرها الا مثل ما انصلح أولها، واتركوا كلام الهزل، وهذا وحده كلام الجد.



أما هاملتون الذي طرد من السلطنة بعد بضعة شهور من استلام خزعل للسلطة، وبعد أن سافر فنر الى الخارج للراحة والعلاج، رغم توصيات السلطان الراحل ان يكرم الرجال الذين ساهموا باقامة السلطنة، فان قرار خزعل كان حاسماً وسريعاً. قال لزيد الهريدي:

- هذا اذا تركناه يسرح ويمرح، من ديرة للثانية، تراه يحوسها علينا...

ابتسم واضاف بسخرية:

- لا تصدق أنه يدوّر اصنام وسوالف من هذا النوع، وانا اعرفه زين يا زيد: خبيث وعظمه أزرق. لا يحلل ولا يحرم؛ والغريب أن أبوي ما عرفه زين، لكن الاغرب ان فنر ما يطلع عن شوره، وابد لا تصدّق يا زيد انه اسلم او صار ابن عرب، هذي سوالف...

وعاد الى لهجة الحزم:

- كل ما يهمنا يا زيد. هالحين اريدك تكفظه كظة فار، وما تخلي له درب، ومثل ما وصل موران يطلع منها: يد من ورا ويد من قدام، وما اقبل كل شفاعة.
وغادر هاملتون الى لبنان.

أما السنوات التي قضاها بين بيروت وبرمانا فليست كلها انتظاراً لرضا السلطان خزعل أو لوصول رسائل فنر ووعوده، اذ بعد عدة رسائل بعث بها، وقد تضمن قسم منها تهديداً لا يخفى، انصرف الى الدراسات والكتابة. كان لديه الكثير ليقوله، وكان يهيء نفسه منذ سنين طويلة لكي يتفرغ لهذه المهمة،

وهو على قناعة أن عملاً مثل هذا، اذا تم انجازه، سيكون بالغ الأهمية والأثر في المرحلة الحالية وفي المستقبل.

كانت الدراسة الأولى: «مقدمة في تاريخ موران» وهي عرض تاريخي، استغرق التاريخ القديم الجزء الأكبر منها. ولقد هدف من وراء ذلك إلى تأكيد مفاهيم يرى ضرورة حسمها، فاعتمد، في جزء من هذه الدراسة، على كشوفه الأثرية، وعلى أفكار وملاحظات تأكدت نتيجة اقامته الطويلة في الصحراء، ومعرفته لهجات البدو وأساطيرهم.

ثم كتب كتاباً آخر: «موران أرض ورجال» وقد تطرق في هذا الكتاب الى الرحلات التي قام بها عدد من الرحالة الأجانب. ولأنه كان أول من قطع الصحراء من شرقها إلى غربها، فقد صحّح الكثير من المعلومات الخاطئة التي وردت في مذكرات هؤلاء الرحالة، اعتماداً على معاينة مباشرة، نتيجة المساعدات التي قدّمت إليه، عززتها معرفته للغة، وقياس المسافات بدقة، ثم اعداد خرائط لبعض المناطق. وفي هذا الكتاب، وهو مزيج من الوصف والذكريات، وبعض الصور، تطرق إلى بداية علاقته بالسلطان، ثم كيف تطورت هذه العلاقة ونمت واتسعت، وتوقف عند مرحلة معينة، معتبراً هذا الكتاب جزءاً أولاً سوف تتلوه أجزاء أخرى، وفي ذلك أكثر من اشارة. كان بمثابة رسالة واضحة للسلطان خزعل.

بعد ذلك التفت إلى الجانب الأثري في السلطنة، مرجئاً التاريخ المعاصر، ليعطي فرصة لأكثر من جهة، خاصة وأن عدة رسائل وصلته من فنر بعد صدور هذا الكتاب، وفيها يرجوه أن يؤجل الكتابة، خاصة في مثل هذه الموضوعات، «للضرورة». وحين استفسر عن هذه «الضرورة» أجيب اجابات متعددة، لكنها ظلت غامضة، أو غير دقيقة، وإن فهم منها أن فنر يعدّ لأشياء كبيرة!

لم يترك الأمور تمر هكذا. انه ليس مجرد متفرج عادي، أو إنسان لا يملك سوى الانتظار. ففي مقابلة صحفية، وباعتباره خبيراً بهذه المنطقة، اشار، دون أن تكون اشارته اجابة على سؤال محدد، إلى وجود مصاعب وتناقضات كبيرة، وأنها لن تمر هكذا، ولن تنتهي بهدوء أو بسلام. ولم يتطرق إلى تفاصيل أكثر.



هذه الإشارة أفزعت فنر قبل أن تفزع أي انسان آخر. حتى السلطان الذي نقل إليه ما ورد على لسان هاملتون، علق بمرح:

- إذا الواحد قلّ عزمه وراحت عليه يطول لسانه وتكثر طلايبه!

وابتسم وقد تذكر أموراً كثيرة، ثم أضاف:

- واليهودي إذا أفلس يدوّر على دفاتره العتيقة.

فنر بعث إليه يونس شاهين، أو بالأحرى أبدى يونس شاهين استعداده لأن يقوم، أثناء زيارته للبنان من أجل اقتسام تركة مع اثنين من اخوته، بالاتصال مع هاملتون، وأن يعمل على تهدئته وامتصاص غضبه، مع جملة من الوعود والعواطف.

ولأن بين الرجلين من الفروق الكثير، فقد كانت رسالة فنر الشفوية سبباً اضافياً لأن يبعث هاملتون برد جاف: «إذا لم نلتق، وافهم منك شخصياً، فانني غير قادر على الاستمرار بالصمت، لأن الواجب وطبيعة المرحلة، اضافة إلى قناعاتي، يملي عليّ أن أحلل وأفسر الأمور ضمن ما أعتبره أكثر صواباً».

ورغم اللوم الضمني الذي لم يخفه فنر، وهو يستوضح من يونس شاهين عما دار بينه وبين هاملتون، فقد بعث إليه يشعره أنه سيتوقف في القاهرة، أثناء عودته من الولايات المتحدة، بعد أن يجري فحوصات طبية ضرورية، ويقترح عليه أن يتم لقاؤهما هناك. إلا أن رسالة عاجلة وصلت لاحقاً من راكان غيّرت الكثير من خطط فنر، الأمر الذي اضطره الى العودة مباشرة إلى موران. ومرة أخرى بعث نصّار برسالة جديدة لهاملتون، يعتذر فيها عن التعديل في برنامج الرحلة، لأمور طارئة، مع وعد أن يبذل اقصى الجهد لتأمين لقاء قريب، ومن جديد يرجوه أن يضبط نفسه، وأن يمتنع عن الادلاء بأية تصريحات أو أقوال ربما يكون لها تأثير سلبي!

بعد انتظار طويل، ومرارة، لا يمكن إخفاؤها بسبب التأجيلات المتلاحقة، تم اللقاء بين فنر وهاملتون في جنيف.

المرة الأولى التي يلتقي الرجلان بعد سنوات من الغياب القسري.

كان اللقاء حاراً، أقرب إلى النشوة. في الليلة الأولى، وفي لحظات كثيرة، كان الاثنان يتبادلان النظرات المليئة بالود والمفعمة بالذكريات، ويشعران انها تكفي، وتغني عن الكثير من الكلمات الكبيرة التي يتبادلها عادة الذين يلتقون بعد غياب طويل.

وفي هذه الليلة تعمد الاثنان ألا يخوضا في السياسة أو في الاحاديث الجادة، لكن كلمات كثيرة، كانت أقرب إلى الذكرى، وشت بما وراءها، وبدا وكأن الاثنين يستعدان لجولة طويلة، وربما مريرة، من الاحاديث الجادة، خاصة وأن الموفدين أو الرسائل. خلقوا من المشاكل أكثر مما ساعدوا في حل المشاكل السابقة.

وفي الليلة الأولى تعمد الاثنان أن يشربا. شربا أكثر مما تعودا في الأيام العادية، ولأنهما لم يحرصا كثيراً فقد أفلتت بعض الكلمات، كانت تتجاوز العتاب الى اللوم.

قال نصار العديلي، مرافق الأمير فنر، لفوزان الشارخ، قريبه، ومدير مكتب الأمير:

- ترانا، يا فوزان، لا شفنا ولا سمعنا، لأن طويل العمر، أصعب ما عليه، بليلة مثل ليلة الأمس، أن تقول له: قلت وقال.

وخاطب نفسه، لكن يريد فوزان أن يسمع:

- وطويل العمر، هالحين، شوره من رأسه، وما هو مثل قبل، وصاحبنا يظن الأمور مثل ما كانت.

في الأيام الثلاثة اللاحقة عقد الأمير وهاملتون خلوات خاصة، لم يحضرها أحد. صحيح أنها اقتصرت على فترات قبل الظهر، لأن الأمير ابدى رغبة أن يتعرف على جنيف وما حولها، وقابل عدداً من المعارف والأصدقاء، وقد جاء بعضهم خصيصاً للقائه، الا أن هذه اللقاءات كانت كافية لأن يتبادل الاثنان



العتاب، والمعلومات، وأن يتفقا أيضاً على خطط للمستقبل. خاصة وأن لقاء اليوم الثالث كان قصيراً، وأقرب إلى استعادة ما تم الاتفاق عليه، لأن الأمير سافر قبل ظهر ذلك اليوم متوجهاً إلى باريس بناء لموعد سابق.

يمكن أن يتذكر نصار بعض ما حصل، وقد يستنتج، أو يتخيل. وفوزان مثله يستطيع أن يفعل ذلك اعتماداً على ملاحظاته، وعلى الأوراق التي أودعها لديه الأمير، وقد سلّمها اليه بطريقته، اذ قال، وبدا فوزان ممدوتان لاستلام الأوراق:

- وهذي مكانها مع الأوراق الخاصة، حقتي، وما أريد أوصيك!

وفوزان يفهم هذه اللغة، من النظرة، دون كلمات، لأن الامير اختبره، بأشكال متعددة، فتولدت الثقة، وأصبح فنر متأكداً أن كلمات محدودة لفوزان كفيلة بأن تجعله مثل دجاجة وصيصانها، إذ يكون حرصه مبالغاً فيه، وتجاهله مفضوحاً، وخوفه من الأمير لا يخفى.

هاملتون كتب في يومياته: «. . . في حالات معينة يفضّل الإنسان أن يعيش في الماضي وعلى الذكرى، لأن الماضي، رغم صعوباته، كان شيئاً واقعياً ملموساً، وقد تكوّن وحصل تحت سمع الانسان وبصره. والذكرى هي تلك الصورة التي انبنت في الذاكرة ذرة فوق أخرى، حتى أصبحت بهذه القوة وبهذا الرسوخ.

الماضي والذكرى زاد الإنسان وسبب بلائه، إذ بمقدار ما فيهما من قوة، ويولدان الثقة في النفس، ويجعلان حتى الحياة الصعبة أكثر سهولة، فإنهما يخدعان ويخلقان من الاشكالات والمصاعب، والمفاجأة أيضاً، ما يجعلان الإنسان أقرب إلى الإستغراب والحيرة.

المدة الطويلة، الأقرب إلى العمر، التي قضيتها مع فنر، تبدت لي، خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وكأنها تنهار تماماً، أو تحتجب دفعة واحدة، وخلال ثوان. ومن أعماق العين، ينبثق شيء آخر: حياة مختلفة، وإنسان جديد، وكأن لا صلة بين الحياة التي كانت، ولا صلة بالإنسان الذي كان.

هل أنا مخطىء؟ هل كنت متوتراً ومنفعلاً إلى درجة جعلتني لا أميز؟ هل تغير فنر بهذا القدر؟

وأنا، هل اعتبر نفسي ذلك الموتور الذي يبحث عن الثأر، ولا يرى شيئاً غيره؟ ولماذا أخذت المناقشات هذا المجرى، وجعلتنا، مرة أخرى، متقابلين، وكل منا يبحث عن المبررات أو الافكار التي تجعله أقوى، أو كأنه يريد أن يهرب من شيء يخاف منه أو لا يصدقه؟

«لو أتيح لي أن أبدأ من جديد لبدأت بشكل مختلف، خاصة بعلاقتي مع فنر، فهؤلاء البدو، في لحظة معينة، يصبحون شديدي الخطر، وهذه اللحظة التي تموه نفسها كثيراً، وقد تأخذ عدة أشكال، هي لحظة احساسهم بالقوة وأنهم ليسوا بحاجة اليك. قبل ذلك يبدون بمنتهى الود والكرم، ويغيّبون أشخاصهم تماماً، لكي تكون أنت عقلهم ولسانهم، وكل شيء بالنسبة لهم، لكن ما يكادون يصلون الى ما يريدون حتى ينسوا كل شيء، ويصبحوا نمطاً آخر من البشر.

«خريبط ظل حتى أيامه الأخيرة بحاجة إلى المساعدة والمشورة، وكان، ببساطة، يسأل عن الاشياء التي لا يعرفها لكي يتعلمها، وعن الآخرين لكي يعرف كيف يتعامل معهم. لا يخجل، لا يتكبر، ولا يتردد أن يفعل ذلك أمام الآخرين.

«فنر الذي بدأ خجولاً، متعثراً، والذي أخذ يتعلم بجهد، وقد بذلت من أجل ذلك كل جهدي ووقتي، أراه الآن إنساناً مختلفاً. فما علّمته من وصايا وأساليب، وتلك الترجمة المبكرة «للأمير» التي وضعتها بين يديه، وحاولت معه بكل الوسائل لكي يتعلم اللغة الانكليزية، ولأن يتخطى الخجل والتردد في علاقاته مع الآخرين، خاصة مع الأجانب، بدا لي خلال الأيام الثلاثة، وكأنه يطبّق علي الوصايا والأساليب التي تعلّمها مني، وزاد عليها ما تعلمه من الآخرين أصبح أكثر مكراً، وأقل رغبة في أن يخوض بشؤون المستقبل، كما أن كلماته القصيرة زلقة تحتمل تفسيرات كثيرة، وتترافق مع تلك النظرات المفكرة المغادرة دائماً، وكأنه يخاف أن تلتقي نظراتنا، خلافاً لفترات سابقة.

«كان يتمنى أن تنتهي لقاءاتنا بأسرع وقت ممكن، هكذا أحسست، دون دليل مادي ملموس، ولكن هذا الإحساس ملأني تماماً. أعرف حالة الضجر أو الضيق التي يعاني منها الإنسان حتى لو أراد اخفاءها. أعرف ان الابتسامات أو



المجاملات تخفي وراءها ما لا يريد الإنسان أن يقوله، حتى لو بطريق الخطأ أو المزاح. ولذلك كانت تتشعب الاحاديث بسرعة، ويدفع بعض الأمور إلى الظل، كما كان يثير ذكريات وأحاديث جانبيه، ويسترسل ويسأل، وكأنه يريد أن نبقى في الماضي.

«لعبت معه اللعبة ذاتها، ورغم ذكائه، فقد كنت أكثر منه ذكاء، بحكم الثقافة وفارق العمر، ولذلك بدا محرجاً في بعض اللحظات، اعترف أن خزعل لن يبقى سلطاناً. اعتقد أنه ما كان ليصرح لي بذلك لولا الخوف الذي لا يزال في أعماقه، نتيجة علاقتنا السابقة، ولأنه لا يقوى على الكذب إلى النهاية.

«تركت، وترك متعمداً، الكثير من النقاط دون اجابات كاملة أو دقيقة، لعل الفترات القادمة تتيح لنا امكانية أفضل لمناقشتها.

«كان يريد أن يؤكد لي، بشكل مسرحي، أن الإهانة التي لحقت بي، نتيجة ابعادي عن البلاد، هي السبب الذي دفعه لأن ينتقم. صدقته. وبالغت في اظهار تأثري، وبضرورة الانتقام، لكي اعرف تفاصيل أكثر، لكن مثل عادته، تجاوز هذه النقطة إلى أخرى، إلى ثالثة، وعندما حاولت إعادته إلى الطريقة التي سينتقم من خزعل، أو ما يجب أن أساعده، عن طريق علاقاتي وخبرتي، فقد قال لي كلمة موجزة: «الطريقة الوحيدة الا تكون موجوداً في الصورة، لأن العيون كثيرة، وحتى اجتماعنا هذا اليوم لا بد أن يصل إليه، وربما يؤخر أو يمنع ما يجب أن نفعله». هؤلاء البدو يسري المكر في دمائهم، إنه دائم الحركة، دائم الإستعداد لأن يعبّر عن نفسه بأشكال لا حصر لها، وإن كانوا يخفونه، كما تختفي الدورة الدموية.

«لو تركت بعض المفاتيح عندي لاضطر فنر، أو غير فنر، أن يعود إليّ، لكن حين سلّمت له كل شيء، لا أملك شيئاً ان فتح الطير، أو الحيوان، القفص، وانطلق إلى حيث يريد، إلى حيث يجد ان ذلك أكثر ملائمة له.

«أتذكر الآن تلك الحكمة الصينية: «أن تعلّم الانسان صيد السمك خير ألف مرة من أن تعطيه سمكة كل يوم». لقد قتلتني هذه الحكمة، كنت أفترض أن

الإنسان المتعلم، الذي يتقن اللغة، ومن كانت له علاقة بالآخرين، خاصة الأجانب، يمكن أن يكون انساناً أفضل لأن أتعامل معه، لأن يساعدني. الآن اكتشفت ان مثل هذا الانسان، عندما امتلك الأدوات كلها، لم يعد بحاجة إليّ، تجاوزني، ليبحث عما يراه ضرورياً ومناسباً له بمعزل عن آرائي وما أريد.

«لقد علّمت فنر صيد السمك، وعلّمته أيضاً أين يوجد السمك، وتخليت عن أدوات الصيد كلها، فهل يحق لي الآن أن ألوم أحداً؟

«قد أبدو متشائماً، وقد أشعر بالخيبة نتيجة تجارب معينة، لكن الأمر لم يصل إلى هذا الحد بعد، ويجب ألا أدعه يصل، خاصة وأن فنر، بالإضافة إلى الجانب السياسي، ترك في نفسي شعوراً بالاعتزاز، فقد تأكدت أن تعب الإنسان، أياً كانت النتائج بالنسبة له، لا يذهب سدى، ولا يمكن أن ينتهي إلى الخواء واللاجدوى. فنر كانسان، الآن، يتمتع بمزايا كثيرة لم أكن أتوقع أن تظهر فيه بهذه القوة أو بهذه السرعة. ولولا المرض، الذي قد يعيقه، وربما أيضاً يطبع الكثير من تصرفاته، فإن شخصه وسلوكه يلفتان النظر، ولذلك يحق لي أن أفخر، كالأب الذي يفخر بأبنائه، رغم الخلافات، وهي دائماً موجودة، وبعض الأحيان كبيرة، بين جيلين، وبين عصرين.

«في هذه اللحظات المنفعلة التي أكتب عن انطباعاتي، قد أراجعها في الغد، وأندم، أشعر أن خسارتي الحقيقية، إذا جاز لي أن أستعمل مثل هذه الكلمات، هي دروثي ومايكل، هل فقدتهما إلى الأبد؟ هل أستطيع أن أستعيدهما؟ وماذا يجب عليّ أن أفعل؟

«إذا أهين الإنسان من الصعب أن ينسى. أنا، بمعنى ما، رجل مهان، ولا أريد أن أكتب أكثر من ذلك، لكي لا أحتقر نفسي».

وافترق الرجلان، على أنهما متفقان، فانصرف هاملتون الى الكتابة، وعاد فنر الى موران. ومرت أيام كثيرة. أصبح فنر سلطاناً. فوجيء هاملتون ولم يفاجأ. انتظر أن يبعث فنر وراءه، لكن فنر، ربما في زحمة الانشغال، أو لأسباب أخرى، نسي. ولم ييأس هاملتون، ظل ينتظر، وظل متفائلاً. وبعد أن بعث عدة برقيات



ورسائل، للتهنئة أولاً، ثم يعرض خدماته، وأخيراً يطلب زيارة موران، ولم يتلق رداً الا مرة واحدة، اذ أبلغه السفير «ان مفاجأة كبيرة تنتظرك، ولا بد أن تصبر قليلاً، حتى يحين وقتها المناسب» ومثل طفل انتظر واحتمل، وظل متفائلاً، إلى أن جاءه الموت في احدى الليالي واختطفه.

حين بلغ فنر خبر وفاته، ضرب على ساقه وقال أمام الكثيرين:

- لهْ لهْ لهْ...

واضاف بعد قليل:

- سبحان الله، كان ببالي اطرّش نصار أو أحد الخويا هالجمعة حتى يجيبه ويجي... لكن الدنيا ما لها أمان.

وحين خيم الصمت، بدأت تتراءى له صورة هاملتون، كانت صورة مضطربة غائمة بعيدة، ولم تكن واضحة، ثم توارت خلف غيمة من الدخان، وفيها قطرة صغيرة من الدمع!

الشهور والأسابيع الأخيرة، التي سبقت استيلاء فنر على السلطة، كانت عصيبة، اذ بعد الزيارات التي قام بها لانحاء متعددة من السلطنة، والاتصالات التي أجراها، وكانت لا تخلو من التعريض والسخرية لطريقة خزعل في الحكم، وبعد أن تعبأ الجو تماماً، خاصة حين تم الاتفاق مع حماد المطوع، فان التوتر الذي سيطر على فنر وصل الى درجة التردد ثم الخوف، واذا كان قد تحصن بالصمت خلال الفترة الأخيرة، ولجأ إلى عدم الظهور، وبعض الاحيان الى التخفي، فان صمته اخذ يفضحه، وغيابه يثير التساؤل، لكن ثروت وموضي كانتا قريبتين.

فحين أصبحت فريزة خانم، بعد إنجاب ثروت لولدها الأول، المسؤولة عنه تربية الأطفال، لأن ثروت زادت أعباؤها ومسؤوليتها عن الطفل الكبير، فنر. إذ بالإضافة إلى غلبة السوداوية على مزاجه، أخذت حالات المرض تعاوده، وأخيراً جاءت الأسفار، وترافق ذلك كله مع فيض من الهذيان الذي يتفجر كل ليلة، تقريباً، من خلال الاحلام والكوابيس، الأمر الذي أصبح يخيف ثروت أكثر من أي شيء آخر.

قالت لأمها ذات ليلة:

- إذا كان لخزعل أحد بقصرنا، وينقل له اللي يسمعه، فالله يعلم إذا مسّينا ما نصبّح . . .

كانت شاحبة، ظاهرة الخوف والتعب، لأنها لم تعد قادرة على النوم في أغلب الليالي، كما لجأت إلى اخلاء عدة غرف مجاورة لغرفة النوم. لقد فعلت ذلك لأنها



لم تعد أمينة ان لا يصل صوت فنر إلى هذه الغرف، حيث كانت المربيات والخادمات، رغم أنها بذلت جهداً خارقاً في انتقاء هاته النسوة.

ردت فريزة خانم في محاولة لأن تخفف عن ابنتها:

- القصر امين يا بنتي، وناسه أوادم، والنوم إذا حطّ يغرق الجمل.

تنحنحت وخرج صوتها مصقولاً:

- أغلب الأوقات الواحد مثل ما ينسى أحلامه ينسى الكلام اللي يسمعه وهو نايم!

وتغير صوتها وهي تسأل:

- وبعدها القصة ذاتها، ما تغيرت؟
- بعدها وزادت أكثر من قبل!

وتابعت كأنها تكلم نفسها:

- قلت له: صحتك، الله يسلمك، اغلى شي علينا، واهم ما في الدنيا، ولازم تترك هذا المجنون، خزعل، وكل سوالفه، والمُلك أولها وتاليها واصلك، اذا ما هو اليوم اللي عقبه، وأنت اليوم بالنسبة للسلطنة كل شي، وخزعل، بليّاك، ما يقدر يسوي شي، لكن يناظرني ويسكت، وإذا هذا الحيط ينطق ويقول هو تطلع منه كلمة.

قالت فريزة خانم بغيظ:

- هذول الرجال مثل الأطفال قدر ما تعرفيهم ما تخزري عليهم!

ردت ثروت بحزن:

- وهذا خزعل ما يوفّر أحد، وإذا صبر اليوم ما يصبر اللي بعده، وأنت أعرف الناس: أولاد الحرام ولا أكثر منهم، فأخاف أحد، مريّة أو رجّال، إذا أعطوه، إذا طعّموه، يشيل روحه ويروح لخزعل ويقول له: بقصر السعد صار كذا وكذا، وفنر سوى كذا ويقول كذا، وتقع.

لقد وقعت سابقاً عدة مرات بين الاثنين. وفي كل مرة تنتهي بانسحاب فنر، يحزم حقائبه ويغادر، غاضباً أو يائساً. وكانت ثروت، خلال أيام قليلة، تلتحق به. أما الأولاد فكانوا يتركون لدى جدتهم. وفريزة خانم مثل الدجاجة القوية، والتي لا تخلو من دهاء، تعرف كيف تسوس الأمور: تقبل هدايا خزعل وعطاياه بمودة وامتنان، لكن تعرف كيف ترفض الانتقال من الطريفة الى موران. وكان لديها دائماً أسبابها المقنعة: الربو، الحرارة، دراسة الأولاد. وخزعل الذي يتذكر الأمر فترة، ويلح عليه، لا يلبث أن ينساه. حتى إذا تعثرت الأمور، وخلا الصندوق، وغاب ابن العليان في تلك الأسفار التي أخذت تمتد وتطول، وبدأت موران تتململ، ويظهر ذلك أكثر ما يكون من صمت الناس، أو من خلال النكت التي لا يُعرف من أطلقها، لكن سرعان ما تنتشر، وتتحرف، لكي تصبح كلها في النهاية تعني قصر الغدير، ثم الخالدية بعد ذلك، ولتطال خزعل بالذات. . .

عندما تصل الأمور إلى هذا الحد، ويتفرق أولاد خريبط ما بين الأسفار الطويلة أو القنص، ويُنقل إلى السلطان ما يدور في المقاهي والمضافات، عندئذٍ كان يزفر ويخرج صوته عميقاً من صدره، وكأنه يخرج من بئر عميق:

- كلها شغلة هذا الخبيث: فنر

وبعد فترة صمت طويلة، والجميع حوله صامتون، يقول بصوت متآمر:

- لازم يجي، لأنه إذا جا يدبر الأمور، ويظل تحت أنظارنا. أما وهو بعيد فيظل يحوص ويلوص.

وصدف أكثر من مرة، أن جاء فنر وحده، وصدف أن جاء بناء لالحاح الاخوة، وبعد أن زاره عدة موفدين بعثهم السلطان.

ثروت ما دامت بعيدة، ورغم شوقها للأولاد، ورغبتها أن تكون سيدة القصر الأولى، إلا أن صحتها في هذه الأسفار تتحسن وتنعكس على جمالها ومرحلها، فتبدو أكثر تألقاً، أكثر فتوة، كما تميل الى المزاح، وهذا ما كان يخفف عن فنر، وينسيه بعض الأحيان، خاصة تلك الكوابيس التي كانت تشغل معظم لياليه.

وإذا كان فنر قد تعوّد الصمت حتى أدمنه، خاصة حين يكون في السلطنة،



فكانت تفلت منه، بعض الأحيان، كلمات، تعرف ثروت كيف تلتقطها، وتجمعها إلى جانب بعضها بصبر، حتى إذا شكّلت موقفاً أو فكرة دفعتها إلى مكانها المناسب، لتستخرجها مرة أخرى، حين تحتاج إليها، بعد أن تتراكم فوقها معلومات. وبطريقة بسيطة، لكن لا تخلو من مكر، تعرف كيف تحاوره وكيف تواصل معه الحديث. في حالات عديدة كان يفترض أنها لا تعرف مثل هذه المعلومات، لأنه لم يقلها لها مباشرة. لكن كان يعزو ذلك إلى هذيان الليل، أو حين يفرط في الشراب، وبعد أن ينظر إليها بطريقة خاصة، يضيف كلمات أخرى في نفس الموضوع، ثم ينتقل إلى آخر!

وشيئاً فشيئاً، أصبحت ثروت وجهه الآخر. لقد تعلمت هذا الدرس من موضي إلى أن تفوقت عليها. وتذكرت أمها حين كانت تلحّ عليها لكي تصبح مثل موضي، وكيف تدخل إلى قلبه، لتعرف ما يدور في رأسه دون كلمات، بأقل الكلمات. أصبحت تلك النصيحة ذكرى بعيدة، لأنها تجاوزتها لكي تصبح كل شيء بالنسبة له.

قالت لأمها والسلطان خزعل يستعد للزواج من سلمى المحملجي:

- هذا آخر زواج له وهو سلطان. . .

ابتسمت بخوف والتفتت، فهي لا تقوى على اخفاء مثل هذا السر، ومع ذلك تريد من أمها أن تستعد فيما لو تعقدت الأمور، أو أخذت مجرى آخر، نتيجة خطأ، وتريد أيضاً ألا يقع هذا الخطأ، خاصة ممن حولها، على شكل تعليق ساخر أو شتيمة، فيشي بما وراءه.

ردت فريزة خانم:

- هذول، يا بنتي، تعودوا، حتى لو قالوا: هذا الأخير؛ لأن ما يمر شهر شهرين إلا وينسون، ويبدون من جديد!

وحين ظلت ثروت صامتة، واكتفت بهزات ساخرة من رأسها، سألت الأم:

- هو اللي قال انه آخر زواج؟

قالت ثروت في محاولة للتمويه:

- هو وغيره، يا ماما!

لقد انتظر فنر طويلاً. الحيرة لا تزال تأكله، والخوف يجعل تفكيره مضطرباً أقرب إلى الشلل. «ماذا لو عرف خزعل؟» «ماذا لو فشلت المحاولة؟» وهؤلاء الذين تحدث معهم، اتفق معهم، ماذا لو نقلوا لخزعل ما يفكر فيه وما يخطط له؟

يتذكر، قبل سنين، حين بدأت العواصف تثور حول السلطنة، ان هاملتون قال له:

- يجب الحذر الشديد في أواخر الليل وعند الفجر، لأن في الليل المتأخر تبدأ القطعات العسكرية بالتحرك، وعند الفجر تصل الى حيث يجب أن تكون، بما في ذلك الاذاعة؟

وحين لم يفهم بدقة ما يرمي اليه هاملتون، وتساءلت عيناه، أوضح هاملتون:

- على الحاكم أن ينام قبل الآخرين وأن يستيقظ قبلهم، لأن الذين يستيقظون مبكراً يستطيعون أن يفعلوا شيئاً: أن يمنعوا انقلاباً ضدهم، اذ يمكنهم أن يتحركوا بسرعة، وإذا لم يحالفهم الحظ، يكون لديهم متسع من الوقت لكي يتواروا عن الأنظار، لكي يهربوا، وعند ذلك تكون أمامهم فرصة ثانية، أو على الأقل لكي ينجوا بأرواحهم!

ومرت في ذاكرته صور الانقلابات التي حصلت هنا وهناك. كان يقرأ تفاصيلها بكثير من العناية والشغف، يريد أن يعرف كل شيء، لا لكي يطبقها، وإنما لكي يمنع وقوعها، فهو يبقى، مهما اختلف مع خزعل، شريكاً في السلطة، واذا أسعفته صحته لا بد أن يصبح سلطاناً بعد أخيه، فهل وصل به الأمر الآن لأن يفكر بالانقلاب؟ ان هذه الوسيلة الملعونة اذا مكّنته من الوصول، فإنها تفتح الباب عريضاً لكل واحد آخر يمتلك عدداً من الدبابات والرجال والبنادق ان يفعل مثله، وعندئذٍ يكون كمن فتح باب



الجحيم، وترك الشياطين تخرج من أوكارها لتفعل كل ما تريد.

قال لأخيه مساعد الذي جاءه واقترح عليه أن يتم اغتيال خزعل:

- مجنون أنت؟

ولما فوجىء مساعد برد الفعل، قال بتلعثم:

- لأنه اذا ما تحركنا غيرنا راح يتحرك، طال عمرك، وهذول اذا تحركوا يذبحونّا كلنا، ما يخلّون منا مخبر.

رد فنر، وكانت لهجته لا تخلو من لوم:

- صحيح أننا مختلفين مع خزعل، وخزعل خرّب الاول والتالي، لكن ما وصلت بينا ان الواحد يذبح الثاني...

وبعد قليل:

- وهذا الكلام ما اريد اسمعه منك نوبة ثانية يا مساعد!

قال مساعد بضيق:

- الواحد ما يقول هذا الكلام، طال عمرك، الا لأنه انشق كبده، ولأن اللي سوّاه خزعل ما نزل بكتاب ولا يشيله عقل!

وتغيرت اللهجة:

- صار الغُرب هم اللي يحكمون ويرسمون، وحنا، أولاد خريبط، مثل الأيتام، لا نحكم ولا احد يسمعنا؛ وهالحين مثل ما تشوف ومثل ما تسمع: المحملجي ما هو بس مستشار طويل العمر، راح يصير نسيبه وعمه، وحنا اذا كنا نقدر نقول له يصير وما يصير، لا بالله بعد اليوم يلزم نقول له: اللي تؤمر، وامرك، واللي تريده يصير على العين والراس.

رد فنر بحدة ونزق:

- اتركنا من هالفطريط، هذا على مريته ما يمون!

- بس هذا اللي راح يتحكم بروسنا، يا طويل العمر!
- خلنا من هذي السوالف هالحين، بس انت قوِ أعصابك، وقوِ قلبك، وما يصير الا الخير.
- اعصابي قوية، طال عمرك، وقلبي صخر جلمود، بس خلي غيري تصير اعصابه قوية ويقوي قلبه.

كانت الكلمات الأخيرة تحمل تعريضاً لا يخفى، وفنر الذي احتملها وابتسم، ادرك ان استمراره في موقف الانتظار والتأجيل يمكن أن يدفع الآخرين للتحرك، لعمل شيء، كما أن طاعة الاخوة له، والهيبة التي تميزه بالمقارنة مع غيره، قد تتلاشيان، أو لا يعود قادراً على الاستفادة منها.

قال بعد فترة صمت طويلة:

- بلغ راكان وسند وميرز وحمود انهم يمرون بي المسوّيات، وتعال معهم، وعساها تنفرج!

موران التي أُخذت باحتفالات الزواج، وانشغل الناس فيها بمتابعة الالعاب النارية وفرقة موسيقى القصر، وقد لبس افرادها ثياباً جديدة ملونة، وتابع الكثيرون سباقات الخيل والهجن، وحضر قسم منهم الولائم التي أقيمت، وخرجت النسوة مع الاطفال الى الشوارخ، وتجرأوا في الوصول إلى أسوار القصر، وراقبوا السرادق الكبير بوجوه نصف مكشوفة، دون خشية من لوم الرجال أو تعنيف الازواج والاخوة، ثم المراهنات التي جرت بين الكثيرين حول عدد أيام التعطيل والمنح التي ستعطى للموظفين... كل هذه الأمور جعلت الناس يكفون عن مراقبة بعض، أو عن الاهتمام بالاشياء الصغيرة والعادية. وكان هذا كافياً لأن يلتقي أولاد خريبط دون خشية أن تصل أخبارهم الى السلطان. وأن يلتقوا أيضاً بآخرين، وأن يتفقوا معهم على أمور كثيرة.

ما كادت حفلات الزواج تبدأ، ومعها الاصداء والولائم والصخب، حتى تـوارى فنر. غاب تماماً. قيل أنه ذهب الى عين فضة، وقيل انه ذهب الى القنص، لكن ما هو مؤكد أنه غاب وعدد من الاخوة. صحيح أنهم هنأوا



السلطان بزواجه، وقدم بعضهم هدايا بهذه المناسبة، الا أن الكثيرين انسحبوا دون أن يحس بهم أحد.

حين تقرر سفر السلطان، وكانت موضي أول من عرف، ذهبت بنفسها الى الرحيبة لتبلغ فنر، وقد كانت من القلائل الذين يعرفون مكانه. قال لها أو قال لنفسه، ولم تفهم معنى الكلمات بدقة:

- هالحين تحددت ساعة الصفر!

أما حين تقرر أن يسافر السلطان قبل ظهر يوم الخميس، فقد ارسل فنر مرافقه نصار ليعتذر عن عدم الحضور لوداع السلطان بسبب انحراف الصحة. كان يخشى أن تفضحه عيونه، ان يجرحه صمته، وكان يريد أن تتأكد أيضاً من آخر التفاصيل التي تسبق الحدث الكبير.

ومرة أخرى تذكر كلمات هاملتون حول النوم المبكر والاستيقاظ قبل الفجر، واذا كان قد حاول النوم، فانه لا يتذكر ان غفوة، ولو صغيرة، زارت عينيه، رغم أنه شدّ العينين كثيراً، اكثر مما يفعل في العادة، لكي ينام. وفي هذه الظلمة البراقة سافر كثيراً وحلم كثيراً، لكن خوفه كان أكثر، وقد لاحظ ان دقات قلبه اصبحت قوية صاخبة، أما عندما سمع الآذان فقد نهض مثل قط، ولم ينتظر لترتفع الشمس لكي يتوجه الى موران.

النقطة الوحيدة، وربما الأخيرة، التي شغلته: هل ينتظر انقضاء اليوم كله، والليلة التي تليه، والى أن يأتي الفجر، لكي يعلن أن السلطان خزعل قد عزل، وأنه أصبح السلطان، أم يتجاوز طريقة الانقلابات التي قرأ عنها الكثير، ويعلن في وضح النهار، أمام جميع الناس، انه أصبح لهم سلطاناً جديداً، بعد أن عزل السلطان الذي كان؟

بعد سنين، قال فنر بنشوة، وهو يتذكر:

- ... ولو صبرنا عليه سنة ثانية كان خرّب الأول والتالي، وكان صرنا كلنا اثر بعد عين، لانه بآخر ايامه صار مثل الجمل الهايج، ولان اللي حوله بس يهزون روسهم ويوافقون على كل اللي يقوله، وما هو بس كذا، صار كل واحد منهم مستشار وهو اللي يؤمر وينهي!

من الأوامر الأخيرة التي أصدرها زيد الهريدي، قبل أن يغادر مع السلطان: حجز الشيخة الى ما بعد السفر. وقد استدرجت أمي زهوة بطريقة لا تخلو من مكر، وحبست في قصر الروض، في جناح كان ذات يوم مستودعاً، وظلت خمسة أيام بعد سفر خزعل، لأن أحداً لم يتذكرها في خضم الأحداث الكبيرة التي وقعت.

عصر اليوم الخامس أفرج عنها فنر. فعل ذلك بكثير من الانفعال والغضب، إذا قام، يرافقه عدد محدود من الحرس، وفتح بنفسه بوابة المستودع، ولأنه لم يسمع صوتاً خلال اللحظات الأولى، وكان الظلام في الداخل كثيفاً، فقد ظن أن الشيخة غير موجودة، أو أنها فارقت الحياة.

قيل أنه بكى وهو يقبلها ويعتذر منها، واكد لها أنه لم يعرف بالأمر الا قبل لحظات، حين سأل عنها يريد أن يزورها. أما قبل أن يغادر المكان، ويصطحب معه الشيخة، فقد أمر بإنزال مائة جلدة بكل واحد من الحرس الذين كلفوا بحراستها!

الشيخة، وهي تدخل قصر السعد، وبعد أن عرفت بتنحية خزعل، ملأت القصر بزغاريدها، كان صوتها ضعيفاً منهوكاً، أقرب إلى مواء قطة مسنّة، لكن خلال لحظات اشتركت معها نسوة اخريات، وترافق ذلك مع اطلاق الرصاص، فامتلأ القصر بالخوف، أول الأمر، ثم بالفرح، بعد أن تبين السبب.

في اليوم التالي، ولعدة أيام لاحقة، كانت الشيخة بملابس زاهية تتنقل، كالبطة، بمشيتها البطيئة المضطربة، في جميع أنحاء القصر، وعلى غير عادتها



كانت ترفع يديها بالتحية، ليتبيّن كل من يراها الحناء الذي ملأ اليدين، ولأن تهاني اسرفت في وضع الكحل حول عيني الشيخة، فقد بدا الوجه وكأنه عينان كبيرتان، أما العصا التي كانت تسبقها وتنذر باقترابها، فكانت غير تلك القديمة المسودة، انها عصا جديدة بلون خشب الزان، وكانت هدية من فنر.

رغم الحاح فنر أن تبقى، ورغم مظاهر الاهتمام والتكريم التي كانت تحيط بها، وهذا ما جعلها تستعيد جزءاً من عافيتها وقوتها، فقد أصرت الشيخة على أن تعود إلى قصر الروض، إلى «بيتها»، كما قالت لنصار الذي جاء كرسول أخير يرجوها أن تبقى.

في قصر الروض، ولثلاثة أيام متوالية، بدت الشيخة، وحدها، سيدة القصر: استقبلت بالذبائح واطلاق الرصاص. أمرت أن توزع الهدايا والاعطيات، أمرت بذبح أعداد كبيرة من الغنم والجمال وان توزع لحومها في موران كلها. قال حرس القصر وعدد من الخدم انهم لم يشهدوا سخاء مثل هذا الا مرات قليلة، وأثناء انتصارات خريبط، وبالغ بعضهم فزعم أن مثل هذا الكرم لم يظهر حتى من خريبط ذاته.

بعد هذه الأيام بدأ يعود قصر الروض الى حياته السابقة، وكان من الطبيعي أن يحصل ذلك، لأن الأحداث والأخبار، وحتى الشائعات، لم تعد تقع فيه او تصدر عنه، وإنما في القصور الأخرى، منذ أن هجره معظم ساكنيه، وقد فعلوا ذلك بشكل متلاحق وسريع بعد وفاة السلطان خريبط. وبمرور الوقت لم يبق في القصر الا المسنون، والذين لم يجدوا أمكنة أفضل، أو أولئك الذين تعودوا عليه وأصبح جزءاً من حياتهم وملامحهم. ويوماً بعد يوم أصبح قصر الروض قديماً متعباً، أقرب إلى الهرم. حتى الأحداث التي تقع خارجه لا تصل إليه الا اصداء وبعد مرور وقت غير قصير.

الفترة الواقعة بين الإفراج عن الشيخة ثم اختفائها الكامل من الغموض والتداخل الى درجة، لا يمكن لأحد أن يقطع برأي. فما عدا الأسبوع الأول، أو على التحديد الأيام العشرة التي أعقبت اطلاق سراحها، وقد حفلت بالعطايا والزيارات والضجة، فإن ما تلا ذلك أقرب إلى التقدير أو الإفتراض.

قيل أنها نذرت الصيام العمر كله، إذا قُدّر لها أن تعيش. الصيام ليس فقط عن الأكل وإنما عن رؤية الناس أيضاً، وها هي تعتبر النصف من شعبان الوقت المناسب لتنقطع عن العالم وتنصرف الى التعبد، لأن الأشباح التي طوقتها في محبسها، والأصوات التي كانت تسمعها طوال الأيام الخمسة، جعلتها تحسّ بالخوف والإثم معاً، وتريد الآن أن تطهّر روحها قبل أن تنتقل الى الدار الأخرى.

وقيل أنه المرض، اذ بعد أن رفضت الأكل طوال الأيام الخمسة، وتحاملت كثيراً على نفسها، لكي تظهر قوية، ولتفرض ارادتها من جديد، لم تلبث أن سقطت، وقد تكتمت، وفعل ذلك كل من حولها أيضاً، لتبقى بالصورة التي رآها عليها الكثيرون. ومما يعزز احتمال المرض أن نعوّم قضت بضعة أيام في الجناح الغربي، وأنها استعانت باثنتين، ممن يعملن معها في حمام القصر، لتدليك الشيخة ثم حجمها، وقيل أنها كوتها أيضاً.

بعض الذين سمعوا الحديث يدور عن مرض الشيخة، وبالتالي احتجابها، وما رافق ذلك من تكتم، ضحكوا كثيراً وهزوا رؤوسهم سخرية، لأنهم كانوا على ثقة أن وراء هذا الغياب أموراً خطيرة وليس لها علاقة بالمرض أبداً! يستدلون على ذلك من وصول مزهر العطيفي، المنجم، وفاتح الرمل الذي تعرفه موران كلها، وهو الوحيد الذي تنبأ بقرب وفاة السلطان خريبط، وقيل أنه أسرّ بتلك النبوءة، بعد تردد وامتناع طويلين، الى اثنين: الشيخة والأمير خزعل، وقد طلب منه أن يغادر قصر الروض فوراً وان لا يبوح بذلك لأحد. وأكد بعض الحرس أنه أرسل إلى الحويزة مع رسالة الى أميرها ان يستبقيه هناك، وأن لا يسمح له بمغادرتها الا بأمر لاحق. مزهر العطيفي الذي غاب عن قصر الروض طوال الفترة السابقة، شوهد من جديد ولمرة واحدة في القصر، ثم اختفت آثاره تماماً بعد ذلك.

ولأن الأمر تشعب في اتجاهات عديدة ومتضاربة، من مداهمة لقصر المحمجلي، والاستيلاء على حاجات عديدة خاصة، بما فيها ملابس للثلاثة، الأب والأم وعروس السلطان، وقيل أن جزءاً منها أحضر الى قصر الروض، بناء لطلب



مزهر؛ ولأن كميات من النباتات الطبية حملت الى القصر، ولم يعرف ما إذا كانت للعلاج أم لأغراض السحر. ثم وصول عدلة وبقاؤها يوماً كاملاً في جناح الشيخة، مع لغط تزايد كثيراً قبل مغادرتها بساعة، اذ وصلت عدة سيارات من قصر الغدير، وفيها عدد من أبناء السلطان خزعل، وقد بدت على ملامح الجميع مظاهر الغضب، ثم مغادرتهم السريعة بعد ذلك، جعل الكثيرين يحارون في تفسير ما يجري، خاصة وأن تهاني غادرت مع هؤلاء، وبدت مضطربة وهي تسير بينهم. أما الذي تلا ذلك من اشاعات عن احتمال وصول السلطان فنر، وأن مصالحة سوف تتم بين الأخوة، بعد أن ظلت عدلة تبكي من لحظة وصولها، وتتوسل، وربما لتعيد خزعل فقد حمل الشيخة على أن تستجيب وقد عزز توقعاً مثل هذا أن موضي وصلت فجأة عند الغروب، وقيل أن السلطان أرسلها نيابة عنه، لأن المفاوضات لا تزال، حتى الآن، تجري بين النساء، ومن الأنسب أن تكون موضي المفاوض نيابة عنه.

وفجأة ينتهي كل شيء، إذ يغادر الزوار ويغرق الجناح الغربي في الصمت، ولا يعرف ما تم الوصول إليه. وتبدأ بعد ذلك الفترة التي يحيط بها الغموض.

تهاني لم تتكلم أبداً، خوفاً أو عجزاً، ولهذا سيبقى الأمر سراً الى الابد، ولا يمكن لأحد أن يجزم تماماً بما حصل. لكن، مع ذلك، فإن الخدم والحرس، قدروا ان شيئاً ما وقع في اليوم الأول، واستكمل في الأيام الثلاثة اللاحقة، لكن يبقى، مع ذلك، كل تفسير قابلاً للنقض والرفض بأدلة قوية معاكسة.

أكثر من هذا ان الكثيرين، حتى بعد مرور فترة طويلة، يصرّون، وبقناعة اكيدة، على أن الشيخة لا تزال على قيد الحياة. صحيح أن أحداً لم يرها، لكن ان توقد أنوار القصر كل ليلة، وان تسمع بعض الأصوات في ليالٍ معينة، خاصة ليالي القمر، أدلة لا تقبل الشك على وجودها. أما عدم رؤيتها، أو عدم ظهورها فلا يتعدى الرغبة التي سيطرت عليها في أن تبدأ ذلك الصيام الطويل لما تبقى لها من سنوات العمر.

ولأن هذا التفسير اتى من جهة قصر الغدير، ويروج له الذين لا يزالون على ولائهم للسلطان المعزول، ولنفي أية علاقة بما تردد بعد ذلك، فإن آخرين

يؤكدون أن عدلة التي وصلت الى الجناح الغربي من قصر الروض، لم تأت من أجل الزيارة، أو تعبيراً عن المودة، كما لم تأت للاعتذار عما بدر من السلطان، أو بالأحرى من المرافقين والحرس، وإنما جاءت لمهمة محددة: أن تخدّر الشيخة، وقد فعلت ذلك بكثير من البراعة والمكر، اذ وضعت لها مادة في الشاي الذي شربته، ولما تأكدت من نجاح مهمتها جاء عدد من أبنائها ومعهم حرسهم، وخلال دقائق معدودة أكملوا المهمة، وانتهى كل شيء.

مقابل هذا التفسير يتردد على ألسنة خدم قصور الخالدية: ان الشيخة نُفيت، أو ربما قتلت، بأمر من السلطان فنر ذاته، لأنها رفضت البقاء في قصره، وأصرت على أن تعود إلى قصر الروض، ثم حين أمرت، زيادة في تحديه، بذبح الخراف، وكأنها تريد أن تعيد لقصر الروض المكانة التي كانت له. أما مجيء موضي، عند غروب ذلك اليوم، ولم تدم زيارتها إلا وقتاً قصيراً، فكان بمثابة الإنذار الأخير: إما ان تكفّ الشيخة نهائياً عن التدخل في شؤون القصر والا . . .

قيل ان الشيخة لم تكتف برفض التهديد، اذ لم تسمح لموضي أن تتم رسالتها، ومما يؤكد افتراضاً مثل هذا أن موضي تعثرت وهي تصعد الى السيارة نتيجة الانفعال، بينما قالت قطمة لاحدى خادمات العنود، ان سيدتها لم تتوقع وجود عدلة عند الشيخة. لذلك انسحبت بسرعة لكي لا تختلف معها، رغم محاولات الشيخة استبقاءها!

أما ما ظهر من غنى ورفاه على عدد من الأمراء بعد فترة من غياب الشيخة، فإن بعض الذين يميلون الى تفسير الأمور تفسيراً سيئاً، يؤكدون علاقة هؤلاء بغيابها، أو حتى بمقتلها، ثم الاستيلاء على ما كان عندها من أموال. خاصة وأن تهاني لم تعد الى قصر الروض الا بعد أيام من مغادرته، ويظن أنها هي التي أبلغت عن مكان وجود ذهب الشيخة وجواهرها، والسيوف الذهبية التي كانت تحتفظ بها. فعلت ذلك نتيجة السحر الذي عمله لها مزهر العطيفي، والذي استدعي لا ليشفيها من الأوجاع التي ألمّت بها بعد حبس الشيخة، وإنما لأسباب أخرى!

ولأن لدى موران الكثير مما يشغلها أو تتلهى به، ولأن عدداً كبيراً من الذين



رافقوا السلطان خزعل في سفرته الى بادن بادن بدأوا يعودون، ورافق عودتهم الكثير من اللغط والتوقع، فقد تراجعت الاخبار والشائعات المتعلقة بالشيخة، لتحل مكانها أخبار وشائعات أخطر منها: عادت طلائع خزعل، وهو سيعود بين يوم وآخر، ومما ساعد على انتشار هذه الأخبار التعزيزات والتحصينات التي أقيمت حول عدد من قصور الأمراء، وعودة الدبابات الى حراسة قصر السعد، اضافة الى معلومات، لم تتأكد، حول اعتقالات واعدامات نتيجة اكتشاف محاولة لاغتيال السلطان فنر.

ومثلما حصل في مرات سابقة، خاصة أثناء التغيرات الكبيرة، وما كان يرافقها من مخاوف وانتظار، فإن موران بدأت تتوقع وتراقب وتنتظر.

لكن خلافاً للمرات السابقة، حيث كان الخدم والحرس، اضافة إلى النساء، هم الذين يتولون تسريب الأخبار، وباشكال لا حصر لها، وكان يجري في سوق الحلال اعادة ترتيبها ضمن انساق يمكن في النهاية استنتاج ما تحمله من مغزى ودلالات، فإن قصر السعد هذه المرة غرق في الصمت تماماً، وقيل أن عدداً من الحرس استبدل أكثر من مرة نتيجة هفوات صغيرة، واشرف حماد المطوع بنفسه على ترتيبات الأمن، بما فيها التحريم الكامل أن تنتقل أية أخبار عن القصر، حتى أسماء الذين يزورونه، وأسماء الذين لا يأتون. لذلك فإن أي خبر ينتشر في موران يمكن أن يكون صحيحاً، ووقع بالفعل، ويمكن أن يكون مجرد شائعة.

عبد المولى الذي انتقل مع حماد المطوع من جهاز الأمن والسلامة الى وزارة الداخلية، وسُمّي في هذه الفترة مديراً لمكتب الوزير، كتب الى مسؤولي الجهاز، بناء لأمر الوزير، ما يلي: «. . . ويراقب مسؤولو الجهاز مرؤوسيهم بدقة عن تنفيذ التعليمات السابقة، ويعتبر المسؤول نفسه معرضاً للعقاب الشديد في حال تسرب أية أخبار، مهما كانت، عن القصر، وعن صاحب الجلالة السلطان بالذات، وعن الأمراء».

ويحظر على منتسبي الجهاز تقديم أية تفسيرات للأخبار التي يتداولها الناس، مهما كانت الظروف».

«ويحظر على منتسبي الجهاز اقامة أية علاقات مع الأجانب وزوار موران،

ويلزم التبليغ عن أية صلات سابقة».

«ويطلب من كل مسؤول أن يقدّم تقريراً أسبوعياً عن العناصر التابعة له، وسوف نوافيكم، في بلاغ لاحق، بالنموذج الذي يجب اعتماده في اعداد التقرير المطلوب».

«يعتبر مساء السبت، الساعة التاسعة، موعداً ثابتاً ودورياً لاجتماع مسؤولي الجهاز، دون حاجة لاشعار لاحق. ويكون الاجتماع في شعبة العمليات والمتابعة».

لقد فعل حماد المطوع ذلك بناء لأمر مباشر من السلطان. قال السلطان فنر في اجتماع ضمهما وحدهما، وقبل تسميته وزيراً للداخلية:

- . . . وما يحتاج ان أحد يوصيك يا حماد، ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: اقطع راس تموّت خبر، فابتداء من اليوم، كل واحد، خاصة من الجهاز، ينسمع عنه انه قال كلمة واحدة، ما اريدك ترحمه، ويلزم تخليه عبرة لمن يريد يعتبر. . .

تنحنح فخرج صوته حاداً:

- وأنت تعرف: أهل موران، ما عندهم غير السوالف، ويعرفون شلون يجرون الواحد حتى يطلّع اللي ببطنه، ودايماً يأخذون اسرارهم من زغارهم، يدورون الحرس والمرافقين والناس اللي حوالينا: ها من زار القصر اليوم؟ مع من تغدى عمك؟ شلون جا فلان وشلون طلع؟ ومن هذي السوالف يبنون علالي وقصور، ويعرفون الأول والتالي. . .

وعاد إلى لهجته الأولى:

- فاريدك يا حماد تقطع دابر كل واحد من هذول. اريد الواحد منهم أخرس حتى لو قطعت رأسه، وأريد سوالفنا تظل بينا، وما تتعدى القصر أبد.

تطلع فنر ملياً إلى حماد، وابتسم، ثم قال بصوت متآمر:

- ولأنا نثق بك يا حماد، وجربناك وعرفناك، فاريد منك تساعدني، وأريد أمون



عليك، واحمّلك فوق ما تحمل: مع الجهاز اريدك تكون وزير للداخلية، وابتداء من اليوم ما يطير طير فوق السلطنة الا وتعرفه وبامرك، والرجال للاحمال، وعسى أن الله يوفقنا!

لقد اعترف حماد بما دار في هذا اللقاء، بعد سنتين، لتركي السقيّان، حين سُمّي الاثنان سفراء في وزارة الخارجية. تمهيداً لاختيار الأمكنة التي تناسبهما. قال ذلك بمرارة، وهو يستعرض الفترة السابقة كلها.

أما الإجراءات التي اتخذها، خاصة لحماية أسرار الدولة، كما وصفها لكبار معاونيه، فلم تترك أحداً صديقاً له، اذ بالغ كثيراً فيما يعتبره سراً، فلم ينج أحد من عقابه، إذا كان تابعاً له، أو من الملامة، وحتى المساءلة، إذا كان من الادارات الأخرى.

قال شداد المطوع تعليقاً على ما سمعه في مقهى زيدان، وقد انتشر فيه المخبرون، وحين سأل أحد الجالسين حوله عن أخبار موران، فاكتفى هذا بجواب مختصر: هز كتفيه وضحك بسخرية، قال شداد موجهاً الخطاب الى الكثيرين:

- ابن اخوي يريد الناس جيران مقبرة: لايتكلمون، لايتزاورون، ولا أحد يعرف الثاني، لكن هذي موران: إذا الواحد ما طلّع اللي بقلبه يموت حسرة أو يهجّ . . .

وأضاف بعد قليل بحزن:

- وظني أن ولد اخوي ما يعرف موران ولا يعرف اهلها، واللي يعيش يشوف!

وموران التي انكفأت على نفسها، وغطّت وجهها بطبقة سميكة من الصمت، عرف الناس فيها كيف يهجرون المقاهي والمضافات المفتوحة، ليستبدلوها بوسائل أخرى تفننوا باختراعها، اذ بالاضافة الى اللغة الجديدة التي بدأت تغتني كل يوم بمفردات وتعابير لا يعرف من اخترعها، فإن الراديو هذا الجهاز الذي دخل كل البيوت، وأصبح حتى الرعاة يحملونه اينما ذهبوا، غيّر كل شيء.

قال زيدان لعدد من الاصدقاء الذين يجلسون حول طاولته، في مقدمة

المقهى، وأصبحوا جزءاً من أثاث المقهى:

- . . . وأولاد الحرام عيونهم مثل عيون الحرامية: يشربون ويمشون، ولا أحد منهم، في يوم من الأيام، يخطي ويمد يده على كيسه ويقول: هذا حق المشروب. . .

وضحك بسخرية ثم تابع بحسرة:

- قلنا أول شهر شهرين: ما يخالف، زكاة، وان ما كانت تحلّ عليهم، لأن غيرهم يكّفي ويوفي، لكن مثل ما تشوف عيونكم: أولاد الحلال، اللي يشربون ويدفعون ما عادوا عتّبوا قهوتنا، وما شفناهم، وظل هذول اللئامة بوجهنا، فيلزم ندوّرشغلة ثانية!

ولم يتأخر زيدان لأن يحوّل مقهاه الى فرن، سماه فرن الاصدقاء، وان ظل أهل موران لا يعرفونه الا بفرن زيدان.

أما الراديو الياباني الصغير فقد حل مكان سوق الحلال والسوق القديم، وبين يوم وآخر تغيرت موران. فالصمت الذي بدأ يملأ شوارعها خلال ساعات النهار، تحوّل الى دوي يملأ لياليها، وترافق ذلك مع النكت والتعليقات الساخرة. كان الناس يسمعون أخبار موران من الاذاعات الخارجية، حتى خلاف الاخوة، وانتقال خزعل من مكان الى آخر، كانت تصلهم من بعيد، فإذا صدف ان فتح أحد على اذاعة موران، وغالباً ما يكون ذلك بطريق الخطأ أو لحب الاستطلاع والفضول، فلا تلبث أن تنهال عليه التعليقات الساخرة: «اتركنا، يا ابن الحلال، من هذا الكذوب» «تركت اذاعات الدنيا كلها وفتحت اذاعة كلك منين يا بطة».

قال زيدان يوصي صديقاً يريد أن يسافر أحد أقربائه الى اليابان:

- وأريد تكلّف لي قرابتك، ما دام رايح لليابان، ان يطرّش لي راديو زين زين، وادفع له، مهما كان.

وخفض صوته، صار متآمراً:



- بس بشرط. . .

وتابع بتآمر اكثر:

- الشرط انه ما يجيب موران!

- عمر الطريفي الذي جلب معه دساتير اثنتين وعشرين دولة، وقيل أنه أعد مشروعاً لدستور، وقد صودرت هذه الدساتير، مع مكتبته الكاملة، قال لرئيس المفرزة التي داهمت بيته بمرارة وسخرية معاً:

- يا وليدي أنت مأمور، وما لك ذنب، بس يلزمك تعرف: الدنيا اليوم ما هي مثل قبل، الدنيا صارت صغّيرة. إذا أخذت هذي الكتب ترى مثلها بالآلاف، والكتاب قبل ما يخلص ينطبع مرة وثنتين وثلاث. واذا ما وصل بأول يوم يصل ثاني يوم، واذا ما نقرأ اليوم ينقرا عقبه، وإذا ما قريته انت يقراه غيرك. وكل ما أريده منك أن تحمل الكتب على مهلك، وتوّصلها للي يلزم تصل له. وبهذا وحده اعتب عليك وألومك إذا أخطيت.

ورئيس المفرزة الذي تظاهر، أنه لم يسمع هذه الموعظة، استشاط غضباً حين أوقع أحد عناصر المفرزة كمية من الكتب وداس فوقها. قال، وخرج صوته حاداً:

- لا تدوس عليها، يا ابن الحرام، لأن بكل صفحة منها مكتوب اسم الله، فخاف الله يسخطنا!

قال عمر الطريفي:

- مهما حاول الواحد يهرب من الشمس والقمر، لكنهم فوقه، وما يقدر يغيرهم أو يوقفهم، والأحسن والأسلم ان الواحد يمشي ممشى زمانه!

وبعد قليل وكان يحدث نفسه، ولا يهمه اذا سمعه أحد أو لم يسمعه:

- والدستور ما منّه، اذا ما جا اليوم يجي اللي عقبه، بس ما ادري ليش اللي يحكمون يكذبون هالكثر!

قال قائد المفرزة بغضب مبالغ فيه:

ـ خفّوا أيديكم، ورانا ألف شغلة غير هذي الشغلة، واهم منها!

نمر، ابن شمران العتيبي، قال للسجناء الخمسة الذين كانوا معه، وبعد أن انتزع من أذنيه سماعات الراديو، وقد دفع من أجل الحصول عليه كل ما أخذه من بدر. في زيارته الأخيرة. دفع المبلغ، وكان كبيراً، ثمناً للجهاز ورشوة للحارس الذي جلبه:

ـ ولولا مية سبب وسبب يظن الواحد انه بقهوة زيدان!

رد أحد السجناء الخمسة:

ـ لا بالله، وانت الصادق، يا أبو شمران، يظن روحه بقصر السعد. . .

وبعد قليل وبسخرية:

ـ هات علّمنا علومك، شنهو اللي سمعته، من أول الليل الى هالحين؟

وبدأ نمر، مثل عادته:

ـ اليكم أولاً، يا جماعة الخير، الاخبار. اخبار موران اليوم أن المعاهدة التي وقعها فنر نيابة عن السلطان خريبط مع الولايات المتحدة قبل عشر سنوات، ثم تجديدها اليوم، ولمدة عشر سنوات جديدة.

أما التعليق، يا جماعة الخير. . .
قال أحد السجناء مقاطعاً وبسخرية:

ـ ونريدك، يا أبو شمران، مثل ما تحفظ الاخبار وتعيدها، ان تحفظ الاغاني، وبين نشرة ونشرة، ومن حُلْقك الحلو، مجموعة اغاني وتقاسيم.

ـ وتريدنا نسمعه، يا ابن الحلال؟

هكذا سأل سجين آخر، وكان لا يتكلّم الا نادراً، واضاف بعد قليل وهو يقهقه:

ـ لو سوّاها ابو شمران كان ثاني يوم يفرجون عنا، او يهدمون السجن فوق روسنا!



قال نمر بغضب:

ـ والله يا خنازير ما تستاهلون ان الواحد يتعب روحه لاجلكم!

وظلت موران تدور في هذه الحلقة الرجراجة، وظل الناس ينامون على آخر نشرات الاخبار، ويستيقظون على أول النشرات، وقد امتلأوا قناعة أن شيئاً ما لا بد أن يحدث!

الزيارة التي قام بها ليفي شاوات، كنائب لرئيس الوفد الذي ابرم صفقة السلاح مع سلطنة موران، غيّرت الكثير من أفكاره ومشاريعه. قبل الزيارة كان يخطط لشراء مزرعة في كالفورنيا لكي يستقر فيها، بعد أن تعب من الانتقال من قارة الى أخرى، إلى ثالثة، حتى استقر في هذه الشركة. لكن والسنوات تمر، والأعمال المكتبية تحاصره، ثم تلك الاجتماعات والمناقشات ودراسة العقود التي لا تنتهي، جعلته يحس أن صدره يضيق، وحياته تتبدد. الآن يريد أن يتصرف، بما تبقى له من سنوات، بطريقة مختلفة، يريد أن يعمل بيديه. وبعد أن يتعب، أو ينتهي من العمل، يجلس في الشرفة لكي يتأمل ويستعيد حياته كلها، والتي تبدو له في لحظات كثيرة غير قابلة للتصديق، لفرط ما عانى وما رأى، حتى إذا جاءه الموت ذات يوم يترك لأولاده وأحفاده شيئاً ثابتاً وقوياً، ولم يجد أقوى وأكثر ثباتاً من مزرعة كبيرة في هذه البقعة من العالم.

هكذا كانت تنساب افكاره، وكانت أقرب الى الحلم، وفجأة، ولا يعرف كيف، تغير كل شيء دفعة واحدة.

لا يمكن أن تكون الاحاديث التي تبادلها وغزوان في مكاتب الشركة، ثم في الرحلة الطويلة التي حملتهما إلى موران، السبب وراء القلق ثم الحيرة وأخيراً التغير الذي سيطر عليه، وحرك شيئاً في داخله.

إذا أراد أن تعتبر لحظة بذاتها أثرت عليه، وجعلته يعيد النظر بكل شيء، فهي بالتأكيد تلك اللحظة التي لامس فيها وجهه هواء موران. كان الهواء دافئاً، أقرب الى اللفح، وهو الذي أشعره بالتغير، بشيء جديد. أو ربما انبعثت، في تلك اللحظة، رائحة شيء أحبه عندما كان صغيراً، وربما تراءت له صور يعرفها أو



رآها من قبل، وقد يكون أحد أو شيء تكامل في ذاكرته تلك اللحظة وأقنعه، وإن كان بشكل غامض، أن هذا ما يريده وما يبحث عنه.

طوال رحلة العودة، وفي محطات الطريق، خاصة في باريس، لم يترك فرصة الا واستغلها لكي يبحث مع غزوان امكانية ان يبدآا معاً عملاً، وان يكون مجاله موران. ربما لاحظ علاقات غزوان ونفوذه، وربما أغراه هذا المجال الذي لم يفكر فيه من قبل، أو بالأحرى لم يفكر أن يتجاوز دوره في قسم مبيعات الشركة. الآن، بعد أن رأى، وتعرف، وسمع الكثير، وقد ساعدته معرفته للغة العربية، وكان في جزء هام من المفاوضات، خاصة مع المسؤولين الكبار، المترجم الأساسي، وبعض الأحيان الوحيد مع غزوان، وما قيل من أمور على هامش المفاوضات، تبدى له أنه قادر على القيام بأعمال كثيرة تتجاوز حراثة الأرض، وقيادة التراكتور، ثم انتظار الثمار لكي تنضج.

وحتى إذا أراد أن يصبح مزارعاً، في أخريات أيامه، وأن يترك شيئاً وأثراً يفتخر به، ثم يواصل أولاده وأحفاده، من بعدهم، التفاخر به، فإنه سيكون أقدر، بما لا يقاس، إذا استطاع أن يستغل بمهارة مجالاً يمكن أن يحقق له في عدد قليل من السنين، وربما بضعة شهور، ما لم يستطع أن يحققه طوال عمره.

في باريس، المكان الذي عرفه واحبه في سنوات شبابه، اقترح على غزوان أن ينفصلا عن الوفد، وأن يقضيا معاً عدة أيام.

بسهولة اتفقا، ولم يجدا صعوبة أبداً في موافقة رئيس الوفد على أن يتأخرا بضعة أيام، خاصة وأن رئيس الوفد كان لديه الكثير من المشتريات من باريس أولاً، ثم لديه الرغبة أن يكون الأول، والوحيد، الذي يعرض النتائج التي توصل اليها، دون أن يكون مضطراً، حتى من خلال النظرات، لاستئذان أي من الاثنين اللذين ساهما معه في هذا النجاح.

عامل المعرفة؟ السن؟ الخبرة؟ ما الذي سهّل له أن يصل وغزوان الى اتفاق كامل على ما يجب أن يعملاه في المستقبل؟

الأيام الأربعة في باريس كانت كبيرة وحاسمة: «يمكن أن نبقى لشهرين أو

ثلاثة شهور في الشركة، لكن خلال هذه الفترة، وبهدوء، نهيء الجو لأن نترك، ونهيء أنفسنا لأن نبدأ العمل الجديد. يمكن أن نضع جزءاً من خبرتنا وعلاقاتنا في خدمة الشركة ولمصلحتها، «ثم أن رئيس مجلس الادارة يعرف أني أنوي الاستقرار في كالفورنيا، وأريد أن أبدأ عملاً جديداً» «ووالدي قال لي: يجب أن تبدأ عملاً خاصاً بك، لأن الوظيفة، مهما كانت كبيرة، ليس لها مستقبل» «ويمكن، كبداية، أن نعمل في مجالات بعيدة عن السلاح، خاصة وأن فرص العمل في السلطنة، كما بدت لي، غير محدودة، بدءاً من توريد الطعام وانتهاء بالهدايا للقصور» «كانت الهدايا مؤثرة وموضع اعتزازهم، حتى السلطان، وهو يقلب البنادق، كان بادي السرور» «ويمكن أن تتنوع الهدايا في المستقبل، وتثير الادهاش» «وهي بنظرهم تعبير، كما أخبرني الوالد، عن المودة ومدى الإهتمام» «وفي المستقبل سوف تتجاوز الاشياء المادية الى هدايا من أنواع أخرى!».

وغزوان الذي كان يفضل البيرة، وشرب مرة أو مرتين النبيذ الأبيض، خاصة وهو يأكل السمك في المطعم، بدا مأخوذاً بليفي شاوات وهو يتنقل به في باريس من مكان لآخر، ويصرّ على أن يدفع، ويفتح أمامه الطرق بلغته الفرنسية الواثقة، ثم يختار، في الليلة قبل الأخيرة، غزالتين، كما كان يطلق على تلك الحسناوات الصغيرات والشقيات. وتعرف الغزالتان كيف تكسران آخر مظاهر التردد.

بعد سبعة شهور، طويلة وصعبة، وافقت الشركة على قبول استقالة ليفي شاوات. وافقت لكن بشروطها: «ان يبقى المستر شاوات مكلفاً بتنفيذ العقود السابقة، وبالتالي موظفاً في الشركة من أجل تنفيذ هذه العقود، وليس له صفة مستقلة؛ وان يكون من حق الشركة أيضاً ايفاده بمهمات، وبأجور مقطوعة، الى البلدان المتكلمة بالفرنسية أو العربية، وبصفته مترجماً، دون أن يكون له حق الاعتراض، أو المطالبة بالنسبة المقررة لعقود من هذا النوع».

وافق ليفي شاوات، وصفى علاقاته، وافتتح مكتباً في سان فرانسيسكو، وبدأ باعداد الملفات ومراجعة علاقاته السابقة، ورغم التفاؤل، لا يريد أن يغامر، ولا يقوى أن يبدأ، كما فعل قبل عشرين سنة، حينما كان مجرد بائع، وليس له مهمة



سوى الاتصال، وعرض سلعه، واستعمال كل براعته لاقناع الزبون بالشراء. انه متأكد ان موران تحتاج إلى كل شيء، ليس موران وحدها، وانما المنطقة كلها، لكنه يحتاج إلى «مفاتيح»، يحتاج إلى الآخرين، ومن هناك، لكي يقدموه، ليس كمجرد بائع، يحمل في حقائبه السلع، وانما كرجل اعمال، بامكانه أن يؤمن كل شيء، كما يقال في التعبير الذي صار متداولاً: من الابرة الى الطائرة.

اليانور، احدى القريبات، أصبحت السكرتيرة في «الشركة العالمية للاستيراد والتصدير». فتاة في العشرينات من عمرها. قطة في وداعتها، وفي قدرتها على أن تعرف البشر، خاصة من يحبونها، ويمكن أن تطمأن لهم. جميلة، لكن ليس إلى الحد الذي يجعل الشباب في شوارع سان فرانسيسكو يصفرون اذا مرت. ومع ذلك، وإذا ألفها الانسان، اذا تمعن بملامحها، يكتشف اتساق الملامح، والابتسامة الحلوة، الأقرب إلى الخجل، وكأنها، حين تبتسم، تحس بنوع من الذنب أو العري، اضافة إلى ذلك الجسد المغري، الأقرب الى السمرة الهادئة الرقيقة.

عندما التحقت اليانور بمكتب الشركة العالمية للاستيراد والتصدير، كانت خارجة لتوها من تجربة حب مريرة: واحد من هؤلاء المجانين الذين يريدون ان يغيروا كل شيء في العالم، وكان يحلم أكثر مما يفعل الذين حوله، وأكثر مما يحتملون، وحين عجز عن اقناع اليانور ان تجن وتحلم مثله، القى بنفسه من فوق جسر سان فرانسيسكو، وغاب.

كانت متأكدة، وهي تحلم معه بعض أحلامه، انها قادرة على ترويضه، كانت تتكلم بنفس لغته، وتؤكد أنها تريد ما يريده، ولكنها كانت تؤكد لنفسها أنها قادرة على استيعابه واعادته الى حيث يجب أن يكون. ولما اكتشف انها تسخر منه، وانها لا تعني الكلمات التي تقولها غادر بسرعة. ووافقت هي أن تكون مثل ما يريد الآخرون، ولذلك عندما عرض عليها ليفي أن تكون سكرتيرة له، لم تتردد.

غزوان، وهو يتردد على الشركة العالمية، تعرف عليها. كانت مهذبة، لكن لم تكن رقيقة أو ودودة. كانت تؤدي عملاً، وليس لديها شيء آخر. ابتسم لها

فهزت رأسها. حاول أن يفتح حديثاً، شاركت في الحديث عن الطقس والحوادث، ولم تشارك، أو لم تجب، عن الأحاديث الأخرى. قال غزوان، بعد أسابيع لليفي:

- هذه الفتاة صعبة، ولا تريد اصدقاء!
- انها تبحث عن الأصدقاء.
- حاولت معها، لكنها تبدو بعيدة وصعبة.
- الزمن يجعل البعيد قريباً، والصعب تروضه الحياة!
- اذن ليس عليّ إلا أن أنتظر.
- أن تبذل جهداً متصلاً، وأن لا تيأس!
- ليس لي القدرة على ذلك.
- يجب أن لا تعلن هزيمتك، حتى لو كنت مهزوماً، لأن المرأة، وربما الحياة أيضاً، لا تحب أن تتعامل مع الذين يعلنون هزيمتهم!
- نتكلم الآن بطريقة لا يفهمها الا الفلاسفة والمجانين...

وبعد قليل وهو يضحك ويسأل:

- المهم بالنسبة لي كيف أروضها؟ كيف أصل إليها؟

زفر ليفي وقال بلهجة أبوية:

- حالما تقبل استقالتك من الشركة، وتأتي الى هنا.

وضحك بثقة وأضاف:

- عندما تصبح في وجهها كل ساعات النهار، وبعض ساعات الليل، سوف تتعود عليك وسوف تحبك.

وابتسم وهو يضيف واصبعه في الهواء:

- ولا تظن أن كل النساء مثل تلك الغزالتين اللتين لم نستطع أن نتخلص منهما حتى في المطار ونحن نريد أن نسافر.

وبعد قليل، وكأنه يكلم نفسه:

- المرأة، خاصة حين تريد أن تكون أماً، تتصرف بطريقة قد لا يستطيع الرجل



أن يفهمها بسهولة. انها تريد كل شيء، ولا تريد شيئاً.

قال غزوان برخاوة:

- أنا لا أفهم هذا المنطق، ولا أتصور أنه يمكن أن يؤدي إلى نتيجة.

رد ليفي شاوات:

- لدينا الكثير لنتكلم فيه إذا جئت إلى هنا.

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

- وماذا عن الاستقالة؟ لقد تأخرت أكثر مما أتصور.
- وعدني المدير، بعد الكثير من محاولات الاقناع لسحب الاستقالة، ان يوافق عليها في مطلع العام، وبشروط:
- مطلع العام؟ وبشروط؟
- أي بعد شهرين، وان أكون مستشاراً للشركة في العقود التي تبرم مع المنطقة...
- ووافقت؟
- ليس لي الا الموافقة.
- مثلما وصلت الى القرار الصحيح في هذا الموضوع لا بد ان تصل إلى قرار صحيح أيضاً مع اليانور.

رغم تأخر، بل وتعثر، الموافقة على استقالة غزوان، فقد بدأت الشركة العالمية بتقديم عروض وخدمات للسلطنة. صحيح أنها كانت عروضاً ثانوية، تبلور بعضها بعقود لتوريد معدات لحفر آبار المياه، وبإقامة عدد من الخزانات، الا أن الزيارات التي قام بها غزوان للسلطنة، أو الزيارات التي حملت بعض الأمراء وكبار الموظفين والضباط إلى الولايات المتحدة، جعلت ليفي شاوات أكثر ثقة وأكثر تفاؤلاً بمستقبل العمل. وجعلته أيضاً شخصاً مختلفاً عما كانه قبل شهور قليلة.

يشعر ليفي الآن أنه أكثر شباباً وأقدر على الحركة، بل ويفكر بطريقة مختلفة عن السابق. القواعد التي تعلمها في وقت مبكر، حين كان موظفاً مبتدئاً في قسم المبيعات، والذي أخذ يتخلى عن قسم منها، ثم آخر، ما دام يترقى في سلم الوظيفة، وتقل وتبتعد علاقاته المباشرة بالناس، وينصرف بشكل متزايد إلى العقود الكبيرة التي تهم الدول أكثر مما تهم الأفراد... هذه القواعد التي تراجعت وكادت تتوارى، بدأت ترفع رؤوسها من جديد، وبدأ يستعيدها، لكن ضمن نسق أكثر حيوية وقوة. انه الآن يعمل لحسابه الخاص، وأية صفقة يعقدها لا تتلخص ولا تقتصر على الراتب الثالث عشر أو نسبة الثلاثة بالمائة.

لم يكن يفكر أبداً أن يقطع القارة من غربها الى شرقها لكي يستقبل أحد الامراء في نيويورك، وان يقضي معه بضعة أيام، يكون خلالها مرافقاً ومترجماً، وفي الليل أنيساً ونديماً. انه شيء جديد بالنسبة له، لكنه «مقنع وضروري، على الأقل في البداية» هكذا قال لنفسه في احدى السفرات، حين وصل الأمير راكان الى نيويورك، وجاء لاستقباله ومرافقته. صحيح أن الشركة طلبت منه ذلك،



اعتماداً على الاتفاق الذي تم بينهما بالنسبة للعقود القديمة، لكن الأصح من ذلك أنه عرف بزيارة الأمير من غزوان، وأنهما اتفقا على أن يكونا بمعية الأمير طوال زيارته، لأنها الفرصة المناسبة لانطلاق الشركة العالمية، والوصول إلى العقود الكبيرة.

- أسبوعان رائعان، لم يعش الإنسان مثلهما في حياته...

وأصبحت لهجة ليفي تقريرية أكثر:

- الأكل، الثلاث وجبات، جيد جداً، ممتاز. النوم في أغلى الفنادق وأرقاها. السفر بطائرة خاصة، المشروب...

وضحك بلذة ثم أضاف:

- وأهم من ذلك كله: الاحلام...

وتغيرت اللهجة:

- إذا تحقق جزء من هذه الاحلام، يا غزوان، فلا بد أن نصبح من الأغنياء الكبار خلال فترة قياسية، ودون أن نغادر مكاتبنا، أو أن نتعب كما كان يفعل الرأسماليون في بداية هذا القرن.

رد غزوان بثقة:

- وهناك فرص أخرى كثيرة يا مستر ليفي!
- ويجب أن يحسم موضوع قبول استقالتك، لكي نتحرك بقوة.

- ابلغتني الإدارة أن الموضوع حسم من حيث المبدأ، وسوف تعرض عليّ أكثر من صيغة لاتفاق لاحق...

وضحك، وهو يتابع بمكر:

- لم أترك فرصة اجتماع الأمير راكان والمدير العام للشركة تمر. قال له الأمير: «... ونحتاج إلى غزوان في موران، ونظن أن ما عندكم مانع، وسيبقى الصلة بيننا» وفهم المدير معنى هذه الاشارة وكلف القسم القانوني باعداد الصيغة الملائمة.

انفعل ليفي شاوات، ولم يخف مرحه وأحلامه. قال:

- ونحتاج إلى فتح فرع، على الأقل، في نيويورك، لكي يتابع الأعمال من هناك.

وتراءت له من جديد صور الاسبوعين الماضيين: البشر، الأماكن، الأحداث، وحتى الأحلام، فقال كأنه يحدّث نفسه:

- أتذكر الأمير راكان، أثناء توقيع العقد في موران، كان شخصاً آخر، شخصاً مختلفاً تماماً!

قهقه غزوان، وكأنه يريد من خلال هذه الضحكة الصاخبة، أن يثبت لليفي شاوات، أنه أكثر معرفة ودراية بموران، وبشرها، خاصة الأمراء منهم.

قال ليفي، وهو يبتسم لهذا الاكتشاف:

- يبدو لي أن الأمراء وكبار الموظفين والضباط يصبحون بشراً مختلفين تماماً حين يسافرون، انهم يخلفون وراءهم الكثير من المظاهر والجهامة، ويكونون أكثر استعداداً للتفاهم والمزاح، أي أنهم يتخلون عن الألقاب والرتب والنياشين، نعم يتخلون عنها برضاهم ورغبتهم ويريدون أن يكونوا مثل غيرهم!

قال غزوان بانفعال:

- وعندما تزداد معرفتك بهم، يا مستر ليفي، وتتوثق علاقتك معهم، تكتشف فيهم البساطة والود والرغبة في المساعدة...

كاد غزوان يتابع، لولا مقاطعة ليفي:

- وهم في الليل غيرهم في النهار...

ولئلا يترك أي ظلال لكلماته، تابع مصححاً:

- أقصد أنه بعد ركض النهار، والمناقشات الجادة التي تجري خلاله، يكون الإنسان قادراً أو راغباً في أن يخوض بالموضوعات الانسانية، وبالتالي اقامة علاقات شخصية صحيحة.

رد غزوان:



- انهم أكثر مودة وبساطة مما يتصورهم الكثيرون.
- انا متأكد تماماً مما تقول، لأني لمست الأمور بنفسي...

تنفس بعمق وتابع:

- كنت أتابع انفعالاتهم وردود أفعالهم تجاه الموضوعات الانسانية. انهم سريعو التأثر والاستجابة: البنادق الاوتوماتيكية الصغيرة التي قدمت، كهدايا، للأمير راكان ومرافقيه، كانت بالغة الأثر والأهمية؛ كان الأمير فرحاً بها، ولقد رأيت ذلك بنفسك.

ضحك وهز رأسه، ثم تابع بسرعة:

- حتى الهدايا المتواضعة التي قدمناها باسم الشركة العالمية كانت موضع تقدير وامتنان.

قال غزوان بفخامة:

- يردد أبي حديثاً للرسول، وأنا أحفظ معناه منذ سنوات طويلة، لكثرة ما سمعته: تهادوا فإن الهدية تخلق المودة وتقرب بين الناس.
- هذا صحيح...

قبلت استقالة غزوان أخيراً، وحرصت الشركة أن يبقى على صلة معها، لكن لم تحدد هذه الصلة ضمن صيغة، كما فعلت مع ليفي شاوات. وبدأ التفكير والتخطيط في مكاتب الشركة العالمية لبرنامج التحرك، وقد أبدى غزوان رغبة ظاهرة أن يتم استئجار مكاتب أوسع وأكثر فخامة، وأن يتم استخدام عدد اضافي من الموظفين. وليفي شاوات الذي فهم الدوافع وراء مثل هذا الاقتراح، ورغم موافقته، الا أنه اعتبر الأمر مبكراً. رد غزوان، وبدا في لهجته الضيق:

- لو أننا أقمنا احتفالاً في مكاتب الشركة، ودعونا الأمير ومرافقيه، لكانت النتائج أفضل بما لا يقاس...

وبعد قليل وبحزن:

- أكثر من واحد سألني عن مكاتب الشركة العالمية التي يرأسها المستر ليفي

شاوات، وكنت اضطر للإجابة بشكل غامض، أو أتهرب من الجواب.

رد ليفي بطريقة أبوية:

- لا أنكر أهمية ووجاهة اقتراحك، لكن يجب أن تعرف أننا لا زلنا في بداية العمل، ومن الحماقة أن نضع كل مدخراتنا، أو كل ما نحصل عليه، ثمناً للأثاث أو رواتب للموظفين.

وبعد قليل:

- ثم ان حجم العمل، الآن، لا يقتضي موظفين اضافيين، إن اليانور تكفينا وتفيض عنا!

تطلع غزوان، من الباب المفتوح مواربة، كانت اليانور تجلس في الغرفة المجاورة، وربما تسمع الحوار الذي يدور بينهما. قال، يريدها أن تسمع:

- لا أنكر أبداً كفاءتها، والمهمات التي تقوم بها، والتي قد تحتاج إلى اثنين أو ثلاثة من الموظفين للقيام بها، لكن المسألة، يا مستر ليفي، لها أوجه أخرى...

هز رأسه عدة مرات. وجرح صوته الصمت:

- وأنا، يا مستر ليفي، اعرف طبيعة الناس الذين نتعامل معهم، انهم يقيمون وزناً كبيراً للمظاهر، لطريقة التعامل، أكثر مما يفكرون بأي شيء آخر.

ابتسم وهو يضيف بلهجة جديدة:

- وأبي يردد دائماً: أهمية القبيلة بعدد أفرادها، وأهمية الشيخ بعدد المرافقين، وأهمية الموظف بحجم الطاولة التي يجلس وراءها!

انفعل ليفي شاوات، ورغم محاولته أن يخفي انفعاله، إلا أن صوته الحاد كان يشي بذلك الانفعال:

- وهل تعتقد أن قواعد مثل هذه صحيحة دائماً؟
- في بعض الأماكن، وتجاه بعض الأشخاص، صحيحة.

وحين ابتسم ليفي استدرك غزوان:



- ليس المهم أن تكون صحيحة أو غير صحيحة، المهم أن تكون مؤثرة، وأن تؤدي إلى النتائج المطلوب الوصول إليها.

قال ليفي شاوات لينهي المناقشة:

- سوف نفعل أشياء كثيرة حين نبرم عقوداً تأتينا بالأموال اللازمة، والتي نحلم بها.

قال غزوان بمكر:

- ما دامت اليانور قادرة على القيام بكل هذه المهمات، ولا تشكو من التعب، فليس لدي أي اعتراض أن نؤجل خطوات مثل هذه.

صرخ ليفي، الذي كان متأكداً أن اليانور تتابع هذا الحوار:

- اليانور... إذا كنت بنفس قناعتنا فاصنعي ثلاثة أقداح من القهوة، ولك الخيار أن تحمليها جميعاً إلى هنا، أو أن تحملي اثنين فقط، وأن تتناولي قدحك وحدك وأنت تحلمين!

ولم تتأخر اليانور في أن تحمل الأقداح الثلاثة، وأن تواصل معهم الحديث من حيث انتهوا!

خلال الشهور الأربعة اللاحقة لزيارة الأمير راكان، أبرمت الشركة العالمية صفقتين مع السلطنة، الأولى: توريد مائتين وخمسين رأساً من الخيل؛ والثانية توريد مائة ألف طن من الطحين.

تمت الصفقتان بإيعاز من صاحب الجلالة السلطان، تعبيراً عن الثقة والمودة التي يكنها جلالته لمستشاره الدكتور صبحي المحملجي، بعد أن عرض عليه، وبالاتفاق مع رابح الحنيحن مسؤول الاسطبلات السلطانية، ان خيول صاحب الجلالة قد وزعت، بناء لأوامر جلالته، وبحاجة إلى تعزيزات عاجلة، خاصة بعد أن تم شراء معظم الخيول المعروضة للبيع في موران. ولقد أبدى غزوان استعداده للمساعدة في تأمين ما يلزم السلطنة من خيول، ووعد أن يتم اختيارها من أفضل الاسطبلات وأفضل السلالات، وسوف تكون فخراً لموران!

أما الصفقة الثانية فكانت بإيعاز من سيف الفتوحي، الذي جاء مكان ابن العليان، بعد أن أبلغ من أمراء المناطق أن الناس جاعوا، ولا بد من تدخل الدولة لإنقاذهم.

وبطريق الصدفة المحضة، حين جرى الحديث حول القحط والجوع، أبدى الحكيم المحملجي، استعداده للمساهمة في حل المشكلة، وتأمين الطحين المطلوب، وأنه سيكون مضطراً لتكليف غزوان أيضاً لبذل كل جهده من أجل ذلك!

صفقة الخيول أرهقت الشركة العالمية، إذ بالإضافة إلى الوقت والجهد اللذين صرفا من أجل توفير هذا العدد من الخيول «الكريمة»، فإن المفاوضات الشاقة التي جرت في القاهرة والاسكندرية وبيروت ثم في دير الزور والموصل، اضطرت الشريكين، أو احدهما على الأقل، إلى السفر، وأن يدخل في مساومات طويلة ومتعبة، سواء في محاولة الاتفاق على أسعارها، أو التأكد من حججها، وأخيراً لتأمين وصولها إلى السلطنة. ورغم الارباح التي حققتها الشركة، فإن غزوان الذي لم يكن ميالاً إلى هذا النوع من الصفقات، خاصة وأنها تتم في أمكنة لم يتعود عليها، ودخل في مشاحنات حول أمور تفصيلية لم يفكر فيها يوماً، فقد قال لليفي شاوات، بعد أن استراحا من الركض والتعب، وبدآ يحسبان نتائج الصفقة:

- صحيح أن الصفقة متعبة، وتشبه ما ذكرته عن تعب الرأسماليين في بداية القرن، وهم يركضون من مكان لآخر، لكن نتائجها، ويجب أن نعترف، تفوق نتائج أية صفقة يمكن أن يجريها الإنسان في حياته!

رد ليفي في محاولة لأن يخفف من أثر التعب:

- الأرباح الصعبة ممتعة أكثر من غيرها، ولا بد أن يتذكرها الإنسان، لكي يرويها لأولاده ثم أحفاده لتكون دروساً للأيام الصعبة...

وبعد قليل، وباستمتاع:

- فعلاً الأرباح التي تحققت تبرر التعب!

لم يكن التعب هو الذي أزعج غزوان، فالسفر كان أشق عليه وأصعب، لأنه



لا يريد أن يبتعد عن اليانور، تلك المرأة التي بدأت تشغله.

ليفي، رغم ذكائه ودقة مراقبته، لم يفطن أن جزءاً من حماس غزوان، والوقت الذي يقضيه في المكتب، من أجل اليانور. صحيح أنه لاحظ تغيراً في وضع اليانور وسلوكها، سواء من حيث اختيار ألوان الفساتين التي ترتديها، أو تسريحة الشعر، وحتى الابتسامة، ولا تتردد بعض الأحيان، ليالي السبت عادة، في أن تضع بعض المساحيق على وجهها، لكنه اعتبر الأمر طبيعياً وعادياً، خاصة وأن الزمن، كما يحلو له أن يردد، الطبيب الحاذق، الذي يداوي جميع المرضى، والذي يقرر، في النهاية، من يجب أن يبقى، ومن يجب أن يرحل!

اليانور التي خرجت، أو بشكل أدق، بدأت تخرج، من تلك التجربة، لم تتهيأ، بعد، لأن تدخل في تجربة جديدة، وبالتحديد مع رجل غريب، لا تفهمه بالمقدار الكافي، وهي في مثل عمره أو ربما تصغره بسنة او اثنتين، وتفوقه معرفة وثقافة. لكن، مع ذلك، بدت أقل نفوراً، ولا تمانع في أن تتبادل وإياه الحديث، أحياناً، في القضايا العامة والسريعة.

وفي خضم الأحلام وتحضير ملفات العمل، خاصة ما تحتاجه موران، وضرورات السفر، أو انتظار الرسائل والقرارات، حول ما يجب، وما هو مطلوب، كان غزوان حائراً موزعاً، يريد أن يكون هنا وهناك في آن واحد. أن «يصطاد» اليانور وأن يهرب منها، أن يبقى قريباً، وأن ينطلق الى أبعد مكان. أن يقرر ما يناسبه، أو أن يترك لأمه لتقرر نيابة عنه.

لم يخرج، مؤقتاً، من بعض الأوهام، الا حين جاءه، بشكل لم يتوقعه، رسول من حماد.

كان جهاز الأمن والسلامة يريد تجهيزات اضافية للاتصال، وجاء عواد المفلح، المكلف بالأمر، الى غزوان يطلب مساعدته، ويعرض عليه صداقته أيضاً. ومنه فهم انه كان ضمن الوفد الذي زار الولايات المتحدة، مع الأمير راكان، أحد رجال القصر، وقد أرسله السلطان ذاته، ونقل إليه، بعد عودته، كل ما قاله راكان، بما في ذلك الوعود التي أعطيت للشركة العالمية، حول فرص العمل في السلطنة. وفي محاولة لقطع الطريق على راكان، والذين معه، بادر

السلطان ذاته الى تكليف الشركة العالمية بصفقة الخيول، ثم بصفقة الطحين!

وتأكد غزوان من صحة هذا التفسير حين صمت راكان تماماً، بعد الوعود الكثيرة التي أعطاها، حول إمكانية ابرام عقود تتجاوز تلك التي وقعت من قبل، وفي مجالات عدة، تم الإتفاق عليها!

بعد أن انقضت شهور، دون أن تظهر أية بادرة من راكان، بدأ ليفي شاوات يستعيد مقاطع عديدة من الحوار الذي جرى بينه وبين روبرت يونغ، أثناء زيارته الأخيرة لنيويورك.

وروبرت يونغ، الذي افتتح في السنين الأخيرة مكتباً للاستشارات الاقتصادية والقانونية خاصاً بالشرق الأوسط، كان موظفاً في شركة نفط موران، وظل في الشركة سنين طويلة، عرف خلالها السلطنة كلها، وجال، أيضاً، في المنطقة، وتعرف على الكثير من معالمها واحتمالاتها، وقامت العلاقة بينه وبين ليفي، من خلال العمل، وأثناء ترتيب صفقة السلاح، حيث تمت استشارة «مكتب خدمات الشرق الأوسط».

قال له روبرت:

- . . . ومن عادة أهل تلك البلاد، في لحظات الانفعال، أن يعطوا وعوداً، لكنهم لا يعنونها دائماً، ولذلك يجب أن تكون دقيقاً، وأن لا تعتمد على مصدر واحد فقط.

قال ليفي لغزوان:

- يبدو أن اشغال الأمير هناك كثيرة، بحيث نسي وعوده!

غزوان، قبل أن يرد، تطلع بإمعان الى ليفي، ليكتشف ما إذا كان يعرف شيئاً، ولما بدت له الملامح صلبة، وأقرب إلى السخرية، فقد أجاب:

- أقدر أن اشغاله حالت دون ذلك!
- اذن لا بد أن نتحرك، وأن نبحث عن علاقات وفرص عمل اضافية وجديدة. . .



وبعد قليل وهو يحاول تذكير غزوان:

- أنت تعرف روبرت يونغ. . .

لم يجب غزوان، لكن دارت عيناه، في محاولة للتذكر. تذكر. قال بمودة:

- بالتأكيد، وقد تحدثنا طويلاً عن موران، واكتشفت أنه يعرفها أحسن مما أعرفها.
- ويعرف الكثيرين هناك، كما أن له علاقات بدول أخرى في المنطقة.

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

- اتصل قبل أيام يعرض، مجدداً، خدماته واستعداده للتعاون، وأرى أن نوافق.

بعد مناقشة تفصيلية تم الاتفاق أن يسافر ليفي إلى نيويورك، وأن تُدرس امكانيات واحتمالات التعاون، وأن يتم تبادل الرسائل، وحتى التوقيع على اتفاق!

في نهاية المناقشة، وكمحاولة لتثبيت الصيغة الجديدة، قال ليفي، بلهجة بين المزح والسخرية:

- لو أننا اعتمدنا في عملنا على الأمير راكان، لاضطررنا إلى تخفيض راتب اليانور، أو صرفها من الخدمة!

رد غزوان محرجاً، وهو يعرف ما حصلوا عليه من أرباح:

- لم يصل الأمر إلى هذا الحد يا مستر ليفي.
- سوف يصل. . . إذا ظلت الأمور هكذا!!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

- حين يرجع الأمراء إلى إماراتهم، يتخلون عن الشخصيات التي كانوها في السفر، يعودون أمراء، ويتصرفون كالأمراء، وعلى الآخرين أن يركضوا وراءهم!

رد غزوان، وهو يفكر بأشياء كثيرة:

ـ أو أن يبحثوا عن غيرهم!

لـم يطل الوقت لكي يتم الاتفاق مع «مكتب خدمات الشرق الأوسط». لكن خلال فترة زيارة ليفي شاوات، والتي استمـرت أسبوعـاً، حدث أمـران: بدايـة علاقة من نمط جديد بين غزوان واليانور، وتنحية السلطان خزعل.

في ظـل التعب والاختناق يصبـح الانسان صلبـاً وهشاً معـاً، ويكون قـابلاً لأن يتشكـل حسب الظروف التي تحيط بـه وحسب الناس الذين حولـه، وقد يتخـذ أصعب القرارات في أضعف اللحظات.

إذ ما كاد غزوان يقنع اليانور، في اليوم الثالث لسفر ليفي الى نيوروك، وبعد منـاقشات متشعبـة حول العمـل والإنسان والمستقبـل والقدر، أن يتنـاولا طعـام العشاء معاً، وما كاد يخوضان في علاقة الرجل بالمرأة، ومـا يحب كل منهـما، وقد شرب غزوان كأساً ونصف من الويسكي، لكي يمتلك الشجاعة ويقول ما يـدور في رأسه، فإن اليانور تكلمت كثيـراً. لكن بدا لـه كلامهـا بعيداً غـامضاً، ومـع ذلك اتفقا أن يكونا أصدقاء، بمعنى ما، وأن يتحدثا في كل الأمور، «الا العمل» كما قال لها مازحاً، وهو يودعها.

قبـل أن تنتهي هذه الليلة، ولا تعـرف اليانـور لماذا فعلتْ ذلـك، وقبـل أن تنام، سمعت أخبار القـارة، سمعت إذاعة لنـدن، وعرفت أن أحـداثاً وقعت في السلطنة، أدت إلى تنحية خزعل. لم تستطع أن تنام قبل أن تتصل بغزوان.

خـلال اللحـظات الأولى، وكـان بـين السكـر والصحـو، لم يستـطع أن يميز صوتها. كاد يتصرف بطريقته، حين تتصل به امرأة في وقت غير مناسب، خاصـة وأن الشجاعة التي أحس بها، ومشاعر الندم أيضـاً، لا تزال قـوية فـاعلة، ولانه لام نفسه كثيراً أن ترك اليانور تذهب هكـذا. لو حـاول معها، لـو ألح عليهـا، لقبلت أن تقضي الليلة معه، لكنه تراجع وجبن. الآن، وهو يسمع هذا الصوت يريد أن يعوّض، أن يستعمل براعته. تكلم بطريقة تمهد وتساعـد على الـوصول إلى ما يفكر فيـه. تركتـه لحظة، وحـين قالت لـه أنها اليانـور، انتفض. احس،



تلك اللحـظة، بالخـطأ، لأنه تـركها تمضي، فهي تـريده، تشتـاق إليه، بمقدار ما يريدها ويشتاق إليها.

قال لها، بعد أن عرفها:

ـ لا بد أن نلتقي، والآن.

ضحكت ضحكة جافة، قصيرة، وردت بسرعة، وبشيء من القسوة، كـأنها تريده أن يصْحو:

ـ لدي أخبار سيئة، يا غزوان!

ـ أخبار سيئة؟

ـ آسفة أن أوقظك في هذه الساعة المتأخرة، وأن أبلغك بأخبار سيئة!

ولفترة غير قصيرة صمت. صرخت من الجانب الآخر:

ـ آلو... آلو غزوان، اتسمعني؟

ـ أسمعك يا اليانور، وأرجون ألا تكون سيئة جداً!

ردت بارتباك:

ـ لا أعرف إلى أي حد سيئة، أنت أقدر مني على الحكم، لكن يجب أن تعرف.

ـ قولي يا اليانور.

ـ نحيّ السلطان خزعل، ويبدو أن شيئاً ما يحدث هناك.

ـ نعم؟ ماذا؟

ـ اغفر لي يا غزوان، لكن رأيت أن من واجبي ابلاغك بهذا الأمـر، مهما كـان قاسياً.

ـ كيف عرفت؟ من قال لك ذلك؟

ـ قبل أن أنام سمعت أخبار القارة.

ـ أية محطة؟ أين؟ ومتى؟

ـ غزوان...

وضحكت ضحكة صغيرة، وهي تضيف:

- أرجو أن تتماسك، أن تكون قوياً.

صرخ وكاد يبكي:

- أتعرفين معنى هذا الكلام يا اليانور؟
- أقدر مشاعرك وموقفك يا غزوان، وأرجو أن أكون مخطئة، لكن، مع ذلك، وجدت نفسي مضطرة لأن أتصل بك وابلغك..

وبعد قليل وبلهجة حنونة:

- ومع ذلك، أرجو أن تكون الأخبار غير صحيحة!
- غير صحيحة؟
- لا أدري، يجب أن نتابع الأخبار لكي نتأكد!
- في أية إذاعة سمعت هذه الأخبار؟
- إذاعة لندن...

وبعد لحظة صمت أضافت:

- لا بد أن نستمع إلى عدة اذاعات، وإذا استطعت أن تلتقط إذاعات عربية يمكن أن تعرف تفاصيل أكثر.

وبعد لحظات صمت طويلة قالت في محاولة للمواساة:

- من رأيي أن نتابع الاذاعات، وأن نبقى على اتصال...

وبعد قليل:

- لن أنام قبل أن تتصل بي وتبلغني بآخر الأخبار، فأنا أريد أن أعرف، أن أطمئن.

ولم ينم غزوان تلك الليلة، حاول أن يتابع الاذاعات. فهم ولم يفهم. اتصل باليانور ولم يقل لها شيئاً مهماً. ورغم أن اليوم التالي كان الأحد، وكان لدى اليانور ما تفعله، إذ وعدت، منذ بداية الأسبوع، أن تمر على العمة مرغريت، فقد اتصلت في وقت مبكر بغزوان واتفقا أن يقضيا اليوم معاً، وأبلغته أنها ستحضر معها راديو صغير لكي يستمعا للأخبار. ولأن الجو كان حاراً، فقد



فضلا أن يقضيا اليوم معاً في الهواء الطلق، لكي يكونا أقدر على التقاط آخر الأخبار.

من الحديقة العامة أبلغت اليانور العمة مرغريت أن عملاً طارئاً اضطرها لعدم المرور عليها.

خلال ساعات بعد الظهر، وأول المساء، وبعد أن تعبا من الجلوس والصمت، والأحاديث القصيرة السريعة حول ما جرى في موران، وحين اقترح عليها أن يذهبا إلى شقته لكي يتابعا من هناك آخر الأخبار لم تمانع ولم تتردد.

لأول مرة تأتي إلى شقته. لأول مرة تأتي امرأة يكنّ لها عواطف مختلفة عن الكثيرات اللواتي مررن من هنا.

رغم انشغاله، ومظاهر الحزن، كان مرتبكاً أكثر لمجيء اليانور الى شقته يوم الأحد، اليوم الذي لا تأتي فيه الشغالة لكي تنظف البيت، وأن يبدو مكشوفاً هكذا.

وهما ينزلقان إلى الشقة، وبعد أن وضع اناء القهوة على النار، ذهب إلى غرفة النوم، وبسرعة حاول أن يقلل من الفوضى. أن يرتب، دون دقة، ودون اهتمام، ما يمكن أن يعتبره فجاً أو نابياً. وأن يزيل آثار نساء كن هنا سابقاً. فعل ذلك بكثير من السرعة مع الرغبة أن تبقى بعض مظاهر الفوضى. وفعل الشيء ذاته في الحمام، جمع ملابسه الداخلية والجوارب، ودفعها كما دفع الأحذية، الى الركن، تحت الغطاء الفاصل بين الدوش والمغسلة. لقد فعل ذلك بسرعة، وبطريقة آلية، وكأنه في أعماقه يريد أن يثبت لاليانور مدى الفوضى اللذيذة التي يعيش فيها، وبالتالي حاجته الى مساعدتها، لأنها المرأة وحدها التي تستطيع، وبكفاءة، ترتيب الأشياء، ووضعها في أماكنها الصحيحة.

كان اناء القهوة، حين انتهى من الترتيبات الضرورية، قد جف أو كاد. ورغم أن صوت اليانور اندفع أكثر من مرة، تسأل، أو تعرض المساعدة، فإنه لم يستجب.

قالت، وكان داخلاً يحمل معدات القهوة، ويبدو واثقاً:

- الرجال، إذا كانوا وحيدين، لا يقلون عن النساء، في ترتيب البيت!

ابتسم وهو يجيب:

- إذا أرادت امرأة أن تهين رجلاً فيجب أن تطري قدرته على ترتيب البيت!

وحين رفعت حاجبيها استغراباً أو استنكاراً، فقد تابع:

- إذا رأيت أي ترتيب في الشقة فإن الفضل يعود إى مسينر آندورز.

وبعد لحظة، وبعد أن أدار نظراته في غرفة الجلوس، وكانت مرتبة، وفي زاوية زهرات اشتراها بالأمس، وكان يفكر أن تأتي، أو أن تأتي غيرها، قال برخاوة وهو يضع معدات القهوة على الطاولة الواطئة:

- الإنسان حين يكون وحيداً ينسى أموراً كثيرة.

هذه الزيارة، التي طالت أكثر مما قدر غزوان، وتخللها سماع أكثر من نشرة أخبار، وفي ذلك الجو الرمادي الواقع بين اللذة واليأس، تركت تلك الزيارة آثاراً قوية، وسوف يكون لها اصداء ستتردد طويلاً!

قال ليفي شاوات في لقائه الأول مع روبرت يونغ:

- ... ولا بد أن تعرف، يا مستر يونغ، ان مركزنا أصبح أقوى من السابق بما لا يقاس، وأن لدينا الآن فرص تفوق أية جهة.

نظر روبرت يونغ إلى ليفي نظرة فاحصة مدققة، وانتظر ليسمع، أضاف ليفي:

- لقد تزوج السلطان شقيقة المستر محملجي:

وبعد قليل وبمرح:

- لا أعرف إذا سمعت بهذا النبأ أم لا؟

دارت عينا روبرت دوراناً سريعاً مرحاً، وصفق بيديه وهو يعلق:

- يجب أن نشرع اذن في العمل بسرعة، لأننا نمتلك الآن أهم المفاتيح، ولا بد أن...



مساء الأربعاء وقع الاتفاق بين الشركة العالمية، ومكتب الشرق الأوسط للاستشارات الاقتصادية والقانونية. وُقّع بجو من المرح والتفاؤل، وقد اتصل ليفي وروبرت يونغ بعد التوقيع مباشرة بغزوان، وتحدثا معه طويلاً، وهنآه، وقالا كلمات كبيرة حول آفاق العمل واحتمالاته الايجابية. ولم يتردد روبرت يونغ في أن يدعو ليفي الى حفلة عشاء باذخة، وقد دعا إليها عدداً من العاملين معه والأصدقاء، وتركز جزء كبير من حديث السهرة حول الشرق. عاداته وأهميته وغرائبه، ولم ينس أحد، حتى النساء، من استعادة بعض ما قرأه في ألف ليلة وليلة. كما لم يبخل روبرت يونغ في أن يحدّث ضيوفه عن ذكرياته في تلك البقعة من العالم. وقد أشار، أكثر من مرة، وان يكن بشكل عرضي، حول الدور الذي تلعبه المرأة هناك!

مساء الليلة التالية، وكان ليفي مقرراً أن لا يغادر فندقه، رغم العرض السخيّ الذي أصرّ عليه روبرت، بأن يقضيا المساء معاً في البيت، لمشاهدة احدى المباريات الرياضية، واحتساء البيرة، وأيضاً لاستعادة ما يجب عمله أو تبادله من أفكار واقتراحات، إلا أن ليفي وجد نفسه مضطراً، بعد الاخبار التي سمعها من روبرت على التلفون، أن يركب احدى سيارات التاكسي المرابطة عند بوابة الفندق، وأن ينطلق للقائه في بيته.

كيف يمكن أن تتحول عواطف الانسان، أو بالأحرى كيف يمكن أن تنقلب بهذه السرعة؟

ما كادت نظراتهما تلتقي، حتى قال روبرت، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

- لا بد أن تعرف، يا مستر شاوات، إني قضيت أهم أيام حياتي في موران، وخلال تلك المدة كوّنت علاقات، ولدي من الأصدقاء، بحيث لا أريد أن ادمر كل شيء في لحظة واحدة.

فوجيء ليفي، سأل بارتباك:

- لا أفهم ما تعني، يا مستر يونغ؟

- ما أعنيه، بشكل مختصر وواضح: أن العقد الذي وقعناه بالأمس لم يعد ملائماً لي.
- ولكن ماذا حصل يا مستر يونغ؟
- ماذا حصل؟

ضحك بسخرية، ثم أضاف:

- بمجرد أن تُعرف علاقتي بالمستر مهملجي انتهى كل شيء!

جر نفساً عميقاً، وهو يحاول أن يبتسم، لكي ينتقل من صيغة الهجوم إلى صيغة أخرى، بعد ان سجل على خصمه بعض النقاط، سأل بتهذيب:

- ماذا تحب أن تشرب، يا مستر شاوات؟

بانفعال وسرعة رد ليفي:

- لا أريد أي شيء!

وحين خيم الصمت للحظات، ولخلق محطة جديدة، سأل ليفي:

- ولكن ماذا حصل بالضبط، يا مستر يونغ؟
- ماذا حصل؟

ثم بسخرية:

- الورقة الرابحة التي كنا نراهن عليها جميعاً، أصبحت لاغية، لا تعني شيئاً، هذا ما حصل يا مستر شاوات!

ضحك روبرت بطريقة مصطنعة وهو يوضح:

- من الأخطاء الجسيمة التي يقع فيها الغربيون، ويبدو أنهم لا يريدون أن يتعلموا أبداً، انهم يسألون بطريقة خاطئة.

وهز رأسه عدة مرات، دلالة الوثوق، وهو يضيف:

- يجب أن لا نسأل انفسنا لماذا. ان هذا السؤال، وهو يطرح بهذه الطريقة،



يؤدي إلى أجوبة خاطئة. يجب أن نسأل انفسنا «ماذا حصل»، وأن نجيب على هذا السؤال فقط، أما اللا، هذه التي غيّرت الغرب فإن الشرق لا يعرفها!

بعد مناقشات طويلة اتسمت بالمداورة والمكر، وباعتبار أن العلاقة تعتمد على العمل، فإذا انتفى العمل، أو تغيرت طبيعته وظروفه، تتغير محتوياته وشروطه، اتفق الطرفان أن يمنحا أنفسهما فترة من الاختبار والانتظار، ووافقا، ضمناً، أن تجمد بعض بنود الاتفاق، إلى أن تتضح المواقف، وأن يتوارى غزوان من المشهد، لبعض الوقت.

قال روبرت يونغ في احدى مراحل النقاش، وكان يريد أن ينبه ليفي:

- ... ولا بد أن تدرك، يا مستر شاوات، أن الشرق القبلي يتمثل برموز محددة، فإذا سقطت هذه الرموز يسقط معها كل شيء.

ولما ظل ليفي صامتاً، وراغباً أن يستمع، لكي يستوعب هذا الدرس، لم يبخل عليه روبرت:

- فإذا سقط السلطان، أو هزم الشاعر، أو لحقت الفضيحة بالمرأة، فإن هذا البنيان كله، والذي يبدو قوياً راسخاً، يتعرض للشرخ ثم الى السقوط...

وبعد قليل، وكأنه يحدّث نفسه:

- الآن، بعد أن ذهب هذا السلطان، ذهب معه كل شيء: رجاله ووعوده وعداواته وصداقاته، ليبدأ عهد جديد، برجاله ووعوده وأصدقائه...

وأضاف بسخرية:

- ولأني لم أكن من أصدقاء العهد السابق، فلا أريد أن أكون من أعداء العهد الجديد، هذه هي المسألة، يا مستر شاوات، وأرجو أن لا تسألني لماذا؟

يذكر الكثيرون في موران أنه حين بدأت طلائع الخيل بالوصول، وكانت سنة قاسية لم يمر على الناس مثلها منذ وقت طويل، ان الجياع هاجوا وشتموا في السوق القديم، وتوجه الكثيرون منهم إلى قصر الغدير لمقابلة السلطان، ليشكوا إليه الحال، لكن رجال حماد التقوا بهم قبل أن يصلوا، ومنعوهم من الوصول، وقبضوا على نفر منهم، اودعوهم السجن، فازداد الوضع سوءاً، وخيم على موران صمت ثقيل ينذر باخطار كبيرة. لم يقتصر الأمر على موران المدينة، فقد عم الجوع السلطنة كلها، فبعث امراء المناطق يشكون ويستغيثون، وهذا ما دفع حماد المطوع وسيف الفتوحي إلى مقابلة السلطان، والطلب منه أن تتولى الدولة تأمين الطحين. وبعد سؤال وانتظار، وبعد أن أبدى مستشار السلطان رأيه في أن ما يطلبه الناس لا بدّ أن يُلبى، تولى بنفسه تكليف من يلزم لتأمين الطحين!

شمران العتيبي الذي انقطعت علاقاته بالقصر منذ وقت طويل، تحسب وخاف حين بدأت تصله الأخبار عن الخيول التي ينوي السلطان شراءها. بل أكثر من ذلك اعتبر الأمر حديث حسد ونكاية، لأن موران، كما قال في مقهى زيدان:

- اللي تحتاجه اليوم قبل باكر الماء تبل به ريقها، أما اللي يسولفون عن الخيل والطير فاشهد بالله انهم فسقانين.

وحين أكدوا له أن رابح الحنيحن بعث برجاله لملاقاة الخيل، ومرافقتها الى موران، فقد قال بسخرية:

- ابشروا يا أهل موران لأن الدنيا بآخرتها...



تنفس بعمق وابتسم ثم بعد قليل تابع يحدث نفسه:

- كانوا يقولون من قبل أن المهبول هو اللي يولّم المعلف قبل الفرس، هالحين راح تجينا الخيل الطيبة وما نلقى لها العلف، وراح نصفّر لها حتى تشرب السراب!

مع ذلك، ورغم ما قيل، ظل شمران غير مصدق أن الأمر يصل إلى الحد الذي يمكن أن تُشترى فيه الخيل الطيبة من خاوج موران، وحين جاءه ابنه نمر ليؤكد له أنه احصى بنفسه عشر سيارات تحمل كل واحدة منها ما بين خمسة وستة رؤوس من الخيل، وقد دخلت قصر الغدير، فقد شهق وصرخ:

- عشر سيارات، وعلى كل واحدة خمسة أو ستة روس؟

هز نمر رأسه للتأكيد، فقال شمران:

- يا عباد الله اذا التقى خارج موران كلها كم فرس أو كم حصان، فاصلهم من موران، انباعوا أو انشروا على ايدينا، هنا، وحنا نعرفهم زين، نعرف أسماءهم، ونعرف آباءهم وأمهاتهم، فمنين هالحين جتنا هذي الكدش كلها؟

ولكي لا يبقى نهباً للاشاعات والاقاويل، ولأنه يريد أن يتأكد بنفسه، فقد ذهب إلى قصر الغدير.

بدا القصر، الذي تركه السلطان قبل بضعة شهور، وانتقل الى قصور الخالدية، اشبه بيوم السوق: الناس بالعشرات، يدخلون ويخرجون. رجال الحرس الذين كانوا، إلى وقت قريب، يتميزون عن الآخرين بملابسهم النظامية، تخلّوا عن قسم من هذه الملابس، أو تخلوا عن الأحذية، واختلطوا بغيرهم. ومثلما كان أغلب الذين يدخلون أو يخرجون، يبيعون ويشترون، وتبدو الأشياء التي تباع أو تشترى مثاراً للتساؤل والسخرية، فقد كان الحرس أكثر نشاطاً وأوفر حظاً، لأن لديهم ما يبيعونه، خاصة الأحذية والثياب، كما كانوا أقوى من الآخرين وأكثر ثقة، لأنهم يحصلون على الحد الضروري من الأرزاق، التي توزع عليهم عيناً في نهاية الأسبوع، أو على التحديد عصر الخميس، وكانت هذه الأرزاق وحدها تقيم سوقاً حافلاً كل يوم جمعة.

كان المنظر غريباً، وللحظات ظن أنه أخطأ المكان، أو أنه في حلم. فقصر الغدير، منذ أن أصبح قصر السلطان، وبعد أن وُسّع عدة مرات، وأضيفت إليه مساحات جديدة، ثم وضع على بواباته الحرس، وكان هذا أمراً جديداً وغير مألوف في موران، وقد زاره شمران مرتين أو ثلاث مرات، ليعطي رأياً بعدد من الخيول، وإن كان ذلك من عدة سنين، بدا له القصر ذلك الوقت مهيباً قوياً، وحرسه في منتهى العنفوان، وهم ينقّلون خطواتهم المنتظمة الواثقة، وقد ظهرت عليهم ملامح القوة والشباب.

الآن يبدو كل شيء مختلفاً، اذ بالاضافة إلى الضجة واللغط اللذين يسيطران على المكان، كما كان الحال أيام السوق، (آه يا زمن سوق الحلال) فإن الحرس يبيعون الحاجات والأرزاق الآن، قريبو الشبه بالمتسولين، إذ بالإضافة إلى تقدمهم في العمر، فإن ملابسهم قديمة ممزقة، ويتصفون بالسخرية والقسوة، حين يرفضون الاسعار التي تعرض عليهم، أو باللجاجة لمعرفة كل شيء حين يُسألون عن أحدٍ من أهل القصر.

سأل شمران نفسه، وهو يشق طريقه عبر البوابة الشمالية، وكانت أقرب البوابات إلى أسطبل الخيول، كما يتذكر القصر قديماً «إذا حرس طويل العمر باعوا هدومهم، حتى يشبعوا خبز فشلون راح يكون حال الناس؟» وتذكر بعض الوجوه التي يعرفها، التي رآها من قبل. لقد تغير الناس كثيراً. دب اليهم الهرم منذ أن ترك سوق الحلال، واعتزل البشر. ثم أصبح لا يرى الا من يأتون إلى مقهى زيدان. كان بعض هؤلاء من حرس خريبط، أو الذين حاربوا معه. كانوا شباباً وأقوياء، كانوا يتيهون اذا مشوا أو حملوا السلاح. الآن يبدون بشراً آخرين. قال «أيام السوق كان الناس حديد، مثل الحديد» وابتسم بحزن وهو يضيف: «ويمكن اللي يشوفوني هالحين، واللي يعرفون شمران ذاك، يقولون لأرواحهم: الله الله يا زمان، صحيح أن هذا اللي تشوفه عيّونا هالحين كان شيخ السوق؟».

أما حين سأل عن رابح الخنيحن وطلب أن يوصلوه اليه، فقد تطلع إليه الذين سألهم، وكانت عيونهم تقول: «من أنت لكي تصل إلى ابن حنيحن؟» ولما ابتسم



وسأل من جديد، لكن بلهجة واثقة: «وين مكان رابح يا أولاد الحلال؟» فقد أفسحوا له الطريق وأشاروا. قال لنفسه: «لا أحد هالحين يعرف أبو نمر، لأن كل شي تغير: الدنيا والناس». ولو انصت احد، وسط تلك الضجة، لسمعه يقول:

- اي نعم اللي ما يعرف الطير يشويه!

قال له رابح، بعد أن حيّاه بمودة:

- جيت والله جابك يا أبو نمر. . .

كان مع رابح عدد من العاملين معه، من المشرفين وسواس الخيل، واغلبهم يعرف شمران، تابع رابح بلهجة ساخرة:

- كانوا يقولون عن الخيل: ظهورها حرز وبطونها كنز، فاريدك، يا ابو نمر، تقول قولك بالخيل اللي وصلتنا.

بعد أن دقق شمران بهيأتها، وفتح أفواهها، ليتأكد من أعمارها، وقد تعرف على اثنين من هذه الخيول كانت قبل سنين بموران، وكان تعرّفه على واحد منها حاسماً لكل سؤال أو نقاش، إذ روى مانع الوهيبي «ما ان ناظره أبو نمر الا وصاح: هذا مفتاح، حصان ابن الرشودي، أبوه حمداني وأمه سبيلية، وعمره تسع، واللي ما يصدق عندي علامته. تعجّب كل من سمعه، وقال له رابح: هذا، يا أبو نمر، وانت الصادق والعارف، وحجته معه، صقلاوي ابن صقلاوية. وبعد ما تراهنوا، قال شمران: عندي علامته. وما كذب خبر، قال لهم: شوفوا اذنه اليسرى، قيسوا اصبعين من حدر وناظروا: مخرومة أم لا؟ لما ناظروها، أي بالله، مخرومة، وبنفس المكان».

قال رابح لشمران، وقد سار معه حتى البوابة الشمالية:

- من كثرة الطوشة واللوشة، يا أبو نمر، تراها ضاعت علينا، وحنا هالحين شورنا من روس غيرنا!

كما يرجع المهزوم رجع شمران العتيبي الى مقهى زيدان. تابعته الأعين. انتظر

الذين عرفوا بزيارته لاسطبلات قصر الغدير، أن يتكلم، وحين طال صمته سأله زيدان:

- سولف يا أبو نمر، شلون شفت الخيل اللي وصلت؟

جرّ نفسه عميقاً، وظل صامتاً. قال صالح النذير لزيدان، ويريد لشمران أن يسمع:

- طفِّ نارك وثبّت دارك، يا أبو جاسر، لأن ابو نمر جرّ النفس من بعيد بعيد، وهالحين اما يحرق نفسه أو يحرق الدنيا.

رد زيدان مازحاً:

- نَفَس أبو نمر ولا أطيب يا صالح، فخله ينفث...

ابتسم شمران العتيبي، وخرج صوته حزيناً:

- ترى الخيل، يا جماعة، صارت مثل ناس هذي الأيام: يجيبك الواحد أول يوم ما تعرف قرعة أبوه منين، وثاني يوم بيده حجة تسلسله إلى محمد العربي، ومنه إلى عدنان، واللي ما يصدّق: هذه شجرته، وهذي حجته برقبته!

ولما بدت كلماته غير مفهومة بالمقدار الكافي، اضاف وهو ينظر إلى الوجوه:

- اي نعم، شفت الخيل، ناظرتها زين: الحصان اللي طلع من بين ايدينا حمداني رجع لنا صقلاوي!

وابتسم وهز رأسه، وبعد قليل، وبنغم:

- واللي ما يصدق: الحجة موجودة، وفوق كل اختامها ختم الأملط، ومعها كوشان ابنه، وكُبره كُبر الرغيف!

وتغيرت لهجته، أصبحت أقرب إلى السخرية:

- بها نبطي من أهل السواد      يدرّس انساب اهل الفلا

قال زيدان مازحاً:



- الخيل تظل خيل يا أبو نمر!

- آخر ما ظل للعرب، يا أبو جاسر، خيلها، ضيعوا الأرض، وضيعوا العرض، قلنا الخيل ترجّع الأول والتالي، وهالحين صارت خيلنا تجينا من غيرنا، وصار الغُرب هم اللي يعلّمونا الخيل الاصيلة من الخيل المضربة، فتريدني بعد كل هذا انشبّ واسكت؟

قال صالح الرشدان بحدة:

- باطن الأرض خير من ظاهرها!

قال الحكيم في الاحتفال الذي عُرضت فيه الخيول:

- ... وهذه العتاق المطهمة الاصيلة فخر لموران ولما جاورها. انها كريمة الاحساب، عريقة الانساب، على ظهورها يقعد النصر، وبها ترتفع راية الحق، أنها ذخر لهذا اليوم ولكل يوم، أو كما قال عليه الصلاة والسلام: معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة!

قال شداد المطوع لابن أخيه حماد:

- اسمع وسمّع، يا وّل، يا حماد: تراكم كسرتم اعراضنا ونكستم عُقلنا، والناس إذا صبرت اليوم تراها ما تصبر ثاني يوم.

وتغيرت اللهجة، أصبحت مشوبة بالحزن:

- ترى الناس جاعت يا حماد، وضاقت أرواحها، وبدل ما ترموا فلوسكم بالتراب اطعموا العباد، ويلزمككم تعرفوا حدكم.

وحين ابتسم حماد، لكي يمتص غضب عمه، اضاف شداد:

- الفلوس تروح وتجي يا حماد، والربح والخسارة ما هي كل شي بهذي الدنيا، ولا تظن أن الفلوس بعيني، وأنت تعرفني زين. بس اريدكم تصيرون خلق وأولاد أوادم، اللي يصير سوّوه، واللي ما يصير وتسوونه ينقال عليه كفر وقلة دين!

سأل حماد بدعابة:

- لكن ما فهمت عليك يا عم.
- فهمست وزايد، يا حماد، لأنه ما ظل أحد الا ويسولف: الحصان اذا طلع من الحدود صقلاوي يرجع عبيّان، واذا كان أمس سبيلي ثاني يوم حمداني، وهذا ما نزل بكتاب ولا يقبله عقل.

رد حماد باعتذار مصطنع:

- إذا صار خطأ بحصان او اثنين، يا عم، فهذا ما هو قياس!

- يا ابن آخي: اعطوا الاملط اللي يريده، بس لا تخلوه يحوس باعراضنا وانسابنا، لأن هذي اللي بقيت لنا، وكل ما عداها زرده زردة حيّة.

العجرمي الذي طالت اقامته في عين دامة، ولم يسمع بالكثير مما جرى في موران، حزم أمره وعاد، مضطراً، لمواجهة ابن شاهين الذي قال كلمة انتشرت في موران كلها، وطارت لتصل إلى العوالي، ولتصل إليه بالذات. قال ابن شاهين لما طالت غيبة العجرمي:

- يا أهل موران، الحاضر يبلغ الغايب، وهذا الكلام يلزم يصله: لا يتعب روحه، الخصوة مثل الغيمة ومثل الزناد. الغيمة اذا بها حيل تمطر، والزناد اذا به نار يوّج، فحرام عليه يوسّد ويمسّد، لان لا أحد يحيي العظام وهي رميم الا رب العالمين. فاذا كان عنده فلوس زايدة، فالزكاة بسنة القحط ألفاً مما يعدّون، خلّه يرجع ويفك كيسه ويتصدق، خير من أنه يظل يلعب بخصيانه!

لما سمع العجرمي، ما يتناقله الناس عاد. ورغم أن الكثيرين توقعوا، مثل مرات سابقة، ان يرد على ابن شاهين، وان تعيش موران على قصص حي القلعة ووادي سبيع، لكي تتغلب على الجوع والمعاناة، فقد سكت العجرمي، خلافاً لعادته. وقيل أنه بعث بهدية لابن شاهين، وهي عبارة عن كمية من العسل وزناد وقطعة من الخشب. وقد فُسّرت هذه الهدية تفسيرات لا نهاية لها، وأكّد الذين يتابعون هذه الخصومة، والذين يزيدون في اشتعالها، انهم لم يروا ابن شاهين غاضباً محتداً متوعداً كما كان حين تلقى هدية العجرمي، لكنه،



مع ذلك، لم يرد عليه مباشرة، انتظاراً لوقت ولطريقة «يرد بها الصاع صاعين»، كما قالوا، وكانوا متأكدين!

أكثر من ذلك، أخذت الخصومة، في هذه المرحلة، وجهاً مختلفاً، إذ تركزت على السلطان. فقد اعتبر العجرمي ان السلطان ذاته وراء تحريض ابن شاهين، وانه يريد ابعاده، ولذلك لم يكتف بالامتناع عن زيارة القصر فقط، وانما بدأ الهجوم أيضاً، خاصة بعد قصة الخيل:

- الخيل لأهل الخيل، يا ناس: العتاق للعتقين، والضامرات للضامرين، أما إذا الواحد كله طيز فيلزمه وانيت يتعبا به، واللي يزيد ينقصّ. . .

يلتفت، ويهمس، يسأل ابن البخيت:

- شنهو قولك، يا ابو بادي، بهذا الكلام؟

يقهقه عبد الله البخيت، يبدو مسروراً، وحين تطالبه عينا العجرمي بالجواب، يقول:

- ما يفيد، يا شيخنا، ويلزم تقول غيره!

ويغضب، لكن بهمس أيضاً، يرد عليه العجرمي:

- لكن ما تشوف عينك؟
- هذا منه كثير، يا شيخنا!

وظلت موران تتابع وتسمع، حتى إذا تزوج السلطان، وانتشرت القصص التي رافقت ذلك الزواج، فقد حمل ابن البخيت كتاباً من الكتب الكثيرة التي حملها معه من القاهرة، يوم عاد، وذهب الى زيارة شداد المطوع.

- حنا ما علينا، يا أبو غانم، باللي يسولفه الناس. الناس عيونهم ضيقة وقاتلهم الطمع، لكن اقرأ لك اللي قريته بالتاريخ امس.

وضرب على الغلاف، ثم بلّ اصبعه بشفته، وفتح الكتاب، وقال:

- هذا كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، يا أبو غانم، وهذه الصفحة التي انفتح

عليها الكتاب رقمها ٧٤٠، وقرأ «وكـان السلطان أيضاً يلعب مـع العوام، ويلبس ثبـان جلد (والثبان، يـا أبو غـانم، السروال) ويتعرى من ثيابه كلهـا ويصارعهم، ثم يلعب معهم بالعصي، ويلعب بالرمـح والكرة، فيـظل نهاره مع الغلمان والعبيد في الدهيشة، ويحضر في الليـل عبد عـلى العواد، ويـأخذ عنه الضرب بالعود، ويتجاهر بما لا يحمد.

«وشغف السلطان بكـيرا (وهذا اسم جـارية، يـا شـداد) حتى كـان لا يكـاد يفارقها»، «واشترى لها زربية بمائة ألف درهم.

«وفيه (أي بذيك السنة) ارتفع سعر القمح، وغلا اللحم، وعـامة الاصنـاف المأكولة، حتى بلغت مثلي ثمنها. وتوقفت الأحوال، وقلت الغلال، وكـثر السؤال من كثرة قدوم أهل النواحي الى القاهرة، حتى ضـاقت بهم، فكانـوا كذلـك مدة سنة، مع كثرة المناسر في البلاد والقاهـرة، وقوة المفسـدين وقطاع الـطرق بأرض مصر وبلاد القدس ونابلس، وفتنة العشير بعضهم مع بعض».

«وأنعم السلطان من ليلته على كيرا محظيته بعشرين ألف دينار سوى الجواهـر واللآلىء، ونثر الذهب على الخدام والجواري، فـاختطفـوه، وهو يضحك منهم. وفرق السلطان على لعّاب الحمام والفراشين والعبيد الذهب واللؤلؤ، وصار يحذفه لهم، وهم يتدافعون عليـه، ويأخـذونه، بحيث لم يـدع منه شيئـاً سوى القـماش والتفاصيل والآنية والعدد، فانها صارت الى الخزانة، فكانت جملة ما فرقه ثـلاثين ألف دينـار، وثلاثـمائة ألف درهم، وجـواهر وحليـاً، وزركشاً ولؤلؤاً ومصـاغـاً، قيمته زيادة على ثمانين ألف دينار.

«فعظم ذلك على الأمراء».

وفي مكان ثان، بعد صفحة أو صفحتين، يا أبو غانم، يقول صاحبنا «وساروا بـه على فرس الى تربة كذا، تحت الجبل، وذبحوه في ساعة قبل العصر [ولما أنزلوه وأرادوا ذبحه توسل إلى الأمراء] وهـو يقول: بـالله لا تستعجلوا على قتـلي، وخلوني ساعـة. فقالوا: فكيف استعجلت على قتل الناس، لو صبرت عليهم صبرنا عليك».



ما كاذ يمضي اسبـوع، وتقع تلك الاحـداث، حتى هرول شـداد المطوع لابن البخيت:

- اسمع يا عبد الله: ما أريدك تحلف وتتكفر، اريدك تعلمني الصدق.
- سم يا شيخنا.
- انت، اي نعم، انت، كنت تدري بهذا الشي اللي صار؟

ولما قهقه عبد الله البخيت، في محاولة للتمويه، تابع شداد:

- الكتاب اللي حملته، والصفحة التي قـريتها، مـا هي لله، بس اريد أعـرف من هو اللي قال لك، وشنهو اللي قاله.
- يشهد الله، يا أبـو غانم، ومـالك عـليّ يمين، اني مـا ادري شي، لكن إذا زاد الأمـر عن حـده انقلب الى ضـده، وانت تـدري شنهـو الـلي صـار بموران، وشلون الناس تعذبت وتمرمرت، وشنهو اللي سواه خزعل بالعباد.

ضحك شداد المطوع غير مصدق، غمز بعينه، وبعد قليل:

- وهذا صاحبنا شلون تشوفه؟ شنهو حزرك عليه؟
- هذا ما أدري به، يا أبو غانم.
- ما تدري أم تخاف تقول؟
- لا بـالله، خوف مـاني خايف، بس هذول الحكام مـا ينحزر عليهم. قبـل ما يحكمون يكونون شكل واذا حكموا يصيرون شكل تاني!

وابتسم، وبعد قليل وكأنه يقنع نفسه:

- وكتاب صاحبنا قرّيب، ومثل ما فتحناه على صفحة، يا أبو غانم، واللي قريناه صار، نفتحه على صفحة ثانية، ونشوف شنهو اللي راح يصير!
- هذا قولك؟
- اي بالله.
- يعني هـذا اللي نشـوفه ونقـراه، يا تـرى ما أحـد قراه عـلى روسهم؟ مـا احـد علّمهم، حتى يحرصوا؟

ـ أما هذي فلا!

وابتسم ابن البخيت وهز رأسه، ثم تابع:

ـ اللي قبلنا قالوا: آفة العلم النسيان، وآفة اللي يحكمون يا أبو غانم ان الواحد منهم ما يتعلم الا من كيسه، وسوالف التاريخ وغير التاريخ، لواحد مفلس مثلي، يقرا ويترنم، واذا سولف يسولف وحده أو بليل، ولهذا السبب تشوف ان الواحد منهم مثل الثاني، يجوز يكون واحد طويل والثاني مربوع والثالث طوله طول الشبر، لكن، يا سبحان الله، من ظهر واحد ومن ام وحدة، ولا يغرّك صوتهم العالي، والوعود، وحلّت البركة، واللي تريده يصير. لا، أبد، ما يسوون الا اللي بروسهم، واللي يفيدهم، فخلنا نّاظر ونشوف صاحبنا الجديد، مثل ربعه، مثل اللي قبله أم انه غير شكل.

قال شداد:

ـ والله، يا عبد الله، ما انت قلّيل، تعرف اللي صار واللي راح يصير!

رفع يديه الاثنتين، وهو يبتسم لكي ينفي اية معرفة:

ـ لا بالله يا شيخنا، انا واحد مسيكين، اناظر واسأل نفسي قبل ما اسأل الناس، ومتحير، ما اعرف عيبي أو عيب غيري.

ـ لا تتمسكن يا عبد الله، وهالحين عرفت ليش خريبط ما كان يقدر ينام الا اذا سولفت انت وياه!

ـ صيت غنى ولا صيت فقر يا أبو غانم، وهالحين كل واحد يغني من راسه، ويغني على ليلاه!



اذا كان روبرت يونغ قد شعر بالخديعة، نتيجة التغيرات التي حصلت في موران، فان ليفي شاوات شعر بالهزيمة، فقد ترك شركته، رغم المحاولات التي بذلت معه من أجل أن يبقى، وترك معها التعويضات المجزية التي تمنح عادة لمن ينهي الثلاثين سنة، وكان قد بقي له أربع سنين من أجل بلوغها، على أمل أن يحصل على اضعاف هذا المبلغ، من خلال الصيغة الجديدة، خاصة بعد أن رأى بعينه ماذا يعني غزوان في موران، وبالتالي ماذا يمكن عمله. صحيح أنه استعمل كل مهارته لكي تبنى العلاقة دون مبالغات، ودون اشعار غزوان بمدى الأهمية، لكنه كان يراهن على هذه الورقة بالذات.

الآن، بسقوط خزعل، خاصة بعد ان تزوج شقيقة غزوان، سلمى، بدت لليفي الدنيا صغيرة الى درجة لا يعرف كيف يتصرف. لا يريد أن يظهر ضعيفاً أمام غزوان، كما لا يمكن أن يسلم بهذه السرعة. بنفس الوقت لم يعد قادراً على أن يكون طبيعياً مثلما كان من قبل، لذلك فإن العلاقات الشخصية، رغم مظاهر الود، تعرضت الى الارتباك والفتور.

صحيح أنه احتفظ بكل المظاهر لكن تحركت عليه قرحة المعدة، أو هذا ما ادعاه، لكي يبرر غيابه الطويل عن المكتب.

لقد فعل ذلك مضطراً، أو ربما غريزياً، لكي يعيد التفكير، ولئلا يتخذ قراراً متسرعاً قد يندم عليه في المستقبل. انه شديد الحيرة، ولا يقوى على اخفاء ارتباكه، ولذلك يتحصن بالصمت، انتظاراً لوقتٍ يعتبره اكثر ملائمة، أو لقوة مجهولة تساعده على الخروج من المأزق الذي اندفع اليه بارادته الخاصة. ولا يعرف لماذا سيطرت على فكره اليانور، وافترض أنها يمكن أن تساعده.

اليانور التي لم يمض على خروجها من التجربة الا وقت قصير، لا تزال تعيش في جو تلك التجربة، كما انها تحس بالمسافة، وبعض الأحيان الكبيرة، بينها وبين غزوان؛ وهي في نفس الوقت، ورغم القرابة التي تجمعها بليفي، الا انهما جيلان، وبالتالي عالمان، فلا يتصور أنه قادر على أن يكلفها باعباء أو مهمات فوق طاقتها، أو غير مقتنعة بها، خاصة وأنها ذاتها بحاجة إلى علاج من نوع ما يساعدها على تجاوز الفترة الصعبة، فهي تواقة، الى أقصى حد، لأن تنسى، لأن تهرب من اشباح الليل والنهار، وأن تبدأ حياة جديدة.

في ذلك الجو من العذاب والحيرة والبحث، وربما لأن اليانور شعرت، حتى من خلال المكالمة الهاتفية، انها كانت وراء الأخبار السيئة التي نقلتها لغزوان، وتسبّبت باحزانه، فقد بدت محرجة، وتريد أن تكفر عن هذا الخطأ، خاصة وأن غزوان غرق في السكر والتعاسة، وبالغ أكثر من ذلك بأن أخذ يتحدث عن الانتحار!

كانت الأحاديث الشخصية، وبعض الأحيان الدقيقة، تجري بينهما بالهاتف. ففي الأيام الأولى، وفي محاولة من اليانور لمتابعة تفاصيل احداث موران، اتصلت بغزوان عدة مرات، وفي ساعات متأخرة، تنقل اليه ما سمعته من الاذاعات، ولتسأل عما تحمله من معاني ودلالات. كانت، وهي تحدثه، تريده أن يفكر بما يمكن عمله لمواجهة الوضع الجديد. أما وهي تفيض بالأسئلة، بوضع الاحتمالات، بتفسير الأخبار التي تسمعها أو تقرأها، فكانت تفكر نيابة عنه، أكثر مما تريده أن يجيب على أسئلتها. وكان يتوهم، في بعض اللحظات، وهو يصرخ ويتحدى، أنه تجاوز حالة التشاؤم، مع أن يأسه لا يخفى.

ولمداراة التشاؤم واليأس كانت تحس أن من واجبها أن تطيل الحديث معه، وأن تضمّن حديثها عبارات رقيقة لكي تشجعه، لكنها بمرور الأيام اكتشفت أن غزوان كالطفل يستجيب لتلك الكلمات والعبارات، ويرتاح اليها، بل ويعتبرها وحدها التي تسنده وتجعله قادراً على التماسك.

في المكتب يبدو الأمر مختلفاً، إذ بالإضافة إلى عدم الرغبة، أو ربما عدم القدرة، على الخوض فيما تبادلاه من أحاديث في الليلة الفائتة، كان خجولاً، أقرب



إلى الصمت أو الإرتباك. حتى نظراته تبدو خائفة وهاربة. لقد سبّبت لها هذه الحالة قلقاً اضافياً، فالرجل الذي تراه أمامها، بأناقته المفرطة، ووجهه الحليق الضاجّ بالعافية، أقل قلقاً مما يبدو على الهاتف، أو كأنه شخص آخر.

ليس الأمر متعلقاً بالليل والنهار، وإنما، كما قالت لنفسها، وهو يوقظها في ساعة متأخرة، في احدى الليالي، ليتحدث اليها، ويطيل الحديث، وليعترف لها أيضاً، أن «الأمر، بالدرجة الرئيسية، متعلق بالمسافة، وبالسكر. كان يريد مسافة أمن، أن يبقى بين أربعة جدران، وواثقاً، لكي يتصرف كما يملي عليه عقله، أو أن يفقد السيطرة على هذا العقل لكي لا يبقى كابحاً له».

وتذكرت آخر سهرة لهما: في بداية السهرة كان أنيقاً وخجولاً، وفي نهايتها تخلى عن أناقته وخجله معاً، وكأن الأناقة أو الصحو، ما يمنعه ويحدّ من شجاعته وحريته، أو يريد مناسبة لكي يتخلى عن هذه القيود. فما كاد السكر يعربد في رأسه حتى أصبح شخصاً مختلفاً. وحصل الشيء ذاته، في مرات أخرى، فما يكاد يعود الى بيته حتى يشعر بالأمن، بالثقة، وكأن المسافة ما يوفر له الشعور بالحماية، فلا يتركها لتنام. يتحدث اليها كما لا يتحدث أبداً حين تلتقي نظراتهما، وفي لحظات كثيرة، يبدو ذكياً، ولا يخلو من دعابة.

وفي اليوم التالي، بعد كل لقاء، يبدو، من جديد، انساناً خجولاً وضائعاً إلى أقصى حد.

قالت اليانور لنفسها: «لا أريد أن أغرق بتفسيرات نظرية، تحتمل الخطأ والصواب، أريد أن أكون أقرب إليه وأكثر حناناً». ولم تنتظر ولم تتردد في أن تفعل ذلك.

ليفي شاوات الذي شعر أن آلام القرحة خفت، ويمكن أن يمر على المكتب، وأن يقضي بضع ساعات يومياً، اكتشف أن العلاقة بين غزوان واليانور تجاوزته، أو ربما لم يعد قادراً على أن يتحكم بها. قال لنفسه، وهو ينظر بطرف عينه، كيف أن اليانور عدّلت ربطة عنق غزوان: «لا يمكن للمرأة أن تصطاد الرجل الا حين يكون في أضعف لحظاته، واللحظات الضعيفة بالنسبة للرجل تقع وتتكرر

كل يوم، لأن المهم بالنسبة له أن يكون مرغوباً، أن ينتزع الاعتراف، وبالتالي لا غنى عنه، وأن يكون فحلًا اذا وصل إلى السرير» وبعد أن اطمأن لهذه القاعدة أو ربما بسببها، تذكر زوجته: «لم تقبض عليّ روزا الا حين وجدتني ضعيفاً: مجرد إنسان يبحث عن وطن وعمل. وكان لديها الاثنان: المكان والعمل: وبعدها أصبح كل شيء بيدها».

روبرت يونغ المخدوع، والذي أحس بحجم الفجيعة، لم يترك للزمن أن يرسم له المسار، أو أن يفرض عليه ما يجب أن يفعله. فبعد أسابيع من القلق والتفكير، وحين استعاد أيامه السابقة في موران، قرر ان يغامر بالسفر، مرة أخرى، إلى هناك. لا بدّ أن يذهب ليكتشف، لا أن ينتظر، لكي ينقل اليه الآخرون ما حصل في موران، أو ماذا فعلوا هناك.

فما دام يعرف فنر، وقد التقى به عدة مرات، ويعرف أيضاً ابن عليان، الذي وقّع عقد النفط، والإثنان في موران، الأول هو الحاكم، والذي يمكن أن يفتح له آفاقاً لا نهاية لها، والثاني، وقد أصبح أحد الأغنياء الكبار، ليس في السلطنة وحدها، وليس في المنطقة وحدها، وإنما تجاوزهما ليصبح أحد الأغنياء المعدودين في العالم. اذا استطاع أن يجدد علاقته معهما، أو مع واحد منهما، فيمكن أن يبرىء نفسه من أية علاقة مع العهد السابق، وأن يبدأ عملاً جديداً وكبيراً، اعتماداً على هذه العلاقة.

جاء روبرت إلى موران بعد عشر سنين من الغياب، ولأن له اهتمامات تتجاوز العقود إلى نظرة باروكية، خاصةً في مجال البناء، ولأن له مذكرات مكتوبة حول مراحل بناء حران، ثم رأس الطواشي، وقد جال في السلطنة، وقضى عدة اجازات يتنقل ويتعرف، فقد كتب أثناء زياراته ملاحظات كثيرة.

الآن، وهو يحاول تجديد العلاقة مع معارفه القدامى، ويتعرف على التطورات التي حصلت خلال الفترة السابقة، يستغرب كل شيء، إذ بالإضافة إلى عدم تمكنه من مقابلة السلطان، لأنه لم يجد الصيغة أو الشخص المناسبين، ولأن ابن العليان يهمه العمل المحدد أكثر مما تهمه الأفكار، بحيث لم يستطع بعد أن التقاه، ولفترة قصيرة، أن يتوصل إلى نتائج، أو صيغة يمكن أن تفتح له الآفاق



إلى ما يريد، فقد كتب، بعد أسبوعين، بمذكراته الشخصية ما يلي:

«... وتغيرت موران، خلال السنين العشر الأخيرة، كما لا تتغير مدينة أبداً. لم أعرفها، أو بالأحرى لم أتعرف على أيٍ من معالمها التي ارتسمت في ذاكرتي. أين هي الصلة بين المدينة التي رأيتها من قبل، أو عرفتها فيما مضى، والمدينة التي أراها الآن؟ لا شيء أبداً يجمع الاثنين. ليس المهم الآن الحديث عن العواطف والرغبات، فكل ما هو ماضٍ، حتى البائس، عزيز على الإنسان، وله مذاق خاص، لكن مع ذلك، فإن المدن اذا خلت من المعالم التي تجعلها دائمة ومتميزة فإنها لا تستحق التوقف أو الإشارة. لا يهم أن تكون المعالم ما خلقته الطبيعة أو ما صنعه الإنسان، لكن، في كل الأحوال، يجب أن تبقى المدينة، أية مدينة، مختلفة عن غيرها، لها نكهتها وشخصيتها، وأيضاً معالمها.

حين بنيت حران، اقترحت أن يكون الامتداد نحو الجنوب والشمال الشرقي، وأن تكون المحاجر الغربية حداً للمدينة؛ اقترحت أيضاً ألّا تنتزع من مكانها التلال، أو تتغير معالم البحر، اذ لا يمكن التسامح بأي منهما. وإذا كانت الشركة لها أسبابها في أن تمتد المدينة نحو هذه الجهة أو تلك، فقد راعت بعض الاعتبارات. ليس المهم أن تكون أخذت بوجهة نظري، ولكنها كانت حريصة أن تبني مدينة لها ملامحها، وأن تبقى فترة ليست قصيرة.

موران، وأنا أراها، الآن، بعد أن زالت معظم، وربما كل، معالمها القديمة، وبعد أن أعيد بناؤها من جديد، لكن ضمن ألف طراز، أصبحت شبيهة ببعض الطيور الافريقية: مزركشة جداً لكن دون جمال. الطراز القديم إلى جانب الحديث جداً: اللبن إلى جانب الزجاج العاكس؛ الأندلسي إلى جانب الياباني؛ الهندي إلى جانب ناطحات نيويورك. أكثر من ذلك: القصر الواحد مزيج من عدة عصور، ومن عدة أماكن.

«موران القائمة، الآن يمكن أن تنتقل أو تزول، بعد عدد من السنين، وهذا العدد، اذا تفاءلت، (أو تشاءمت) لا يتجاوز الثلاثين سنة، لأن كل شيء ليس في مكانه: الأبنية والبشر، اضافة إلى الرغبة الإنسانية المجردة.

«قد أبالغ، أو ربما أشغل نفسي بهذه الأمور، التي لا تعني، في النتيجة شيئاً

هاماً أو ذا قيمة، تماماً، كما يحاول الإنسان أن يمسك موجة، لأنها أعجبته، أو أن يقبض على الشفق أو اهتزاز الريح. هناك أشياء تأتي مرة واحدة، فإذا استطاع الإنسان أن يقبض عليها، أن يجمدها، أو أن يمجدها، تصبح ملكه، شيئاً خاصاً به، أما إذا أفلتت ثم تراجعت أو توارت، فإنها تذهب إلى الفناء، أو تصبح ملك غيره.

ـ «لا أريد أن أسقط الاحباط الذي شعرت به، نتيجة عدم قدرتي على مقابلة السلطان على الأمكنة والناس. انني أحاول أن أكون محايداً، وربما أيضاً، نزيهاً، لكن، مع ذلك، لا بد أن أقول رأيي، وهو بطبيعة الحال ليس للنشر، خاصة الآن، لأن مدينة مثل التي أراها تصلح لأن تكون معسكراً لجيش منتصر، لجيش كان يراهن على تحقيق هدف معين، وحين تحقق هذا الهدف بالغ هذا الجيش في التعبير عما افترضه نصره الخاص، بغض النظر عما عدا ذلك، أو ماذا يحمل المستقبل من مفاجآت.

بعد أن يبتعد النصر وتتغير مهمات الجيش، سوف لن تجد هذه المدينة من يحرص عليها، أو يريد بقاءها، لأنها ولدت في غير مكانها وفي غير زمانها. حتى الذين بنوها سوف يتخلون عنها، لانهم لم يتصوروها بهذا القبح وبهذا العداء. ماذا يفعلون بناطحات السحاب الزجاجية إذا أصبحوا عاجزين عن تأمين التبريد هذا؟ هل يريدون أفراناً اضافية زيادة على الجحيم الذي يعيشون فيه؟ هل يريدون مزيداً من مصائد الغبار إذا راكموا ذلك الفرش والأثاث المصمم للمناطق الباردة؟ وماذا يفعلون بهذا الكم الهائل من الأجهزة اذا عجزوا عن اصلاحها؟

الفقراء، نعم الفقراء. وحدهم الذين سيكونون مضطرين للبقاء. لكن كيف سيشقون طريقهم ضمن هذا الركام الهائل من الاسمنت والحديد والزجاج لكي يبدأوا حياتهم من جديد؟

الأمر لم يقتصر على شكل المدينة، أو طراز بنائها، فإن البشر، خلال هذه الفترة، تغيروا إلى درجة لم يعد من السهل فهمهم أو التعامل معهم. صحيح أننا عانينا الكثير ونحن نقيم العلاقة من قبل، كانوا يبدون لنا، في حالات كثيرة،



غير مفهومين بالمقدار الكافي، لكنهم الآن أصبحوا طرازاً مشوهاً من المخلوقات، أو أشبه ما يكونون بإحدى مراحل نمو الضفدع، خاصة المرحلة المتوسطة، حيث لم تعد تربطهم بما كانوه صلة، وسوف لن يحملوا من ملامحهم الحالية شيئاً للمستقبل. وهذا لا ينطبق على الملامح وحدها، وإنما يمتد الى النظرة والسلوك والعلاقات أيضاً.

لذلك يجب الا أستغرب أو أفاجأ بابن العليان. صحيح أنه كان مهذباً طوال لقائنا، وربما كان هذا التهذيب نتيجة الاسفار أكثر مما هو قيمة محلية، لكن مع ذلك لم نتوصل الى أكثر من وعود غامضة، وأغلب الأحيان لا يعنيها.

«سوف أزور حران خلال الاسبوع القادم. قد أبحث مع إدارة الشركة امكانيات التعاون. أعرف أن جوابهم لن يكون ايجابياً، لأنهم يفضلون التعامل مع القضايا المحلية، وليس لي صفة هنا، باعتباري غير مقيم، وفيما عدا ذلك سيشيرون إلى ضرورة مراجعة رئاسة الشركة هناك! مع ذلك يجب أن أحاول، خاصة وأن الكثيرين، الآن، يحاولون، حتى أننا نبدو في الفندق، وقد اجتمعنا وتعارفنا، أو هذا ما افترضه كل واحد منا، وهو يلتقي زملاءه في صالة الفندق، فى الابهاء، في صالة الطعام، اننا، هنا، أشبه بالخيول التي تستعرض وتستعد ليوم السباق. لا أحد يعرف، بدقة، أو على التحديد، ماذا يريد الآخر، أو ما هي فرصته، ومع ذلك فإن الاستعراض لا يتوقف يوماً واحداً. اننا نراقب، بعناية، كل زائر جديد، سواء أكان من أهل موران أو من الأجانب، نحسب ونقدر ما تعنيه كل إشارة، لكن، مع ذلك، يبدو الفندق كسجن. لأن لا أحد يستطيع ان يغادره إلا ليعود اليه بسرعة، وكأنه مربوط إليه بسلاسل حديدة لا يستطيع الفكاك منها.

العمل، الثروة، الحياة، وربما كل شيء آخر، يحتاج إلى علاقات من نمط خاص لكي تعطي النتائج المطلوبة».

بعد الزيارة التي قام بها عواد المفلح، والمكالمات الهاتفية الثلاث التي تلقاها غزوان من موران، وكانت الأولى من حماد المطوع، وقد بدا فيها ودوداً محباً، وهو يحاول الاستفسار، والتأكيد أن الأمور تسير سيراً حسناً، كما عرض على غزوان

المجيء بزيارة إلى موران «لأن الجميع يسألون ويبعثون اليك بتحياتهم» وأكد أنه سيبقى معه على اتصال، أما المكالمة الثانية فكانت من الأمير راكان، وقد بدا متلهفاً، وجاداً في أسئلته وتعبيره عن المودة، ولم ينس الاشارة أنه عاتب أيضاً، لأن غزوان لم يهنئه بمنصب الوزارة. المكالمة الثالثة جرت من مكتب وزير الداخلية، حماد المطوع، وشارك فيها، بالإضافة إلى حماد، الأمير راكان أيضاً، وكانت أقرب إلى المرح والعتاب، «لأننا كنا بذكرك، وعاتبين لأنك لم تتصل ولم تأت» واختتم الأمير راكان الحديث بكلمات لها دلالة واضحة: قال له: «تعال بضيافتي، وعلى مسؤوليتي، لأن طويل العمر سأل عنك أكثر من مرة».

كان الفاصل بين مكالمة وأخرى أقل من اسبوع، وقد ظل غزوان حائراً متردداً، إلى أن جاء عواد المفلح.

بعد أن عرض له عواد صورة عن الاحداث التي جرت، وكيف أن السلطان فنر دُفع إليها دفعاً، ووجد نفسه مضطراً، لأنه لو لم يفعل ذلك لأخذت الأمور مساراً خطراً، قد يؤدي إلى الاطاحة بكل ما هو موجود وقائم، طلب منه تلبية الدعوة الموجهة اليه لزيارة موران. وأشار، بطريقة لا تخطىء، إلى أن المصلحة تقتضي منه القيام بهذه الزيارة لأكثر من سبب. قال الكلمات الأخيرة وهو يبتسم.

غزوان الذي تغير كثيراً بعد أن سمع صوت حماد أول مرة، وبدا مرحاً متفائلاً بعد مكالمة الأمير راكان، وقد أبلغ اليانور، في الليل المتأخر، أن موران اتصلت به، وأشار، وهو يضحك، إلى شخصيات عليا، دون أن يسميها. في اليوم التالي، وحين تأخر وصول ليفي إلى المكتب اتصل به وطلب إليه الحضور «للأهمية البالغة». خاصة بعد أن تشاور واليانور، وقد أبدت اليانور حماستها «لبقاء الإتصالات» دون أن تلحّ على ضرورة تلبية الدعوة. أما ليفي الذي بدا متعباً، وقد شاخ خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، فقد أظهر اهتماماً وفرحاً لم يتوقعها غزوان، وطلب أن تُلبى الدعوة دون تأخير.

الاتصال الثالث، وكان ليفي موجوداً، وقد سمع بنفسه صوت الأمير، بعد أن رفع غزوان مكبر الصوت، حسم الأمور.



لكن مجيء عواد المفلح، وذلك الأسلوب الذي اتبعه، وهو يؤكد الدعوة من جديد، جعل غزوان يخاف ويتحسب، اذ بعد أن تهيأ نفسياً للرحلة، وبدا أكثر استعداداً، عاد إلى التردد، فطلب الغاء حجز السفر، ومهلة للتفكير. وكاد يتصل بأبيه ليسأله رأيه، إلا أن ملاحقة ليفي أن لا يفعل، ثم تدخل اليانور، في مرحلة دقيقة، اذ أعلنت استعدادها الكامل لمرافقته، تعبيراً عن اطمئنانها للدعوة، واستعدادها أن تضع مصيرها معه، جعل الأمور تأخذ مجرى ايجابياً.

لم يعرف ليفي بسفر روبرت يونغ إلى موران، اذ بعد انقطاع طويل، وبدا واضحاً أن العلاقات ستنتهي دون تدخل أي من الطرفين، ودون اجراءات رسمية للاعلان عن انتهائها، إلا أن التفاؤل الذي خيم على مكتب الشركة في سان فرانسيسكو، دفع ليفي للاتصال بنيويورك، بمكتب روبرت، فأبلغ بسفره، دون أية ايضاحات عن المكان الذي سافر إليه أو عن موعد عودته!

كان يريد ليفي أن يرد إليه الضربة، أن يثبت له ماذا تعني هذه العلاقة، التي حاول أن يهرب منها ويتنكر لها. قال لغزوان بتشفٍ:

- الذين يتعاملون مع الأرقام والنصوص فقط لا يفهمون الحياة بالمقدار الكافي، أنهم يرونها مجرد رقم أو نص ميت، لا يحسون بمدى القوة والحيوية الموجودين في الحياة العملية، ولذلك فإنهم معرضون للخطأ!

في فندق موران الكبير كانت المسألة أكبر من أن تستوعب، حين التقت نظرات غزوان بنظرات روبرت يونغ. ارتبك الاثنان. لم يتوقع أي منهما أن يلتقي بالآخر هنا، وفي هذا الوقت. لم يعرف روبرت كيف يتصرف. كاد يتظاهر بعدم المعرفة، وأن ينسحب، لكن مبادرة غزوان وضعت حداً، اذ اقبل نحوه بمودة ظاهرة، مما لفت نظر الكثيرين، فلم يستطع روبرت أن يتجاهل أو أن يتهرب.

قال له روبرت من موقع قوة:

- كنت أتوقع مجيئك، خاصة بعد أن أصبح الأمير راكان وزيراً!

- لم أكن أتوقع أن أراك هنا!

هكذا رد غزوان، بعد قليل، في محاولة لأن يستجمع نفسه:

- متى وصلت الى هنا؟ هل أستطيع مساعدتك؟
- لا بد أن نجلس ونتحدث!

بعد أن تحدثا طويلاً، وبعد معرفة روبرت أن غزوان التقى بالسلطان، والأمير راكان، تغير كل شيء. قال له بدعابة:

- لا أدري لماذا كنت أتوقع أن أراك هنا، وفي هذا الوقت بالذات؟
- في الشرق يقولون ان القلوب هي التي تتكلم!

لم يطل الأمر لكي يتم الاتفاق، خاصة وأن غزوان تذكر كلمات السلطان فنر، قال له السلطان:

- حنا، يا غزوان، أولاد اليوم، وما نريد نحمّلك أخطاء غيرك، فإذا ردت تكون بينا فأهلاً بك ومية مرحبا، أما إذا ردت تكون مع غيرنا، فانت حر، ولا تزعل منا مهما سوينا، ومهما حصل!

وقال له الأمير راكان:

- . . . كل اللي صار بداية، وهالحين، وانا أتكلم كمسؤول، نريد نعقد اتفاقيات، ونسوي عقود لتسليح الجيش، لبناء البلد، لاستيراد مواد كثيرة، فنريدك معنا، نريدك تساعدنا.

ولم يطل الأمر، لكي يتفقا. وفي مرحلة من مراحل المفاوضات شارك روبرت يونغ. كان سعيداً إلى أقصى حد، خاصة حين جرى الحديث عن كيفية تقاسم الأرباح. أما حين هيئت الصيغة، فقد طلب الأمير راكان ان لا يرد فيها اسم الطرف المستفيد في موران. قال ذلك وابتسم!

قال له روبرت في احدى الليالي، وقد عادا من سهرة أقامها لهما الامير راكان:

- . . . لا بد أن أعترف بشيء أساسي: خفت كثيراً نتيجة التغيرات التي حصلت في موران، وكدت أنهي العلاقة بيني وبين الشركة العالمية للاستيراد والتصدير. . .

ابتسم، هز رأسه، ثم تابع:



- وعليّ أن أعترف أيضاً: إن الإنسان، خاصة الاجنبي، في هذه البلاد، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، أو ما هو الشيء الصحيح. انه بحاجة ماسة الى أبناء البلاد، فهم وحدهم الذين يعرفون كيف يجب أن تتم الأمور، عن طريق أي الاشخاص، وكم يجب أن يدفعوا لقاء ذلك!

قال غزوان بمرح:

- لقد أصبحت هذه القاعدة عامة يا مستر يونغ، وفي كل مكان. . .

ابتسم وهو يضيف:

- وأنا تعلمت هذه الأشياء في الولايات المتحدة أكثر مما تعلمتها هنا!
- ولكن الأمر هنا يختلف عن أي مكان آخر. في الولايات المتحدة، تعرف لمن يجب أن تدفع، ولماذا، أما هنا فلا بد أن تدفع إلى أناس مجهولين، لأن غيرهم هم الذين يظهرون أمامك، وهؤلاء لا يعنون شيئاً، انهم مجرد مراسلين. أما الآخرون. . .

حين عاد غزوان وروبرت الى الولايات المتحدة كانت اليانور مع ليڤي في المطار لاستقبالهما، وقد أصرّ غزوان ان يذهبا معاً إلى سان فرانسيسكو، عبر مطار بوسطن، لكي يرى روبرت مقر الشركة العالمية، ولكي يتفقا على ما يجب أن يعملاه في المستقبل. قالت اليانور، وهي تعانق غزوان:

- لا أدري ما اذا افتقدتني كما أفتقدك؟
- بكل تأكيد يا اليانور!

قال هذه الكلمات، وهو يعانقها، ولم يفعل ذلك من قبل، لكن منح نفسه هذا الحق الآن، وكأنه يبلغها رسالة. ردت بمرح:

- لم أكن أتوقع أن تطول سفرتك الى هذا الحد، فأين كنت كل هذه المدة؟
- كنت هناك، في الأماكن البعيدة والمجهولة!

وانصرف الجميع إلى أحاديث عامة، حول السفرة، والطقس، والاحتمالات القادمة بالنسبة للعمل، وكان جو المرح طاغياً، مما يوحي بالأجوبة، دون كلمات كبيرة!

لم تمض شهور على تسلم فنر للسلطة حتى قالت فريزة خانم لابنتها بتحذير أقرب إلى اللوم:

- الهمّ، يا بنتي، بالنسبة للبني آدم أخطر من المرض، لأن الواحد يتعافى من المرض إذا تعالج، صحيح انه يهدّه كم يوم، لكن بعدها يروح. أما الهم فإذا ما انفرج يصير مثل السوسة، والواحد ابد ما يخلص منه. فاريدك تفتحي عينك زين، وتسوي كل اللي تقدرين عليه، حتى هالرجال يشوف دربه ويضحك سنّه.

ردت ثروت بأسى:

- والله، يا ماما، لا يجيني نوم، ولا تغفى لي عين قبل ما يرجع. وأول ما يصل اسوي كل اللي اقدر عليه حتى يرتاح ويرضى، لكن ما اقدر اخش تحت جلده، ولا أعرف شي غير اللي يقوله!

اقتربت فريزة منها، وسألت باستعجال:

- اي يا بنتي، وشنهو اللي يقوله هذي الأيام؟

- والله، يا ماما، كان حالنا قبل ما يصير سلطان، وحنا بعيدين، احسن بألف مرة!

هزت ثروت رأسها بحزن، وأضافت بعد قليل:

- كنت خايفة عليه من الاحلام، والكلام اللي كان يقوله، هالحين أخاف عليه من نفسي واخاف على نفسي منه.



- شلون يا بنتي؟
- ثابر الدنيا، لا يرتاح ولا يخلي احد يرتاح، لا ينام ولا يخلي احد ينام!

وضحكت بحزن وسخرية، وتغير صوتها:

- اذا خلص من الاجتماعات، سبقته الأوراق، وإذا تعب من الطاولة، ينسدح ومناظره على خشمه، يقرا ويوقع، وانا اتعطر، واتنظّر، وهالساعة، وبعد شوي، لكن ابد، مثل الحجر، فاغفي، وبعد ساعة، ساعتين، الله يدري، اقوم واناظره: بعده باوراقه واختامه!

- وما سويتي شي؟
- شنهو اللي اقدر اسويه؟
- اندحشي بجنبه، اسأليه، قولي له: يكفيك يا بعد عيني، لأن الأوراق ما تنتهي، ولأن الأولياء والانبياء قالوا: ان لنفسك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً.

ضحكت ثروت بسخرية وهي توضح:

- ما خليت شي الا سويته. وإذا لان مرة، وضحك سنه، وإذا طوى اوراقه وشال مناظره مرة، فألف مرة غيرها لا من شاف ولا من سمع!

قالت فريزة خانم، وهي تغير جلستها:

- يا بنتي، يا ثروت: الرّجال مثل الولد الصغير، كلمة تاخذه والثانية تجيبه، بس المهم ان تتحرك المريّة، ان تعرف شلون لازم تتصرف، أما إذا كانت مثل الحجر، فتصير هم لنفسها ولزوجها، وتخرب بيتها بيدها.

تنفست فريزة خانم مثل بقرة، وبدا انها حانقة، وغير راضية عن سلوك ابنتها، ولما تأكدت انها اوصلت الرسالة تابعت:

- ومن قبل قالوا: اذا شفتم الفقير مخبوص وملتاش فاعرفوا: ان الغني سخره! وانا، يا بنتي، اذا شفت الرِّجال مهموم، وبيّن عليه الكبر والتعب والهم، اسأل حرمته: شنهو اللي سويتيه بالرجال...